الدكتور صلاح الدين الهادي

الأدب في عصر النبوة والراشدين

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة



الأدب في عصر النبوة والراشدين

تأليف
الدكتور صلاح الدين الهادي
أستاذ الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم
جامعة القاهرة

الطبعة الثالثة
مزيدة ومنقحة
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

الناشر
مكتبة الخانجي بالقاهرة

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصويرى بمكتبة الخانجى

رقم الإيداع ١٩٨٧/٧٨٢٣ م
الترقيم الدولى ٤ - ٠٢٩ - ٥٠٥ - ٩٧٧

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة ت : ٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾

(قرآن كريم)

مقدمة

يعد بعض مؤرخى الأدب المحدثين ، الفترة الممتدة من مبعث النبى ﷺ ، إلى سقوط دولة بنى أمية (١٣٢ هـ) عصرا أدبياً واحدا يطلق عليه بعضهم اسم « عصر صدر الإسلام » (١) ، ويسميه الآخرون « العصر الإسلامى » (٢) .

غير أنى أوثر ما اصطلح عليه كثير من مؤرخى الأدب ، من تحديد عصر صدر الإسلام ، بدءا ، بالبعثة النبوية ، ونهاية بتنازل الحسن بن على ابن أبى طالب عن الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان عام ٤١ هـ ، أى أن هذا العصر يشغل نصف قرن من الزمان تقريباً (٣) .

وإنما آثرت فصل هذه الفترة عن العصر الأموى ؛ للخلاف الواضح بين هذين العصرين . سياسيا ، وأدبيا ، وحضاريا .

فحكم النبى ﷺ وخلفائه الراشدين ، يختلف لا شك عن نظم الحكم الملكى فى ظل دولة الأمويين ، كما أن الخلاف بين المسلمين ، دينياً ،

---

(١) انظر تطور الأساليب النثرية فى الأدب العربى : أنيس المقدسى ٨٧/١ (طبعة بيروت ١٩٣٥ م) ، وصدر الإسلام : جورج غريب ص ١٠ (دار الثقافة بيروت بلا تاريخ) .

(٢) النثر الفنى فى القرن الرابع ، زكى مبارك ٥٧/١ (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٤ م) .

(٣) بعث النبى ﷺ بمكة ، قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث عشرة سنة ، وانتهى عصر النبوة والراشدين سنة ٤١ هـ ، فتكون مدته أربعة وخمسين عاما .

ومذهبياً وسياسيا ، لم يظهر فى عهد الراشدين على الصورة الحادة ، التى ظهر عليها فى عصر بنى أمية ، وهذه كلها عوامل مؤثرة فى الأدب ؛ ولذا اختلفت الحياة الأدبية فى عصر صدر الإسلام ، عنها فى العصر الأموى ، فى غير قليل من الملامح الأدبية ، فنجد الشعر – مثلا – فى صدر الإسلام يضطرب بين الضعف والازدهار – كما سنرى – بينما يستعيد فى العصر الأموى ما كان يتمتع به فى العصر الجاهلى ، من صدارة ، وقوة ، وازدهار .

كذلك نجد النثر – وعلى الأخص الخطابة – يعلو صوته فى صدر الإسلام على صوت الشعر ، ثم ينتقل فى العصر الأموى إلى طور آخر ؛ نتيجة لاحتدام الفتن الحزبية والمذهبية ، وتكاثر التيارات الأجنبية ، التى بدأت تخطو سريعا إلى البيئات العربية ، منذ عهد الفتوح الإسلامية الأولى ، أيام خلافة الراشدين ، فأصاب النثر فى أواخر هذه الدولة تطوراً خطيراً آخر ، على يد عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، الذى وضع منهجاً جديداً لفن الكتابة ، كان بمثابة التمهيد القوى لازدهار هذا الفن الأدبى فى عصره الذهبى خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين .

ولقد كانت صلتى بأدب صدر الإسلام حميمة ، منذ أن شغلت – فى مرحلة مبكرة من حياتى الجامعية العليا – بدراسة شاعر من شعرائه ، المعروفين فى التاريخ الأدبى بالشعراء المخضرمين ، وهو الشماخ بن ضرار الذبيانى .

كان لهذه الصلة فضل التفاتى إلى كثير من قضايا الأدب فى هذا العصر ، وحرصى على تتبع ما كتبته أقلام العلماء والباحثين والدارسين – قديماً وحديثاً – حول هذه القضايا ، وقد استرعى نظرى من ذلك كله أمور ثلاثة ، كانت من أهم دوافعى للنهوض بهذا البحث :

أولها : أن أدب هذه الفترة لم يظفر – فيما أعلم – من عناية

الباحثين الجادين المتمرسين بأساليب البحث الأدبى ، بما هو جدير به ، بينما حظيت الحياة السياسية والدينية فيه بقسط وافر من العناية والرعاية والدرس ، والتمحيص والنقد ، مع أن هذا العصر من أكثر عصور الأدب حاجة إلى الدراسة الدائبة ، والبحث الجاد المتعمق ؛ ذلك أنه أبلغ هذه العصور خطراً وأهمية ، بقدر ما للمرحلة التى يمثلها فى تاريخ الأمة الإسلامية من خطر وأهمية ، وما اضطرب به من أحداث بعيدة الأثر ، فهو عصر الصراع بين القيم الإنسانية الحقة الخالصة ، التى جاء بها الإسلام ، والقيم التى بعثتها وأرستها النظم الفاسدة ، والأهواء الضالة ، خلال آماد بعيدة ، وعصور ضاربة فى القدم .

وثانيها : أن بعضاً من قضايا الأدب فى هذا العصر ، قد استقرت فى أذهان كثير من الباحثين والدارسين على نحو من الفهم والتسليم به ، يقوم على التصور الخاطىء لهذه القضايا .

فقد كاد الإجماع ينعقد على أن الحياة الأدبية فى صدر الإسلام ، قد أصابها الضعف والخمول والانكماش ، وأن الشعر – بخاصة – قد ذهب بأوفى نصيب من هذا الوهن والهزال ، وأن الإسلام كان حرباً على الشعر فى هذه الفترة ، فقد ازور عن الشعر ، وذم الشعراء ، ورآه ورآهم على طرفى نقيض مع ما جاء به من مثل ، وآداب ، وأهداف .

كما استقر فى أذهان هؤلاء أن الفتوح الإسلامية كانت وبالا على الشعر والشعراء ؛ بدعوى أنها شغلت العرب عن إنشاء الشعر وإنشاده من ناحية ، والتهمت أرواح كثير من الرواة والشعراء من ناحية أخرى .

وإذا كان أكثر الباحثين فى أدب هذه الفترة ، قد تطرف فقال بضعف الحياة الأدبية فى صدر الإسلام بعامة ، فقد انزلق آخرون إلى القول بازدهار أدب هذا العصر ، فى مختلف بيئاته الزمانية والمكانية .

وسنرى أن هؤلاء وأولئك قد قعد بهم عن تقييم أدب صدر الإسلام تقييما دقيقاً ، منهج خاطىء في النظر إلى هذا الأدب ، فقد أهملوا كثيراً من الظروف التى أحاطت به ، وأثرت فيه .

وثالثهما : أهمية أدبية خاصة ، تجعل من دراسة أدب هذا العصر ضرورة لا غنى عنها ؛ لفهم كثير من وجوه تطور الأدب فى العصر الذى يليه (العصر الأموى) ؛ إذ كانت الصلة قوية بين أدب العصرين .

ففى أولهما أكثر جذور الفنون والمذاهب الأدبية فى الآخر ، ونذكر فى هذا المجال نشأة الكتابة الفنية وتطورها فى صدر الإسلام ، مما عبد السبيل أمام النهضة الفنية لهذا الجنس الأدبى فى العصر التالى ، كما نذكر تطور فن الخطابة الإسلامية ، واتساع مجالاته ، وتنوع أغراضه وألوانه ، فكان ذلك كله قاعدة صلبة ، وثبت منها الخطابة إلى عصرها الذهبى فى عصر بنى أمية .

ولا يغيب عنا ما كان للصراع العنيف ، بين مكة والمدينة فى العهد النبوى ، من يد مباركة على فن النقائض الشعرية ، حيث قفز به هذا الصراع درجات فى سلم التطور ، فلم يعد فناً مغموراً ، قليل الشأن ، كما كان فى الجاهلية ، وقد أتاحت له هذه الوثبة الفنية أن يصل إلى قمة نضجه فى العصر الأموى ، على أيدى الفحول الثلاث : جرير ، والفرزدق ، والأخطل .

لهذا ولغيره ، استعنت الله نهوضاً بهذه الدراسة ، محاولا – قدر طاقتى – أن أضع هذه القضايا والآراء فى إطارها الذى أراه صواباً ، خدمة وإنصافاً لأدب هذا العصر المبارك ، عصر النبوة والراشدين

وهذه الدراسة تهتم أكثر ما تهتم بالقضايا الأساسية الهامة للحياة الأدبية فى صدر الإسلام ، متجاوزة ما يتصل بهذه الحياة من تفاصيل أقل شأناً ، لا يكاد يختلف فيها الباحثون ، أو يجهلها الدارسون .

ويقتضى تناول هذه القضايا بالبحث ، أن أمهد له بحديث موجز عن الحياة العربية بين الجاهلية وصدر الإسلام ؛ لذا تحدثت عن العرب فى جاهليتهم ، وعن المستحدثات التى جدت على البيئة العربية بظهور الإسلام ، ومدى استجابة العرب لها فى هذه الفترة .

وأتبعت ذلك بحديث عن القرآن الكريم – دستور الإسلام ، ومعجزته الكبرى – إذ كان أهم المستحدثات الإسلامية حينئذ ؛ لنرى عند دراسة قضايا النثر والشعر ، مدى تأثرهما بأساليب هذا الكتاب المعجز ، واستجابتهما لما أثاره فى عقول الأدباء من فكر مستنير ، أو معنى مستحدث (١) .

وقد توخيت فى هذه الدراسة طريق القصد ، فى عرض الملامح الأدبية لهذه الفترة ، وسوق نماذجها ؛ إذ كان جل قصدى إمداد المكتبة العربية بصورة متكاملة ميسرة ، لأهم جوانب الحياة الأدبية فى عصر صدر الإسلام .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت .

صلاح الهادى

---

(١) يجد القارىء منهج هذه الدراسة مفصلا ومثبتا فى نهايتها ، ولم اتحدث عنه إيثاراً للاختصار ، وتجنبا للتكرار .

تمهيد

- ١ -

نظرات في الحياة العربية
بين الجاهلية والإسلام

(١) العرب فى جاهليتهم :

لكى ندرك ما حظيت به حياة العرب فى ظل الإسلام ، من تطور خطير ، ونهضة شاملة ، ينبغى أن نتعرف ، أولا ، ما كان عليه العرب قبل الإسلام فى : عقائدهم ، وعباداتهم . ومعارفهم ، وعاداتهم ، وأخلاقهم ، ومعاملاتهم ، ونظم معيشتهم وحياتهم ؛ إذ بالمقارنة بين حياتهم فى الحالين تتضح الفروق بين ما كان عليه العرب فى جاهليتهم ، وما صاروا إليه بعد الإسلام ، كما يمكن إدراك الآثار التى نتجت عن ذلك فى الحياة الأدبية موضع هذه الدراسة .

كانت البداوة هى السمة الغالبة على العرب ، الذين كانوا يعيشون فى إطار جزيرتهم الصحراوية ، لا يكادون يخالطون غيرهم من الأمم المجاورة لها ، أو يرتحلون إلى غيرها ، اللهم إلا أهل الحواضر العربية ، ذات الصلات التجارية ، والحضارية ، والسياسية ، ببعض الأمم المتحضرة ، على أطراف الجزيرة ، وطائفة من شعراء البوادى والقرى ، الذين كانوا « يلمون بعرب الشام ، وعرب العراق ، ويأخذون جوائز ملوكهم وسادتهم ، ويعودون بعد

ذلك إلى قومهم ، فيحدثونهم بما رأوا وما سمعوا » [١] . أما عامة البدو من العرب ، فقد قامت أسوار الصحراء حاجزاً بينهم وبين تلك الحضارات المجاورة للجزيرة ، نعم ، قد يضطر بعضهم ، حين يقسو العيش فى الصحراء ، فتجدب الأرض ، وتشح السماء ، إلى تولية وجوههم صوب أطراف العراق ، أو الشام ، أو فارس ، التماساً للرزق ، ولكنهم سرعان ما يعودون إلى صحرائهم ، خوفا من الذل فى سلطان دولة أعجمية [٢] .

ومعنى ذلك أن الأمة العربية لم تكن فى جاهليتها تعيش فى عزلة تامة ، لا تعرف معها من أمر الأمم المجاورة شيئاً ، غاية الأمر « أن قلب الجزيرة العربية وشمالها ، لم يخضعا لسلطان أمة متحضرة ، وإنما خلى بينهما وبين الحياة الحرة ، يحياها أهلهما كما يريدون ، وكما يستطيعون ، فعاشوا عيشتهم تلك الغليظة الجافية ، لم تصل إليهم حضارة تلك الأمم ، وإنما وصلت إليهم أطراف منها ، فهموا بعضها ، وقصروا عن فهم بعضها الآخر ، فسيطرت عليهم جاهليتهم بكل ما فيها » [٣] من خير وشر ، محمود ومرذول .

وقد شكلت هذه البداوة حياة العرب الروحية والحسية ، فلم تهيىء لهم من دواعى الفكر ما يحملهم على تبحر فى علم ، أو تبصر فى دين ؛ ومن ثم ضلوا الطريق إلى حياة روحية سليمة ، تهديهم إلى معرفة الخالق جل وعلا ، وتقربهم منه ، فتشعبت بهم السبل ، ولم يجمعهم دين ، أو انتظمتهم عقيدة واحدة .

---

(١) مرآة الإسلام : طه حسين ص ١١ (طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٩ م) .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية : جورجى زيدان ٢١٥/١ (طبعة دار الهلال – القاهرة ١٩٣٦ م) .

(٣) مرآة الإسلام : طه حسين (١١ – ١٢) .

كان أكثر العرب الجاهليين مشركا ، يعبد الأصنام والأوثان ، دون أن يشغل عقله بالالتفات إلى ما فى ذلك من سخف وضلال ، فقد ينحت بعضهم الصنم بيديه ثم ينقلب فيعبده ، دون نفع يرجى ، أو ضرر يخشى [١] ، أو يقدس شجرة ، ثم لا يتحرج من الانتفاع بثمارها وغصونها ، إن احتاج إلى ذلك .

ومع تقديس العرب الوثنيين لآلهتهم من الأحجار والأشجار والينابيع وغيرها ، فإن كثيراً منهم لم يخلصوا لها العبادة ، ولم يتخذوها آلهة عن اقتناع وتدبر ، أو اعتقاد بأنها خالقة قادرة مدبرة ، وإنما هى — فى وجدانهم — رموز مقدسة لإله أقدس ، فلم يكن شركهم إشراكا خالصا يسوى بين الله وهذه الآلهة فى الاعتقاد والعبادة ، يشهد بذلك القرآن الكريم ، وهو يحكى عنهم حجتهم فى عبادة الأصنام والأوثان ، ويرد عليها ويدحضها ، فهم يقولون : إنها وسائط وشفاعات تقربهم إلى الله زلفى [٢] ، مع اعتقادهم بأن الله خالق السموات والأرض ، ورب العرش العظيم [٣] وخالقهم [٤] ورازقهم ، ومدبر الأمر كله [٥] .

فإذا ما أحرجهم القرآن فى محاجته إياهم ، تبين أن ما حجب عقولهم عن تدبر ما هم عليه من اعتقاد فاسد فى هذه الآلهة ، إنما هو الجمود على التقاليد ، وما وجدوا عليه الآباء ، إذا قالوا : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا

---

(١) تاريخ الأدب العربى فى صدر الإسلام والعصر الأموى : السباعى بيومى ص ٧ (الطبعة الثانية — القاهرة ١٩٣٥م) .

(٢) انظر سورة الزمر ٣/٣٩ ، وأيضاً بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب الألوسى ٩٧/٢ (الطبعة الثانية — القاهرة ١٣٤٢ هـ) .

(٣) انظر سورة لقمان : ٢٥ وسورة المؤمنين : ٨٦

(٤) سورة الزخرف : ٨٧

(٥) سورة يونس : ٣١

عَلَىٰ أُمَّةٍ * وإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (١) ، وقال الله تعالى فيهم : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ (٢) .

فاعتقاد العرب فى الأصنام والأوثان كان غير مبرإ من الشرك بالله ؛ لما نسبوا إلى هذه الآلهة من قدرة على الشفاعة ، وقربى إلى الإله الأعظم ، قادتهم كثيرا إلى الاعتقاد بأنها مؤثرة فيما يصيبهم من خير أو شر ؛ ومن ثم عبدوها فأشركوا فى عبادة الله غيره .

وربما كان هذا هو ما قصد إليه صاعد الأندلسى فى قوله (٣) : « وجميع عبدة الأوثان من العرب موحدة الله تعالى ، وإنما كانت عبادتهم ضرباً من التدين بدين الصابئة ، فى تعظيم الكواكب والأصنام ، الممثلة بها فى الهياكل ، لا على ما يعتقده الجهال بديانات الأمم ، وآراء الفرق ، من أن عبدة الأوثان ترى أن الأوثان هى الآلهة الخالقة للعالم ، ولم يعتقد قط هذا الرأى صاحب فكرة ... » .

ومع هذا فنحن لا نرى رأى صاعد فى أن العرب الوثنيين ، كانوا أمة موحِّدة تماما ؛ إذ شاب توحيدهم ضرب من الإشراك أشرنا إليه ، ونعاه القرآن عليهم فى كثير من آياته من ذلك قوله تعالى (٤) : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ : وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ ، فقد

---

(١) سورة الزخرف : ٢٢

(٢) سورة الصافات : ٦٩ – ٧٠

(٣) طبقات الأمم : صاعد الأندلسى ص ٢٤ (طبعة الكاثولكية – بيروت ١٩١٢ م) .

(٤) سورة الأنعام : ٢٢ – ٢٤

أخبر الله تعالى أنهم أشركوا ، وسماهم المشركين ، ودمغهم بالكذب يوم القيامة ؛ لأنهم شهدوا على أنفسهم فى الدنيا بالشرك ، فيما حكاه عنهم القرآن ، فى قوله تعالى (١) : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا ﴾ ، وصدق الله العظيم (٢) : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ .

وفى أشعار الجاهليين ما يدل على أنهم أشركوا ، فعبدوا مع الله أصنامهم وأوثانهم ، يقول أوس بن حجر (٣) :

وباللّات والعُزّى ومَنْ دَانَ دِينَها وبالله ، إنّ الله منهنّ أكبرُ

فهو يعتقد بالله الذي هو أكبر من كل معبوداتهم وأقدس .

وربما كانت مكة أكثر البيئات العربية اهتماماً بالوثنية ، وترسيخاً لديانتها ، وتمسكا بطقوسها ؛ لأنها قلعة هذه الديانة ، ومجمع أصنام العرب ، « بينما نجد أن المناطق الأخرى أقل حماسة لعبادة الأوثان ، وبخاصة البادية ، التى تنظر إلى هذه العبادة نظرة غير جادة ، فكثيرا ما يثور الأعرابى على صنمه ، حينما تتضارب أهواء العابد والمعبود » (٤) .

وقد سقطت إلينا بعض الروايات التى تشهد بضعف اعتقادهم — أو اعتقاد بعضهم على الأقل — فى هذه الآلهة :

---

(١) سورة الأنعام : ١٤٨

(٢) سورة يوسف : ١٠٦

(٣) ديوانه ٢٦ (بتحقيق يوسف نجم — بيروت ١٩٦٠ م) ، والأصنام ١٧

(٤) الجاهلية : مقدمة فى الحياة العربية : يحيى الجبورى ١٠٨ (مطبعة المعارف ببغداد ١٩٦٨ م) .

وأيضا :

Nicholson, A Literary history of the Arabs, P. 185.

يحدث أبو الفرج الأصفهانى : أن امرأ القيسَ بن حجر الشاعر الجاهلى لما خرج يطلب الثأر من قتلة أبيه ، عرج على صنم للعرب تعظمه ، يقال له « ذو الخلصة » فاستقسم عنده بالأزلام ، فإذا بسهم النهى يخرج له ثلاث مرات ، فما كان منه إلا أن جمع السهام وكسرها ، وضرب بها وجه الصنم ، وسبه ، وسخر منه ، وقال : « لو أبوك قتل ما عقتنى » [١] ، ثم خرج لطلب الثأر وهو يقول :

لو كنتَ ياذا الْخَلَص المَوْتُورا مثلى وكان شيخك المقبورا
لم تَنْهَ عن قتل العِداة زُورا

وربما اهتدى بعضهم بشىء من التأمل إلى فساد أمر آلهتهم تلك ؛ من ذلك ما روى من أن غاوى بن عبد العزى ، مر بصنم مشهور يسمى (سواع) فرأى ثعلبين يأكلان بين يديه مما يهدى إليه ثم يعتليانه فيبولان فوق رأسه ، فأثار ذلك فى نفسه كوامن الشك فى هذه الآلهة ، التى لا تحمى حماها ، ولا تدفع الأذى عن نفسها ، وعبر عن رفضه لها ، وسخريته بها فى قوله : [٢]

أربٌّ يبولُ الثّعلبان برأسه لقد ذلَّ منْ بالتْ عليه الثّعالبُ

ويرفض زيد بن عمرو بن نفيل عبادة الأصنام ، ويرى فى عبادتها

---

(١) الأغانى ٦٨/٨ (طبعة الساسى) ، والأصنام : ابن الكلبى ٣٥ ، ٤٧ (طبعة دار الكتب المصرية – الطبعة الثانية ١٩٢٤ م) ، والسيرة لابن هشام قسم ٨٦/١ (الطبعة الثانية – الحلبى ١٩٥٥ م) وقد نسب ابن هشام هذا الرجز لرجل من العرب ، ثم قال : « ومن الناس من ينحلها امرأ القيس بن حجر الكندى » ، وانظر : ديوان امرىء القيس – ملحق الديوان ٤٦٠ (بتحقيق أبى الفضل إبراهيم – دار المعارف بمصر ١٩٥٨ م) .

(٢) انظر تفصيل الرواية فى : شرح شواهد المغنى : السيوطى ١٠٩ (طبعة ١٣٢٢ هـ) ، وقد وفد غاوى بن عبد العزى على رسول الله وأسلم فسماه الرسول : راشد ابن عبد ربه .

تحقيراً للعقل ، وطفولة فى الفكر ، فيقول (١) :

تركتُ اللّات والعُزّى جميعاً كذلك يفعلُ الجلْدُ الصّبور

فلا العزّى أدِينُ ولا ابنتيْها ولا صَنَمَىْ بنى غَنَمٍ أزُور

ولا هُبَلا أزورُ وكان رَبًّا لنا فى الدّهر إذْ حِلمى صغير

وأقبل أعرابى على صنم بساحل جدة يقال له (سعد) ومعه إبل له ؛ ليقفها عليه ، يتبرك بذلك فيها ، فلما أدناها منه نفرت ، خوفاً مما عليه من دماء القرابين ، وذهبت فى كل وجه ، فتناول الأعرابى حجراً ورمى به الصنم ، وقال : « لا بارك الله فيك إلهاً !! أنفرت على إبلى » ثم جد فى طلبها حتى جمعها ، وانصرف وهو يقول (٢) :

أتينا إلى سعدٍ ليجمع شَمْلَنَا فشتّتنا سعدٌ فلا نحنُ من سعد

وما سعدُ إلا صخرة فى تَنوفَةٍ من الأرض لا يُدْعَى لغىّ ولا رُشْد

وها هو ذا سادن من سدنة الأصنام ، يدعى ، خزاعى بن عبد نهم المزنى ، طالت صحبته لصنم مزينة (نُهْم) فأدرك ما فى عبادته من سخف ، وضعف عقل فأنكرها ، وأسرع إلى رسول الله ﷺ لما علم به فأسلم ، وهو يحكى هذه الصحوة العقلية فى قوله (٣) :

ذهبتُ إلى نُهْمٍ لأذبحَ عنده عَتيرَةَ نُسْكٍ كالذى كنتُ أفعلُ

فقلتُ لنفسى حين راجعتُ عقلَها أهذا إله !! أبُكم ليس يَعْقِلُ

أبَيْتُ فدِينى اليومَ دينُ محمدٍ إله السماء الماجد المتفضّلِ

فهذه الروايات وأمثالها تدل دلالة قاطعة ، على أن من العرب من تنبه إلى فساد الاعتقاد بالأصنام والأوثان ، وعبر عن هذا التنبه علانية ، فكان

---

(١) الأصنام ٢١ ، ٢٢ ، وانظر السيرة لابن هشام ق ١/٢٢٤

(٢) الأصنام ٣٧ والسيرة لابن هشام ق ٨١/١

(٣) الأصنام ٣٩ ، ٤٠

هذا من بشائر الصحوة العقلية التى مهدت لرسالة السماء فى الجزيرة العربية .

ومن العرب قلة عبدت الكواكب والنجوم ، وهم الصابئة ، أو قدست النار ، واتخذت لها المعابد ، وهم المجوس ، أو خلعوا الاعتقاد فى الأديان جميعاً وقالوا : ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ (١) وهم الدهريون ، ومنهم غير هؤلاء وأولئك (٢) ، وكلهم متخبط فى ظلام الجهل ، بعيد عن الحياة الروحية السامية .

وإلى جانب هذه الحياة الدينية المختلة الفاسدة ، عاش كثير من عرب الجاهلية أسرى لبعض الأوهام والخرافات ، يؤمنون بالعرافة والكهانة ، ويعتقدون فى زجر الطير والحيوان ، وما إلى ذلك من سخيف المعتقدات ، كتعليق الأقذار ، وعظام الموتى على الرجل إذا خيف عليه الجنون (٣) ، وكى البعير السليم ليبرأ الأجرب ، وحبس البلايا على قبور موتاهم ، والإيمان بالصدى والهامة ، وغير ذلك مما ران على قلوبهم ، وشاب عقولهم ، وغشى أبصارهم ، اللهم إلا طائفة منهم ممن عاشوا فى الحضر ، وأتيحت لهم فرصة الاتصال ببعض أهل الكتاب من أحبار اليهود ، وكهنة النصارى ، الذين كانوا يشيعون أخبار النبوة والأنبياء ، ويبثون أفكاراً دينية عن الله والعالم الآخر ، فسرت بينهم يقظة روحية ، عمرت قلوبهم ، وأضاءت نفوسهم ،

---

(١) سورة الجاثية : ٢٤

(٢) انظر فى مختلف هذه الديانات : الحياة العربية من الشعر الجاهلى : أحمد الحوفى ٣٧٧ - ٣٨٨ (الطبعة الرابعة - القاهرة ١٩٦٢ م) ومروج الذهب : المسعودى ١٢٠/٣ (طبعة محيى الدين عبد الحميد - القاهرة ١٩٥٨ م) ، وتاريخ العرب قبل الإسلام : جواد على ٢٨٤/٦ وما بعدها (المجمع العلمى العراقى - بغداد بلا تاريخ) .

(٣) فجر الإسلام : أحمد أمين ٤٦/١ (الطبعة الثانية - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٣٣ م) .

وفتحت أذهانهم لتلقى خبر السماء ، وتشوفوا لما وقر فى إحساسهم من قرب رسالتها ، فكان ذلك إرهاصاً ببزوغ فجر الإسلام على جزيرة العرب ، ثم شروق شمسه على العالم أجمع .

يقولون : إن الإنسان رسم تصنعه البيئة على صورتها [(١)] ، وهذا القول يصدق أكثر ما يصدق على العرب فى بيئتهم الصحراوية القاسية ؛ حيث تتمثل الفطرة التى لم تعبث بها يد الصنعة ، ولم تتناولها عوامل التهذيب والتغيير والتبديل ، وقد انعكست هذه الطبيعة على حياة العربى فى الجاهلية ، فشكلته على غرارها ، وتأثر بها فى خلقه ، وعاداته ، ونظام حياته ، وأحوال معيشته .

لقد اقتضته معيشته فى بيئة يغلب عليها الجدب ، أن يكافح فى سبيل الحصول على ما يحفظ عليه وعلى دوابه الحياة ، فهو فى رحلة دائمة ، يقيم ما وجد العشب والماء ، وينزح ما افتقدهما ، وكثيراً ما يضطر إلى الدفاع عما يصيبه من ماء ومرعى ضد من تحدثه نفسه بانتزاعهما منه ، بل كثيرا ما يكون العدوان وسيلته الوحيدة للحصول عليهما ، فهو بين مغير ومغار عليه ؛ ومن ثم كان لابد له من الاحتماء بقبيلته لتنصره ظالماً أو مظلوماً ، ومن هنا أيضاً كانت العصبية القبلية والقوة هما شريعة هذا العربى ، ولم يشذ عن ذلك قبيل من العرب ، حتى من اتخذوا المدن والقرى مستقراً لهم ومقاماً .

ومن أجل هذا كثرت الحروب بينهم ، وتخطفتهم سيوف الثأر ، والحمية والسلب ، والنهب ، فأفنى كثيرهم قليلهم ، وأكل قويهم ضعيفهم ، مما جعل حياتهم سلسلة من المعارك التى تنوعت أسبابها ، وكثرت أيامها ، بحيث يمكن القول بأن العلاقة بين قبائلهم توشك أن تكون دموية الطابع فى أغلب الأحيان .

---

(١) أطوار الثقافة والفكر ٣١/١

كما أورثتهم هذه الحياة بعض الخصال التى هذبها الإسلام – فيما بعد – وجعل منها مثلا أخلاقية عليا للإنسان المسلم ، فقد دفعهم جدب الأرض وقلة الخصب ، إلى نوع من التعاطف الإنسانى ، يتمثل فى خصلة الكرم ، كما كان للشجاعة والفروسية عندهم منزلة سامية ، فهى مفخرتهم فى بيئتهم الحربية ، التى تكثر فيها دواعى النزاع ، وقد يذهب العربى فى شجاعته إلى حد التهور ، فلا يأبه للمخاطرة بل يقتحمها ، لا يتردد ولا يتلوم ، فما هو إلا أن ينفعل متوهماً أن كرامته قد مست ، أو عرضه قد أهين ، حتى يسرع إلى سيفه ، محتكما إليه دون تفكير أو روية ، أو تدبر فى عواقب الأمور .

هذا إلى جانب ما عرف به العربى من المروءة والنجدة ، والوفاء بالعهد ، وعزة النفس ، وإباء الضيم ، والغيرة على العرض ، والعفة .. وغيرها من الخلال التى طالما تغنى بها شعراؤهم [١] ، وأقرهم الإسلام عليها ، وحثهم على التمسك بها ؛ إذ لا يغيب عنا أن الإسلام ، وإن كان قد جب رذائل الجاهلية ، ونفر منها ، فإنه أقر فضائلها ، وبارك بعض عاداتها ، التى توافق شريعته وتلائمها .

ومع ذلك ، فقد شوه جمال هذه الصورة الأخلاقية ، بعض الخصال الذميمة ، التى لم تخل منها البيئة العربية الجاهلية ، كشرب الخمر ، ولعب الميسر ، وأكل الربا ، والنهب والسلب ، والظلم ، والتفاخر بالأحساب والأنساب ، والخيلاء والغرور ، والكذب وقول الزور ، وجفاء الطبع ، وغلظة القلب ، وغيرها من الخصال التى نعاها القرآن عليهم ، وطالبهم بالبراءة منها .

---

(١) للاستزادة من أثر البيئة فى أخلاق العرب ، وعاداتهم ، ومعيشتهم انظر : كتاب المؤلف : الشماخ بن ضرار الذبيانى – حياته وشعره ص ٢٧ وما بعدها (طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٨ م) .

على أن ذلك لا يمنعنا من القول بأن الأمة العربية فى جاهليتها بعامة ، لم تكن على تلك الصورة التى ألصقها بها كثير من الباحثين – من عرب ومستشرقين – والتى تظهرها للناس أمة جهل وعمى ، قد عزلت تماماً عن العالم [١] ، وعاشت غارقة فى بحر من البداوة ، والفوضى والتوحش ، حتى قال بعض المستشرقين [٢] : « إن العصر الجاهلى عصر ظلام حالك » .

ويقيننا أن من نهج هذا المنهج فى تصوير الحياة العربية الجاهلية ، قد تحامل عليها تحاملا غير قليل ، إما عن سوء فهم ، أو سوء قصد ، فالأمة العربية فى جاهليتها ككل الأمم والشعوب التى مرت بهذا الطور من الحضارة البدوية ، لها فضائلها ورذائلها ، كما أن لها نصيبها من الحضارة التى تناسب طور حياتها ، والمعرفة التى تتطلبها هذه الحياة [٣] .

وحسبنا أن نعلم أن هذا الحظ من الحضارة والمعرفة ، والمثل الأخلاقية ، قد أهلها لتقبل رسالة السماء حين أظلتها [٤] ، ووثبت بها – فى مدة وجيزة – وعلى هديها إلى نهضة عظيمة ، ارتقت بها فى سلم الحضارة درجات ، وغذتها بألوان وفنون من العلم والثقافة والآداب .

---

(١) انظر فى صلات العرب الجاهليين بالحضارات المجاورة كتاب المؤلف : أمراء الشعر فى العصر الجاهلى (الفصل الأول) مطبعة قاصد خير – القاهرة ١٩٧٥ م ، وأيضاً : الجاهلية : يحيى الجبورى ٩٢ وما بعدها ، ومرآة الإسلام : طه حسين ١٠ وما بعدها ، وفى اتصال مكة – خاصة – بهذه الحضارات ، انظر : مكة والمدينة أحمد إبراهيم الشريف ١٥١ – ١٦٤ (الطبعة الثانية – دار الفكر العربى ١٩٦٥ م) .

(٢) حضارة العرب : جوستاف لوبون ٩٧ (طبعة الحلبى – القاهرة ١٩٢٥ م) .

(٣) انظر فى ألوان هذه المعرفة الجاهلية : يحيى الجبورى ٧٥ وما بعدها ، وتاريخ الأدب العربى فى صدر الإسلام : السباعى بيومى ٦٢ – ٦٦ ، وأطوار الثقافة والفكر ٩/١ وما بعدها ، وتاريخ آداب اللغة العربية : جورجى زيدان ١٩٩/٢ وما بعدها .

(٤) انظر فى تهيؤ البيئة العربية للنهضة الإسلامية : مكة والمدينة ٢٣٦ وما بعدها .

(ب) الإسلام والحياة العربية :

كان ظهور الإسلام أضخم حدث حول التاريخ العربى عن مجراه ، فلا عجب إذن أن يكون له أبلغ أثر فى حياة العرب ، ولم لا ؟! وهو الذى غير معالم الحياة ، وبدل المفاهيم والأنظمة ، وارتفع بالنفسية العربية إلى مناخ من التفكير لم تألفه من قبل .

نعم ، إن الإسلام خلق العرب خلقاً يكاد يكون جديدا ، وجعل منهم أمة بأدق معانى هذه الكلمة وأوسعها ؛ فقد هيأها للنهوض بالمهمة الكبرى ، التى تتجاوز حدود جزيرتها ، ولتحول وجهة التاريخ ، وتغير وجه الأرض فى أقل من نصف قرن ، بعد أن نفذ إلى قلوبها ، واستأثر بضمائرها ، وفتح آفاقا كانت مغلقة أمامها ، وحررها بعد الرق ، رق النفوس للشهوات ، وطهرها بعد الرجس ، رجس الخطايا والآثام ، ووحدها بعد الفرقة ، وملأ قلوبها نوراً ، فانبث أبناؤها فى الأرض ينشرون نور الله ، ما وجدوا إلى نشره سبيلا .

كانت تعاليم الإسلام ومبادئه وأهدافه ومثله ، تمثل ثورة على الحياة العربية الجاهلية بعامة ، ثورة فى العقيدة والفكر ، والسياسة ، والمثل ، وأحوال الاجتماع المختلفة .

فمن حيث العقيدة والفكر : شدد الإسلام النكير على العقائد الوثنية المادية ، وغيرها من العقائد ، ودعا إلى عبادة روحية سامية ، تتضمن فروضاً عقدية ، وأخرى عملية .

وأول الفروض العقدية وأقدسها معرفة المعبود الحق ، فلفت عقول العرب إلى أن هذا المعبود هو إلـٰه كل شىء ، رب العالمين ، لا إلـٰه قبيلة بذاتها ، أو أمة بعينها ، وفتح عيونهم على عبادة إلـٰه واحد لا شريك له ،

خالق مبدع ، كل ما فى الكون من صنعته ، عالم ، لا يخفى عليه أمر ، أو يند عن علمه شيء ، قوى عزيز ، وسعت قدرته ورحمته كل شيء ، ربهم ورب آبائهم الأولين .

كما نبه الأذهان إلى حياة أخرى ، وراء هذه الحياة الدنيا ، يومها هو يوم القيامة ، واليوم الآخر ، ويوم الحساب ، فيه يحاسب المرء على ما قدمت يداه ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (١) ، وبذلك ربط مصير الإنسان فى حياته الأخرى الباقية ، بأعماله على الأرض فى حياته القصيرة الفانية .

كما لفت الأنظار إلى ملكوت السموات والأرض ، وحث على النظر فيه ، وتدبر لطيف صنعته ، والاستدلال بالخلق على خالقه (٢) ، محارباً بذلك ما كان فاشياً فى المجتمع الجاهلى من خرافات وأوهام ، داعياً إلى أعمال الفكر المنطقى الخالص ، والتأمل العقلى الصرف ، محركا العقول بالمعرفة ، وموجهاً الأذهان إلى النظر والفهم والتدبر .

وقد شفع الإسلام هذه الفروض العقدية ، بفروض عملية أساسية ، تنظم علاقة المسلم بربه ، كما تعمل على تنمية الإحساس بالمسئولية الاجتماعية ، والتضامن الاجتماعى فى نفسه ، نحو إخوانه ومجتمعه ، من صلاة ، وزكاة ، وصوم ، وحج ، وأوضح أن هذه الفروض لا تقبل من

---

(١) سورة الزلزلة : ٧ — ٨

(٢) فى القرآن الكريم آيات كثيرة تحث على النظر والتدبر ، وتعلى من شأن التفكير والعقل ، وتتخذ من ذلك كله منهجاً عقلياً علمياً للاستدلال على وجود الخالق ، سبحانه وتعالى . وعلى وحدانيته وقدرته ، ولأستاذى الدكتور أحمد الحوفى بحث قيم يكشف عن موقف القرآن من العقل والفكر ، ومدى اعتماده عليهما فى الاستدلال والإقناع ، تحت عنوان : القرآن والتفكير (نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية — القاهرة ١٩٧٥ م) فليراجع للاستزادة ص ٣٨ وما بعدها .

المسلم إلا إذا حسنت نيته ، وصدق إيمانه حين يؤديها ، فإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى – كما روى عن الرسول – أى أن إخلاص النية لله فيما يؤدى الإنسان من الفرائض ، وما يأتى من أعمال الخير والبر ، شرط لصحة ما يأتى وما يدع ، وقبول ذلك عند الله عز وجل .

ومن حيث التربية الأخلاقية : حرم الفواحش والآثام ، ما ظهر منها وما بطن ، كالزنا ، وشرب الخمر ، ولعب الميسر ، والربا ، والسرقة ، وقتل النفس التى حرم الله قتلها ، والبغضاء والحسد ، وغيرها .

ولم تعد الشجاعة الشخصية ، والشهامة التى لا حد لها ، والكرم إلى حد الإسراف ، والإخلاص التام للقبيلة ، والقسوة فى الانتقام ، والأخذ بالثأر من المعتدى ، ونجدة المستغيث – ولو كان معتدياً – قضاء لحق القرابة والدم ، لم يعد ذلك أصل الفضائل فى الحياة العربية الجديدة ، بل أصبح المثل الأعلى للإنسان المسلم ، هو الخضوع لله والانقياد لأمره ، والصبر على قضائه ، وإخضاع منافع الشخص ، ومنافع قبيلته لأوامر الدين ، والقناعة ، وعدم التفاخر بالأنساب ، والتكاثر بالولد ، وتجنب الكبر والعظمة ، والتزام العدل والأمانة والإحسان [١] .

وهكذا لقن الإسلام العرب الآداب العامة ، وعلمهم مناهج السلوك واللياقة عند التحية ، واللقاء ، والزيارة ، والحديث ، ودأب القرآن الكريم على دعوتهم إلى البر بالفقراء والمساكين ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والوفاء ، وكل ما هو خير .

وبرد الخلق العربى إلى هذه الفطرة الخيرة ، كان لا بد أن ينفعل هذا الخلق بالهدى الإسلامى ؛ ومن ثم انقلبت شريعة الظلم والعدوان ، وتسلط

---

(١) عن فجر الإسلام ١ / ٩٢

الأهواء والشهوات دستوراً لمعطيات الدين الجديد ، وما يوحى به من تسامح ومسالمة وعفة ، ورعاية لحقوق الإنسان ، « فعلى بقايا العرف الجاهلى البدائى المسلك ارتقت مثل وقيم سامية » [١] .

أما من الناحية السياسية : فقد جد الإسلام فى القضاء على الأسس التى قامت عليها الوحدة القبلية ، وأهمها العصبية القبلية القائمة على صلات الدم والنسب ، والتعصب لهما ، والتفاخر بهما ، وعمل جاهداً على صهر العرب فى بوتقته ؛ ليجمع بينهم على اختلاف أنسابهم ومواطنهم – **فى وحدة إسلامية** ، سياسية ، قوامها : **الاتفاق فى العقيدة** ، **ونظام الحكم** ، **والآداب** ، يدينون فى ظلالها بالطاعة لولى الأمر فى الإسلام ، لا لرؤساء القبائل وسادتها ، وينصاعون لحكم الإسلام ، لا لعرف القبيلة ، وتقاليدها الموروثة ، ويعتاضون عن الولاء للقبيلة ، والتفانى فى خدمتها ، بالولاء للإسلام ، والتفانى فى خدمته ، ونشر تعاليمه فى ربوع الأرض ، ويلتمسون الأمن والحماية فى ظل الإسلام لا بالالتجاء إلى القبيلة ، والاعتماد على نصرتها ، كما يعتاضون عن الأخوة فى الدم بالأخوة فى الإسلام ، ويقلعون عن مستهجن العادات والأخلاق ؛ ليتحلوا بما سنه الإسلام من مكارم الأخلاق ، ومحاسن العادات ، ورفيع المثل ، من التعاون على الخير ، والتعاطف ، والتراحم ، وأخذ القوى بيد الضعيف ، حتى يحل التآزر والتآلف ، محل الخصام والنزاع والشقاق .

وفى المجال الاجتماعى : حرص الإسلام على تأسيس مجتمع واضح الأعراف والمفاهيم ، فى كل ما يتعلق بالحقوق والواجبات ، والروابط الإنسانية ، وسائر الأحوال الشخصية ، ويكفى أن نضرب مثلا ببعض

---

(١) صدر الإسلام : جورج غريب ١٣

ما أحدثه الإسلام فى الحياة الاجتماعية من تأثير ، بموقفه من المرأة ، فقد أعلى من شأنها وأكرمها - أمة وحرة - حيث أوجب العناية بها ، والعطف عليها ، فحرم أن تعضل ، أو تمنع من الزواج بعد وفاة زوجها ، كما كفل لها حقوقها ، وحفظ كرامتها وافرة ، بتحريم أنواع قبيحة من الزواج ، كانت معروفة فى المجتمع الجاهلى . كنكاح المقت (١) ، ونكاح الشغار (٢) ، والجمع بين الأختين - وكان العرب يكرهون ذلك ، وينهون عنه ، كما يذكر الشهرستانى (٣) - وفرض الإسلام للمرأة نصيباً من الميراث ، إلى غير ذلك ، مما جاء به الإسلام تعزيزاً لمكانة المرأة ، واحتفاء بها .

كما نشير إلى ما سن الإسلام من قوانين العدل الاجتماعى ، التى جعلت من المسلمين جميعاً ، على اختلاف ألسنتهم وأجناسهم ، إخوة متساوين ، لا يفضل بعضهم بعضاً بأية ميزة ، من جنس ، أو نسب ، أو ثراء ، أو نحوها مما تعارف عليه العرب فى الجاهلية ، وإنما يكون التفاضل بمدى الاجتهاد فى الطاعة لله وتقواه ، كما فرضت عليهم هذه القوانين أفضل نهج للتضامن الاجتماعى ، الذى يشيع بينهم المودة والرحمة ، ويستل من قلوبهم البغضاء والحقد .

وهنا يقفز إلى أذهاننا السؤال التالى :

هل استطاع الإسلام أن يحدث هذا التحول الخطير فى حياة العرب ، خلال تلك الفترة (صدر الإسلام) التى نتحدث عنها ؟ أو بعبارة أخرى ،

---

(١) هو أن يخلف على المرأة أكبر أبناء زوجها المتوفى . انظر الأغانى ١/٩

(٢) هو : أن ينكح الرجل وليته رجلا ، وينكحه هو ولية ذلك الرجل بلا مهر ، انظر نهاية الأرب فى فنون الأدب ، النويرى ٢/٢٤٥ (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٤ م) .

(٣) انظر الملل والنحل ٣/٣١٧ (المطبعة الأدبية بمصر ١٣٢٠ هـ) .

هل استطاعت تعاليمه أن تمحو تعاليم الجاهلية ونزعاتها ، بمجرد دخول العرب فى الإسلام ؟

الحق أن هذا التحول لم يكن يسيراً أو هيناً ، فلقد لقى الرسول وخلفاؤه الراشدون عنتاً شديداً فى سبيله — سواء من ممثلى الزعامة الدينية الوثنية فى مكة ، أو من تيار العصبية القبلية بتقاليدها الموروثة فى البادية — وبذل الرسول وبذل خلفاؤه جهوداً مضنية ؛ ليجعلوا من هذا التحول المنشود حقيقة واقعة ، تنتظم العرب جميعاً ، يعرف هذا كل من قرأ فى كتب السير والتاريخ ، التى تهتم بهذه الفترة من تاريخ الإسلام ، وبخاصة تاريخ غزوات الرسول ، وحروب الردة فى عهد أبى بكر ، والفتنة الكبرى أيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان .

وإذن ، فلا يمكننا القول بحدوث هذا التحول طفرة ، أو فى فترة قصيرة ، بل لا نستطيع أن ندعى أن الاستجابة لتعاليم الإسلام وآدابه ومثله كانت شاملة العرب جميعاً ، بدوهم وحضرهم ، فى هذه الفترة ، فإن ذلك أمر يأباه واقع التاريخ الإسلامى فى هذا العصر ، كما تأباه سنة التطور « فالنزاع بين القديم والجديد ، والدين الموروث والحديث ، يستمر طويلا ، ويحل الجديد محل القديم تدريجياً ، وقل أن يتلاشى بتاتاً ، وهذا ما كان بين الجاهلية والإسلام » (١) .

ومع أن الإسلام لم يصبغ العرب — كل العرب — بصبغة واحدة — فى هذه الفترة — إلا أننا نستطيع أن نؤكد أن خير من تأثر به ، وأخلص لمبادئه وتعاليمه ، واستجاب لآدابه ومثله ، هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، ومن رزقهم الله نعمة السبق إلى الإسلام فى مكة قبل الهجرة ،

---

(١) فجر الإسلام ١/٩٤

وخير مثال نضربه لتأثير الإسلام فى نفوس هؤلاء الأوائل ، قول جعفر بن أبى طالب بين يدى النجاشى ملك الحبشة ، حين هاجر إليها مع من هاجر من المسلمين : « أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ... فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه على ماجاء به من الله ، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان .. » (١) .

هؤلاء النفر هم الذين وصل الدين إلى أعماق نفوسهم ، وأخلصوا له ، وأنفذوا أوامره ... وامتلأت قلوبهم بالإيمان ، وتمثلوا أمام عيونهم الحياة الآخرة وما فيها ، فراقبوا الله فى كل تصرفاتهم ، ما جل منها وما هان ، رجاء ثواب الله ، وخشية عقابه .

أما أكثرية بدو العرب ، فقد كان سكان المدن والقرى ، بل من دخل فى الإسلام بعد ، من الأمم الأخرى ، أكثر تدينا ، وأعرف بأحكام الإسلام منهم ، على الرغم من أن الرسول ﷺ وخلفاءه أقاموا بينهم من يعلمهم كتاب الله وسنة نبيه ، وما شرع الإسلام من حلال وحرام ، وحقوق وواجبات ؛ ذلك لما عرف به البدو من الجفاء والقسوة ، وغلظ

---

(١) السيرة لابن هشام ق ٣٣٦/١

القلوب والمشاعر ، فكانوا أشد جحوداً لتوحيد الله ، وأشد نفاقاً من أهل الحضر ، وقد نعتهم القرآن الكريم بذلك فقال : ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ (١) .

وإذن ؛ فقد ظل كثير من بدو العرب فى صدر الإسلام ، ولما يدخل الإيمان فى قلوبهم ، يعكفون على الشراب ، ويتبعون تقاليد قبائلهم الجاهلية ، يعقدون ألويتهم ، ويحاربون القبائل المعادية لهم فى الإسلام ، كما كانوا يفعلون قبله (٢) ، كما ظلوا على ما كانوا عليه من التفاخر بالأنساب ، والمهاجاة ، والحمية ... وغير ذلك من النزعات الجاهلية .

بيد أنه كان هناك إلى جانب هؤلاء الأعراب الذين اشتد جفاؤهم ، وتحجرت مداركهم ، فلم يتأثروا بالإسلام ، جماعات من البدو ، استجابت قلوبهم للإسلام ، أنار الله بصيرتهم بهديه ، وألان قلوبهم للحق ، فنبذوا العصبية القبلية ، والعادات الجاهلية ، وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ﴾ (٣) .

وهناك أخبار كثيرة مبثوثة فى كتب التاريخ والأدب ، تشهد بما بلغه الإسلام من التأثير فى بعض البدو فى عصر صدر الإسلام .

من ذلك أن الخنساء الشاعرة (٤) (تماضر بنت عمرو بن الشريد

---

(١) سورة التوبة : ٩٧

(٢) فجر الإسلام : ٩٩/١

(٣) سورة التوبة : ٩٩

(٤) ترجمتها وخبرها فى : الأغانى (ساسى) ١٢٩/١٣ وما بعدها .

السلمى) قضت حياتها فى الجاهلية باكية أخاها صخراً فلما أسلمت وجاءها خبر مقتل بنيها الأربعة ، فى موقعة القادسية ، فى خلافة عمر ، سجدت لله شكراً ، لأنه شرفها بقتلهم [١] .

وخبر لبيد بن ربيعة الشاعر ، وما قيل من انصرافه عن قول الشعر فى الإسلام ، واستعاضته عنه بقراءة القرآن مروى ومشهور ، قيل [٢] : كتب عمر إلى المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة ، أن استنشد من قبلك من شعراء مصرك ما قالوا فى الإسلام ، فأرسل إلى الأغلب العجلى الراجز ، فقال له : أنشدنى ، فقال :

أَرَجَزاً تُرِيدُ أم قَصيدا لقد طلبتَ هَيِّناً موجوداً

ثم أرسل إلى لبيد ، وقال : أنشدنى ، فقال : إن شئت ما عفى عنه (يعنى الجاهلية) فقال ، لا ، أنشدنى ما قلت فى الإسلام ، فانطلق فكتب سورة البقرة فى صحيفة [٣] : ثم أتى بها ، وقال : أبدلنى الله هذه فى الإسلام مكان الشعر ، فكتب المغيرة بذلك إلى عمر ، فأمره عمر أن يزيد فى عطاء لبيد .

ولعل مما يساق للتدليل على أثر الإسلام فى قلوب بعض البدو ، ما جاء فى خبر القادسية ، من أن (يزدجرد) ملك الفرس تكلم أمام وفد من المسلمين ، فوصف حالة العرب فى الجاهلية ، وما كانوا عليه من شقاء وتنافر وضعف ، فكان ممن رد عليه « المغيرة بن زرارة بن النباش الأسيدى »

---

(١) المرجع السابق ، وانظر تاريخ الأدب العربى فى صدر الإسلام : السباعى بيومى ١١

(٢) الأغانى ١٤/٩٤ وانظر : الشعر والشعراء (ابن قتيبة) ٤٩ (طبعة ليدن ١٩٠٢ م) .

(٣) لعل الراوى أراد جزءاً من سورة البقرة ؛ إذ السورة طويلة ، بل هى أطول سورة فى القرآن . وانظر : شعر المخضرمين ، يحيى الجبورى ٢٣٣ هامش رقم ١ (منشورات دار النهضة — بغداد ١٩٦٤ م) .

وجاء فى رده قوله : « أما ما ذكرت من سوء الحال ، فما كان أسوأ حالا منا ، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات ، فنرى ذلك طعامنا ، وأما المنازل ، فإنما هى ظهر الأرض ، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل ، وأشعار الغنم ، ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً ، ويغير بعضنا على بعض ، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهى حية ، كراهية أن تأكل من طعامنا ، فكانت حالنا قبل اليوم على ماذكرت لك ، فبعث الله إلينا رجلا معروفاً ، نعرف نسبه ، ونعرف وجهه ... كان خيرنا فى الحال التى كنا فيها ، أصدقنا وأحلمنا ... فلم يقل شيئاً إلا كان ، فقذف الله فى قلوبنا التصديق له واتباعه ، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين ، فما قال لنا فهو قول الله ، وما أمرنا به فهو أمر الله (١) » .

فهذا القول يعبر – لاشك – عن مدى الانفعال بالإسلام عند أمثال هذا البدوى ، الذين خرجوا من الصحراء ؛ ليسهموا فى إعلاء كلمة الله .

وجملة القول : أن الإسلام لم يقض – تماماً – فى هذه الفترة على النزعات الجاهلية ، وإن استطاع أن يخيفها ، ويشدد النكير عليها ، ويهددها بماله من سلطة ، كانت تتمثل فى حكومة مركزية محترمة ، عزيزة الجانب ، مرهوبة ، نافذة الحكم ، وبخاصة فى عهد عمر بن الخطاب ، الذى عرف بشدته فى الضرب على أيدى المنحرفين عن سنن التعاليم الإسلامية .

وأخيراً ، فقد أشار المغيرة بن زرارة ، فى كلامه السابق إلى الحياة المعيشية للغالبية العظمى بين العرب فى الجاهلية ، وألمح إلى مبلغ ما كانت عليه من سوء وقسوة ، فهل تحسنت حالة العرب الاقتصادية بدخولهم فى الإسلام ؟

---

(١) تاريخ الطبرى ٩٤/٤ – ٩٥ (المطبعة الحسينية – القاهرة بلا تاريخ) .

يختلف أثر الإسلام فى الحياة المعيشية للبدو من العرب خاصة ، بين فريقين منهم :

- فريق لزم دياره ، ولم يخترق الصحراء إلى الأمصار الإسلامية التى غزاها الإسلام فى عهد الراشدين ، وهؤلاء ظلوا يتنقلون على صدر الصحراء ، معتمدين فى معاشهم على الرعى ، كما كانوا قبل الإسلام ، فلم تتحسن أحوال عيشتهم ، إن لم تكن قد ساءت قليلا ، فقد سد الإسلام فى وجوههم مورداً كان من موارد رزقهم فى الجاهلية ، وهو السلب والنهب ، عن طريق إغارة بعضهم على بعض ، أو على الأقل ، أصبح هذا المورد محصوراً فى أضيق نطاق ؛ خوفاً من سلطان الإسلام ، وغضب ولاة الأمر فيه ، هذا ، بالإضافة إلى ما كلفوا به من دفع الزكاة على أموالهم وأنفسهم .

وفريق آخر آثر الهجرة من موطنه فى البادية ، واتخذ من الأمصار دار إقامة هرباً من قسوة حياة البادية ، وأملا فى حياة مستقرة ، وعيش رغد ، ومن هؤلاء – على سبيل المثال – بطون من خزاعة ، رحلت إلى مصر والشام فى صدر الإسلام (١) .

ولاشك أن هذا الفريق من البدو ، قد تحسنت حالهم ، بما آل إليهم من الفيء والغنائم ، فقد كانت الأموال تتدفق من البلاد المفتوحة ، والفروض تفرض للغزاة ولغيرهم من أهل السابقة ، ونظرة واحدة فيما أورده الطبرى (٢) وغيره ، من نظام الفروض فى عهد عمر ، تدلنا على مدى ما كان عليه جند المسلمين ، وسكان الأمصار من حال ميسرة كافلة ، ولم لا ؟ وقد آلت إليهم كنوز الأكاسرة ، وأقبلت حمول الذهب والفضة والجواهر النفيسة ، والثياب الفاخرة ، من البلاد المفتوحة على الخليفة بالمدينة ، فأخذ يفرقها فى المسلمين توسعة عليهم .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : جورجى زيدان ١/٢١٥ .
(٢) تاريخ الطبرى ٤/١٦٢ .

ولقد بلغ من وفرة هذه الأموال أن قال عمر بن الخطاب فى فترة خلافته : « لقد هممت أن أجعل العطاء أربعة آلاف ، أربعة آلاف ، ألفاً يجعلها الرجل فى أهله ، وألفاً يزودها معه ، وألفاً يتجهز بها ، وألفاً يترفق بها » (١) .

أما سكان المدن والقرى العربية ، فلا شك أنهم أصابوا من يسر العيش ، ما أصابه البدو النازحون إلى الأمصار الإسلامية ، بما أفاء الله عليهم من أموال هذه الأمصار ، على ما تقدم .

ونحسب أن العرب الذين شقوا صدر الصحراء إلى البلاد المفتوحة ، قد تأثروا نفسياً وحضارياً بما شاهدوه فيها من طبيعة جديدة عليهم ، فيها الأنهار والخصب ، والحضارة العريقة ، وفرق بين نفسية عربى لم ير إلا الصحراء وخياله ، ونفسيته وخياله بعد أن رأى ما لم يسبق له رؤيته أثناء الفتوح فى ممالك الفرس ، ومستعمرات الروم ، فضلا عما استشعره العرب من ثقة واعتداد بأنفسهم ، واعتزاز بدينهم ، وهم يرون هذه الممالك العريقة فى الحضارة تتهاوى تحت ضربات سيوفهم ، بعد أن كانوا يسمعون بالرومى أو الفارسى ، فيعظمون قدره ويتمثلون بسطوة قيصر وكسرى » (٢) .

وكان جديراً بهم - وبخاصة الشعراء منهم - أن ينسوا الصحراء وإبلها ، ووهادها ، ونجادها ، والبوادى وربوعها ، ونبتها ووحشها ؛ إذ « لم تعد حياتهم حبساً على المطر ، ولا هدايتهم وقفاً على السماء الصافية ، ذات النجوم اللامعة ، ولا طلب عيشهم رهنا بالرحلة يشدون أكوارها ، ويعتلون أقتابها .. » (٣) .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية : جورجى زيدان ٢١٥/١

(٣) تاريخ الأدب العربى فى صدر الإسلام : السباعى بيومى ٦

ولكن يبدو أنهم ظلوا محتفظين بصفات بداوتهم ، ولم تستطع الحياة الجديدة أن تنتزع نفسيتهم وخيالهم من الصحراء التى نشأوا فيها ، ومن ثم لم نلمح كبير أثر لهذه الحياة فى شعر الشعراء منهم ، حتى فن الوصف ، الذى يتأثر فيه الشاعر عادة بمشاهداته ، فقد ظل أكثر وصفهم مرتبطاً بمشاهد الصحراء ، لا يعدوها ، وكأنما تحجرت عيونهم ، وفارقهم خيال الشعراء على إثر خروجهم من البادية .

هذه نظرة عامة ، حاولنا من خلالها أن نلم بمدى ما أحدثه الإسلام من أثر فى حياة العرب العقلية ، والاجتماعية ، والسياسية ، وإذ كان الأدب فى أى مجتمع إنما هو صدى لما يدور فيه من أحداث ، وترجمان ما يعتمل فى صدور جماعاته وأفراده من أفكار وأحاسيس ، ومرآة تعكس ما يصيب قيمه ، ومثله وأوضاعه ، من تحول وتطور ، فقد كان حتماً أن نتبع ما تقدم بالحديث عن الحياة الأدبية فى صدر الإسلام ؛ لنرى إلى أى مدى استجاب الأدب – شعراً ونثراً – لهذه الحياة الجديدة ، التى أظلت العرب براية الإسلام .

ولكننا نرى أنه لكى تكون أمامنا صورة متكاملة للمؤثرات الجديدة التى استحدثها الإسلام ، وكان لها المقام الأول فيما حظيت به الحياة العربية ، من تبدل وتطور ، يجدر بنا أن نخص القرآن الكريم – كتاب الإسلام ودستوره ومعجزته الكبرى – بحديث موجز ، لما له من أثر هام فعال فى حياة الأدب العربى عبر العصور الإسلامية ، وحتى أيامنا هذه ، بل وسيظل هذا الأثر متجدداً فى اللسان العربى وآدابه إلى ماشاء الله .

* * *

القرآن الكريـــم
معجزة البيان الكبرى

ألمحنا فيما سبق إلى جوانب من تأثر العرب بالإسلام ، فى حياتهم الروحية والعقلية والحسية ، بيد أن تأثرهم به لم يقف عند هذا الحد ، فقد أمدهم بالقرآن الكريم ، الذى كان له أعظم الأثر فى كل جوانب حياتهم ، ومنها الناحية الأدبية ، وهى التى نهتم بها فى هذه الدراسة .

وإذ شاء الله – سبحانه وتعالى – أن تكون معجزة نبيه إلى العرب ، من جنس ما لهم فيه نبوغ واقتدار ، وهو الفصاحة والبلاغة ؛ فقد جاء القرآن على أسلوب بلغ فى نظمه ، وإحكامه ، وتفوقه ، مرتبة لا يسامى فيها ، ولا يدرك عندها ، وهى مرتبة الإعجاز ، فكان أروع مثال لفن القول عند العرب ؛ لما اجتمع فيه من ضروب الأساليب وخصائصها (١) ، على نحو جعل العرب يقفون أمام روعة نظمه موقف الإعجاب ، والذهول ، والحيرة .

نعم ، لقد أثار القرآن منذ اللحظات الأولى لنزوله دهشة العرب ؛ لما جاء به من جديد فى أساليب التعبير ، وطرائق النظم والبيان ، جعله يعلق بأفئدتهم وأسماعهم ، ولا يملكون معه إلا التسليم بروعة أثره فى النفوس ، وفى العقول .

وإذ أدرك كبار المعاندين منهم قوة هذا الأثر فى أعماقهم ، وخافوا منه على أنفسهم وعلى أتباعهم ، صاحوا قائلين : ﴿ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (٢) ألا يدل هذا القول على هول الذعر الذى كان يضطرب فى نفوسهم ، من تأثير القرآن فيهم وفى أتباعهم ؟

---

(١) انظر : أثر القرآن فى تطور النقد (محمد زغلول سلام) ٢٦١ (دار المعارف بمصر ١٩٦١ م) .

(٢) سورة فصلت : ٢٦

والتاريخ يحدثنا أن عقلاء قريش ، وذوى الإنصاف منهم ، كانوا يستمعون للرسول يتلو عليهم القرآن « فيبهرهم بألفاظه ومعانيه ونظمه ، ورقته حين يرق ، وشدته حين يشتد ، ولكنهم على ذلك لا يؤمنون له (أو بعضهم على الأقل) بعضهم يمنعه الحسد ، وبعضهم تمنعه الكبرياء ، وكلهم يشتد عليهم ما كانوا يُدْعَوْن إليه ، من البر والمعروف ، والعدل والمساواة ، وإنصاف الفقراء من الأغنياء ، ومن ترك آلهتهم وعاداتهم ، وكثير من الأخلاق التى وجدوا عليها آباءهم وتوارثتها أجيالهم جيلا بعد جيل » [١] .

ومع ذلك فقد استوى فى الانبهار بالقرآن ، والإحساس بسحره فى النفوس ، من آمن به من العرب عند سماعه ، ومن لج منهم فى عناده ، وظل سادراً فى كفره ، أولئك يُسْحَرون به فيؤمنون ، وهؤلاء يسحرون به فيهربون ، وقد تحيروا فى تعليل تأثيره فيهم ، « فمن قائل : إنه سحر ، ومن قائل : إنه شعر ، ومن قائل : إنه أساطير الأولين ، أو سجع الكهان » [٢] ، ومنهم من عبر عن إعجابه وحيرته بقوله حين سمع القرآن : « سمعت قولا ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة » [٣] .

ولتصوير موقف هؤلاء وأولئك (الكافرين والمؤمنين) من القرآن عند سماعه ، نضرب مثلين لرجلين ، كل منهما يمثل الشخصية القوية فى اتجاهه المختلف عن الآخر ، وموقفه المتعارض معه ، بالنسبة للقرآن الكريم ، فى مرحلة مبكرة من نزوله : هما : عمر بن الخطاب ، والوليد بن المغيرة .

أما عمر ، فتسوقه قدماه ذات ليلة إلى المسجد ، فيرى رسول الله

---

(١) مرآة الإسلام ٤٣

(٢) المصدر السابق ٣٧

(٣) السيرة لابن هشام ق ٢٩٤/١ ، والقائل هو عتبة بن ربيعة القرشى .

ﷺ ، قائماً يصلى بجوار الكعبة ، فيقول لنفسه : « والله لو أنى استمعت لمحمد الليلة ، حتى أسمع ما يقول !! » ثم يدنو من الرسول مستخفياً حتى لا يروعه ، ويسمع ما تلاه فى صلاته من القرآن .

وهنا نترك عمر يخبر بنفسه عن تأثير ما سمع فى قلبه ووجدانه وعقله ، يقول عمر : « فلما سمعت القرآن رق له قلبى ، فبكيت ، ودخلنى الإسلام [١] » .

وأما الوليد بن المغيرة ، فها هو ذا – على كفره وعناده – يصف أثر القرآن فى نفسه ، بعد أن تلا عليه الرسول بضع آيات منه ، فى قصة نوجزها عن ابن هشام [٢] :

اجتمع إلى الوليد بن المغيرة نفر من قريش – وكان ذا سن ومكانة فيهم – يسألونه أن يقول فى القرآن قولا ، يذيعونه بين العرب فى موسم الحج ؛ ليصدوهم عن دين محمد ، وعن الأستماع إلى ماجاء به ، فيأبى إلا أن يسمع منهم أولا : « قالوا : نقول : كاهن ، قال : والله ماهو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه ، قالوا : فنقول : مجنون ، قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ، ولا تخالجه ، ولا وسوسته ، قالوا : فنقول : شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله ، فما هو بالشعر ، قالوا : فنقول : ساحر ، قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ، ولا عقدهم ، قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف

---

(١) السيرة لابن هشام ق ١/٣٤٧ ، وانظر رواية أخرى فى إسلام عمر ، وتعبيره عن تأثره بالقرآن عند سماعه ، فى المرجع نفسه ق ١/٣٤٣ – ٣٤٦

(٢) المرجع السابق ق ١/٢٧٠

أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه ، لأن تقولوا : ساحر ، جاء بقول هو سحر ، يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك » .

فى هذين الموقفين – على ما بينهما من تعارض فى النتيجة – « تلتقى قصة الكفر بقصة الإيمان ، فى نتيجة وجدانية واحدة ، هى الإقرار بسحر هذا القرآن !! وتلتقى على الإقرار به شخصيتان قويتان ، بينهما من المدى فى الاختلاف ما بين عمر بن الخطاب والوليد بن المغيرة ، فتشرح التقوى صدر عمر للإسلام ، وتصد الكبرياء الوليد عن الإذعان ، ويذهبان فى طريقهما متدابرين ، بعد أن يلتقيا فى نقطة واحدة ، نقطة الإقرار بسحر القرآن [1] » .

هذا السحر البيانى ، يلتقى به ، ويتعانق معه سحر آخر ، سحر الحق ، وبهما معاً ، وبتأثيرهما معاً ، تخشع قلوب ، وتقشعر أبدان ، وتفيض عيون ، وإنها لقلوب وأبدان وعيون لقوم أوتوا العلم ، من قبل أن ينزل القرآن ، وعرفوا من أخبار السماء ما عرفوا ، مما يمكن أن يرمى مشركو العرب بجهله ، وأعنى بهم اليهود والنصارى ، أهل الكتاب .

ويمدنا القرآن بالعديد من المواقف ، التى تعبر عن تأثر قوم من هؤلاء بسحر البيان والحق فى القرآن عند سماعه :

من ذلك قوله تعالى : [2] ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن (سيد قطب) ١١ (طبعة بيروت بلا تاريخ) .

(٢) سورة المائدة : ٨٢ – ٨٣

سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ .

هذه صورة من صور التأثير الوجدانى لسماع القرآن ، [1] تبدو فى أعين هؤلاء الذين تفيض أعينهم من الدمع مما عرفوا من الحق ، وإن للطريقة التى يعرض بها هذا الحق لأثرا - لا شك فيه - يفصح عنه ما ورد فى موضع آخر : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ، وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾ [2] .

وكذلك هذه الصورة للذين يخشون ربهم : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ ، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ ﴾ [3] ، هكذا « تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم » و « يخرون للأذقان سجدا » و « يخرون للأذقان يبكون » و « ترى أعينهم تفيض من الدمع » ...

إنه التأثير الذى يلمس الوجدان ، ويرسل الدموع ، ويحرك الأحاسيس والمشاعر ، يسمعه الذين هيأ الله قلوبهم للإيمان ، فيسارعون إليه كالمسحورين ، ويسمعه الذين يستكبرون عن الإذعان ، فيقولون : « إن هذا إلا سحر مبين » ، والجميع يقرون بالإعجاز الغلاب ، من حيث يشعرون ، أو لا يشعرون .

كل هذا مع أن القرآن نزل بلغة العرب ، تلك اللغة التى كانوا

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن ١٣

(٢) سورة الإسراء : ١٠٧ - ١٠٩

(٣) سورة الزمر : ٢٣

يصولون بها ويجولون ، فى ميادين البلاغة والبيان ، كما أنه لم يخرج عن سنن هذه اللغة ، وقواعد نظمها ، ومع هذا التشابه الظاهرى بين لغة القرآن ، ولغة العرب ، بقيت للقرآن ميزة ، جعلته المثل الأعلى للبلاغة العربية ، وتلك الميزة هى سر إعجازه .

حول إعجاز القرآن :

الحديث عن إعجاز القرآن يكثر ويطول ، وتختلف وجوهه ، كما تختلف فنون القول فيه ، فالقرآن كلام لم تسمع العرب بمثله ، من قبل أن يتلوه الرسول عليهم .

وإذ كان مجال هذه الدراسة لا يتجاوز – فى مادته وأهدافه – قضايا التعبير الأدبى وحدها ، فليس من همها – إذن – أن تتعرض لصور الإعجاز القرآنى من النواحى الدينية ، وإن كان الجمال الفنى فى القرآن يتساوق مع أغراض الدعوة الدينية فيه ، فيرتفع بها فى التقدير والتأثير .

وقد يكون من متعلقات الكلام على وجوه الإعجاز الأدبى فى القرآن ، أن نمهد له بالحديث عن قضية الإعجاز القرآنى بعامة ، من حيث ثبوت هذا الإعجاز للقرآن ، بتحدى العرب به ، وعجزهم عن محاكاته ، أو الإتيان بشىء من مثله ، ومن حيث تعلق الإعجاز بالقرآن نفسه ، لا بشىء خارج عنه ، ومن حيث الوجوه التى يتعلق بها هذا الإعجاز ، ومن حيث شمول إعجازه كل ما فيه ، وعدم قصره على ناحية من نواحيه دون غيرها .

ليس من شك فى أن القرآن معجز ، فقد ثبت إعجازه حين تحدى المعاندين من العرب الذين قالوا : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَا ﴾ (١) حيث

---

(١) سورة الأنفال : ٣١

توهموا أن هذا القول يستر عجزهم وحنقهم ، ويصرف عن القرآن قلوب الناس وعقولهم ، ويهون من شأنه وخطره ، مع أن هذه المقالة مردودة عليهم بهذا التساؤل : ولم لم يشاءوا القول ؟ وهذا هو القرآن يدعوهم صباح مساء إلى أن يعارضوه بمثله [١] ، أو بسورة من مثله [٢] ، أو بآيات يسيرة أو سور قليلة تشبه آياته وسوره [٣] ، وكلما ازداد تحدياً لهم ، وتقريعاً لعجزهم تكشف من نقصهم ما حاولوا أن يستروه ، بل إن ما حكاه القرآن عنهم من قولهم : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَا ﴾ ليحمل دليل عجزهم ، فلو كانوا على ما وصفوا أنفسهم به من القدرة على محاكاته ، لتجاوزوا مرحلة الادعاء إلى مرحلة الوفاء بما ادعوا ، فلما لم يفعلوا ، علم عجزهم ، وقصور باعهم ، مع أنهم كانوا يعيشون – إذ ذاك – نهضة لغوية شاملة ، وفيهم نوابغ الشعراء ، ومصاقع الخطباء ولهم – كما يقول الجاحظ – القصيد العجيب ، والرجز الفاخر ، والخطب الطوال البليغة ، والقصار الموجزة ، ولهم الأسجاع ، والمزدوج ، واللفظ المنثور .

نعم ، لقد بلغ العرب فى ذلك الحين مبلغهم من تهذيب اللغة ، ومن كمال الفطرة ، ومن دقة الحس البيانى ، حتى أوشكوا أن يصيروا فى هذا المعنى قبيلا واحداً ، باجتماعهم على بلاغة الكلمة ، وفصاحة المنطق [٤] ، يتنافسون فى ذلك كله ، ويتفاخرون به بينهم .

ولما لم يجدوا حيلة ولا حجة ، اتهموا النبى بأنه يعرف من أخبار الأمم

---

(١) انظر : سورة الإسراء : ٨٨

(٢) انظر سورة يونس : ٣٨ والبقرة : ٢٣

(٣) انظر سورة الطور : ٣٤

(٤) تاريخ آداب العرب : الرافعى ١٦٨/٢ (الطبعة الأولى – مطبعة الاستقامة – القاهرة ١٩٤٠ م) .

السابقة ما لا يعرفونه ، ومن ثم فهو يمكنه ما لا يمكنهم ، أى أنه يؤلف الكتاب ثم ينسبه إلى الله افتراء عليه ، فتحداهم القرآن أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، قال تعالى (١) : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاه قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ، وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ... ﴾ ، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة مثله مفتراة ، فقال : (٢) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِثْلِه ﴾ أى مفتراة ، طالبهم القرآن بعشر سور أو بسورة واحدة ، لا يلتزمون فيها الحكمة ، ولا الحقيقة ، وليس إلا النظم والأسلوب ، وهم أهل اللغة ، ولن تضيق أساطيرهم وعلومهم أن تسعها عشر سور ، بل سورة واحدة ، وهذا التأويل الذى ذكرنا على تقدير أنه سمح لهم أن يأتوا فى هذه السور بقصص مختلق ، وأن التحدى منصب على الجانب التعبيرى ، لا على المضامين ، وهذا الفهم للآيات السابقة أراه غير دقيق ؛ إذ كيف تكون السور أو السورة « مثله » وهى موصومة بالافتراء ؟ ولعل الصواب أن نقول : إن القرآن يجاريهم فى دعواهم أن محمداً افترى الكذب على الله ، فنسب إليه كلاما لم ينزل به الوحى عليه ، فقال فى الرد عليهم : هاتوا كلاما كاذبا كهذا الذى أتيت به .

فالقرآن – على هذا – لا يتحداهم فى مجال التعبير فحسب ، وإنما فى المعانى والأفكار القرآنية أيضاً .

ومهما يكن من أمر ، فقد تحداهم القرآن أن يفعلوا ، فلم يقصد إلى ذلك منهم خطيب ، ولا طمع فيه شاعر ، ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلفه لظهر ذلك ، ووجد من يستجيده ، ويحامى عليه ، ويكابر فيه ، ويزعم أنه

---

(١) سورة هود : ١٣ – ١٤

(٢) سورة يونس : ٣٨

ناقض وعارض ، فدل ذلك على عجز العرب عن معارضته ، مع كثرة كلامهم ، واستجابة لغتهم ، وسهولة ذلك عليهم ، وكثرة شعرائهم ، وكثرة من هجا الرسول منهم ، وعارض شعراءه وأصحابه ، وخطباء أمته ؛ لأن سورة واحدة ، أو آيات يسيرة ، كانت أفسد لأمره ، وأبلغ فى تكذيبه ، وأسرع فى تفريق اتباعه عنه ، من بذل النفوس ، والخروج من الأوطان ، وإنفاق الأموال فى قتاله ، وتأليب القبائل عليه ، وعلى دعوته وأصحابه ، ولكنهم وقد انقطعت بهم كل السبل إلى النيل من القرآن ، وإبطال تأثيره فى نفوسهم ، ووقف تيار تدفقه فى قلوبهم ، « لجأوا إلى السيف يحكم بينهم وبين محمد ، ولو أنهم استطاعوا إلى المعارضة سبيلا ، ماركبوا هذا المركب الخشن ، فعرضوا أنفسهم وأهليهم للقتل حينا ، وللأسر حيناً آخر ، فكان التجاؤهم إلى السيف الحجة القاطعة على عجزهم عن معارضة القرآن ومجاراته » (١) ، وبذا ثبت الإعجاز ، وتمت المعجزة ، وصدقت رسالة صاحبها .

وإذن ؛ فالقرآن معجز ، وإعجازه ليس منوطا بشىء خارج عنه ، من مثل ما ادعاه أبو إسحاق النظام – شيخ المعتزلة – وغيره ، من أن إعجاز القرآن كان بالصرفة ، أى أن الله تعالى صرف العرب عن معارضته ، مع قدرتهم عليها ، ومعنى هذا أنه لم يكن عجزهم عن المعارضة لأن القرآن معجز فى نفسه « لكن لأن أدخل عليهم العجز عنه ، وصرفت هممهم وخواطرهم عن تأليف كلام مثله ، وكان حالهم على الجملة حال من أعدم العلم بشىء قد كان يعلمه ، وحيل بينه وبين أمر قد كان يتسع له » (٢) .

---

(١) من بلاغة القرآن : الدكتور أحمد أحمد بدوى ص ٤٨ (الطبعة الثالثة – نهضة مصر ١٩٥٠ م) .

(٢) دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجانى ص ٢٩٩ (الطبعة الخامسة – دار المنار – مصر ١٣٧٢ هـ) .

ويكفى فى الرد على من ذهب إلى القول بالصرفة فى تفسير إعجاز القرآن ، أن نورد رد الإمام عبد القاهر الجرجانى عليهم ، ومؤداة ، أنه لو كان الأمر كما ذكروا لكان ينبغى للعرب ألا يتعاظمهم القرآن ، ولا يكون منهم ما يدل على إكبارهم أمره ، وتعجبهم منه ، وعلى أنه قد بهرهم ، وعظم كل العظم عندهم ، ولكان التعجب منهم لما دخل من العجز عليهم ، ولما رأوه من تغير حالهم ، ومن أن حيل بينهم وبين شىء قد كان عليهم سهلا ، وأن سد دونه باب كان لهم مفتوحا (١) ...

يضاف إلى ذلك أنه لو كانت الصرفة هى المعجزة ، لكان القرآن كلاما كغيره من الكلام ، لا يعجز عن الإتيان بمثله البلغاء بعد زمن التحدى ، ولكن شيئا من ذلك لم يكن « فقد أتى جهابذة الكلام بعده بما فى وسعهم أن يأتوا ، واهتدى العلماء إلى تبيين أسباب الجمال فى القول ، ولكن لم يستطع أحد أن يدنو من هذا المكان البعيد ، أو يقارب هذا الأفق المتسامى ، وكلما اهتدوا إلى سر من أسرار الفصاحة ، ازدادوا إيماناً بالضعف والعجز أمام كتاب الله » (٢) .

وهناك برهان آخر على بطلان هذا المذهب ، فقد نعلم أن نوابغ العرب فى الفصاحة قبل نزول القرآن لم يكونوا مصروفين عنه ؛ لأنهم لم يتحدوا به ، فلم لم نعثر فى أدبهم على ما يشبه القرآن ، أو يدانيه ، فصاحة وبلاغة وقوة تأثير ؟؟ .

من أجل هذا كله قال بعض العلماء المحدثين : « أما الرأى القائل بصرفهم (العرب) عن المحاولة ، فليس له وزن يقام (٣) » .

---

(١) المصدر السابق .
(٢) من بلاغة القرآن ص ٤٩
(٣) التصوير الفنى فى القرآن ١٢

كذلك لا يصلح أن يقال : إن سر إعجاز القرآن فيما اشتمل عليه من إخبار عن أمور ماضية ، أو أخرى مغيبة ؛ لأن ذلك لا يصلح دليلا على الإعجاز ، فما فى القرآن من سير الأولين ، وأخبار الأمم الماضية ، مما لا يقف عليه عالم بالسير ، ولا دارس للآثار ، لا يجعله أكثر من كتاب تاريخى ، مشتمل على أمور توقيفية ، ويكون شأنه فى هذا شأن غيره من الكتب المنزلة قبله ، والمتضمنة لبعض القصص التاريخى ، وهى لم تخلع على نفسها صفة الإعجاز .

كما أن اشتمال القرآن على أمور غيبية ، وإن دل على عجز العرب عن الإتيان بمثلها لعدم قدرتهم على التنبؤ ، فإنه لا يصلح مجالا للتحدى ؛ إذ ليس هذا العجز قاصراً على العرب وحدهم ، لخروج التنبؤ عن طوق البشر جميعاً ، فالإعجاز عن هذا الطريق ليس بشيء ؛ لأن الإعجاز الحقيقى إنما يتجلى فى مجال أتيحت إمكاناته للبشر ، ولكنهم قصروا فيه وعجزوا عنه ؛ لقصور هذه الإمكانات وعجزها ، ومن هنا تحدى القرآن العرب فى محاكاته ، والإتيان بشيء من مثله فعجزوا ، وقد كان مجال التحدى هو فصاحة القول ، وقوة البيان ، لا مجال الإخبار عن الغيوب (١) .

ثم إن معظم آيات القرآن تخلو من التنبؤ والقصص ، فلو صح كون القرآن معجزاً من هذا الوجه ، لكان أكثر القرآن فاقداً صفة الإعجاز ، وفى مقدور العرب أن يحاكوه ، مع أن الإعجاز ثابت لكل قدر منه ؛ لعجزهم عن معارضة السور القصيرة ، بل الآيات اليسيرة ، أو السورة الواحدة ، وقد سجل عليهم القرآن ذلك فى قوله :

---

(١) النثر الفنى وأثر الجاحظ فيه (عبد الحكيم بلبع) ٥٦ (الطبعة الأولى – القاهرة بلا تاريخ) .

﴿ وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

فالآية تتحداهم ، وتبالغ فى استفزازهم واهتياجهم ؛ لتثبت أن قدرتهم على المعارضة مستحيلة ، فتقول (ولن تفعلوا) أى أن هذه المعارضة منهم فوق القدرة ، وفوق الحيلة والاستعانة ، ثم تقرنهم إلى الحجارة ، وتسمهم بالكفر .

كما استفزهم القرآن فى آياته التى تعظم من شأنه ، وتفخم من أمره ، من مثل قوله تعالى : (٢) ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ وقوله : (٣) ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ وقوله (٤) : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾ وقوله (٥) : ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وغير ذلك كثير مما من شأنه أن يدفعهم إلى مباراته ، ويحفزهم إلى محاكاته ؛ ليبطلوا دعواه ، ويضعوا من شأنه ، وينزلوه عن تلك المنزلة التى يدعيها لنفسه ، كل ذلك استفزازاً لهم ، ولكن القرآن فى كل ذلك كان كمن ينفخ فى رماد هامد ، وصدق الله العظيم :

---

(١) سورة البقرة : ٢٣ – ٢٤

(٢) سورة الحجر : ٨٧

(٣) سورة الإسراء : ٩

(٤) سورة الحشر : ٢١

(٥) سورة البقرة : ٢

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ، لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (١) .

وليس القرآن معجزاً كذلك بما اشتمل عليه من تشبيهات ، ومجازات ، وكنايات ، وغيرها من صور البيان ؛ لأن هذا يقتضى نفى الإعجاز عن الآيات التى خلت من ذلك ، من مثل قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ (٢) ﴾ .

وذهب قوم إلى أن وجه الإعجاز فى القرآن إنما يرجع إلى خلوه من كل تناقض واضطراب (٣) .

وهذا الرأى مرفوض أيضا ؛ لأن فى أدب العرب كثيراً من القصائد والخطب التى تخلو من التناقض والاضطراب ، فلو كان الأمر كما ذكروا ، لما كان هناك وجه لاتصاف القرآن بالإعجاز ، ففى كلام العرب ما يماثله فى هذه الناحية .

نخلص من هذا إلى أن القرآن معجز ، وأن إعجازه يكمن فى صميم نسقه ، فى طريقته الفذة فى نظم الجمل ، وتركيب الألفاظ ، والملاءمة الدقيقة بينها وبين المعانى ، ومراعاة الظروف ، ومواقف الكلام ، ومقتضيات الأحوال ، بصورة تدعو إلى الإعجاب والدهشة (٤) .

---

(١) سورة الإسراء : ٨٨

(٢) هى سورة الكافرون ، ورقمها فى المصحف : ١٠٩

(٣) الطراز : يحيى بن حمزة العلوى ٣/٣٩٧ (مصر ١٩١٤ م) .

(٤) النثر الفنى (بلبع) ٥٦

كل ذلك مع طوله ، وكثرة ما يتصرف فيه من وجوه ، ولا يعرف للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة ، والغرابة والتصرف البديع ، والحكم الكثيرة ، والتناسب فى البلاغة ، والتشابه فى البراعة ، على هذا القدر من الطول ، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة ، وإلى شاعرهم قصائد محدودة ، لا تبلغ مبلغ القرآن فى الطول والتصرف (١) .

ويتضح هذا فى قول أبى بكر الباقلانى : « فالقرآن أعلى منازل البيان ، وأعلى مراتبه ما جمع من وجوه الحسن وأسبابه ، وطرقه وأبوابه ، من تعديل النظم وسلامته ، وحسنه وبهجته ، وحسن موقعه فى السمع ، وسهولته على اللسان ، ووقوعه فى النفس موقع القبول ، وتصوره تصور المشاهدة ، وتشكله على جهته ، حتى يحل محل البرهان ودلالة التأليف ، مما لا ينحصر حسناً وبهجة وسناء ورفعة (٢) » .

هذا الوجه للإعجاز ثابت لجميع القرآن ، وفى كل قدر منه وضع موضع التحدى ، من الآيات اليسيرة ، والسور الصغيرة ، وهو إعجاز الأسلوب ، الذى جاء فى ألفاظه بديع النظم ، عجيب التأليف ، وفى معناه ، متناهياً فى الإبانة والإعراب ، فجمع بذلك بين طرفى الفصاحة والبلاغة ، جمعاً أنتج البيان الرائع ، الذى أتى فى كل غرض قصد إليه بما ليس فى مقدور إنسان .

من أجل هذا استحال على الرسول ، كما استحال على غيره ، أن يكون القرآن من كلامه ، لأنهم جميعاً بشر ، وما كان لبشر إن يأتى بمثل هذا المستوى الرفيع ، من الكلام الذى يخرج عن طوق البشر .

---

(١) للاستزادة انظر : من بلاغة القرآن ص ٥٢

(٢) إعجاز القرآن ٢٠٨ (طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٤ م) .

حول أسلوب القرآن :

أسلوب القرآن وجه من وجوه إعجازه ، لم يستطع العرب أن يحاكوه أيام النبى ولا بعده ؛ ذلك أن للقرآن نظاماً خاصاً فى أداء المعانى التى أراد الله أن تؤدى إلى الناس ، لم يؤد هذه المعانى شعراً ، يجرى على الأخيلة والأوزان والقوافى ، التى جرت عليها أشعار العرب ، ولم يؤدها نثراً كالنثر المألوف للعرب (لا أنه ليس من جنس النثر) ؛ لأنه لا يُطْلَق إطلاق نثرهم ، ولا يقيد بهذه القيود التى عرفها بلغاؤهم وفصحاؤهم .

يقول ابن رشيق [1] : « فكما أن القرآن أعجز الشعراء وليس بشعر ، كذلك أعجز الخطباء ، وليس بخطبة والمترسلين وليس بترسل » ، ولعله يعنى ما ذكرنا .

فللقرآن أسلوب بديع ، يخالف أسلوب العرب الذى ألفته فى كلامها ، من تقطيع ، وتسجيع ، وترسل ، لم يكن كشعرهم أو سجعهم الملتزم ، ولا كنثرهم المرسل ، وإنما هو آيات وفواصل ، لها مزاجها الخاص ، ومنهجها المتفرد ، فى الاتصال والانفصال ، وفى الطول والقصر ، وفيما يظهر من الائتلاف والاختلاف .

يخشع القلب لفواصله ، ويدرك الذوق السليم انتهاء القول عندها ، تارة تجىء سجعاً ، وتاره موازنة وازدواجاً ، وأحياناً لاهى بهذا ولا ذاك ، ومن هنا اعترى العرب عند سماع القرآن ذهول ودهشة .

والمتأمل أسلوب القرآن يجده نسيجاً وحده فى النظم والتأليف ،

---

(١) العمدة ١/٥ (الطبعة الأولى - أمين هندية - القاهرة ١٩٢٥ م) .

والنسق البيانى ، متميزاً بطابع خاص من سائر الأساليب النثرية ، لا يدانيه أسلوب ، أو يرقى إلى سموه بيان .

ولسنا نطمع هنا فى الإلمام بكل مميزات الأسلوب القرآنى ، وخصائصه الفنية ، وما اشتمل عليه من ألوان الجمال الفني ، فالقرآن فى ذلك كله كنز البيان العربى « تتجدد جواهره ، وكثيراً ما يهدى جوهر إلى جوهر ، ويكشف نفيس عن نفيس » [١] ؛ ومن ثم فدراساته لا تنتهى ، وبيناته لا تنفد ، أو تدخل تحت حصر .

وإنما بحسبنا أن نوجز بعض المزايا الهامة لأسلوب القرآن ؛ لنقف — إلى حد ما — على ما فى هذه المعجزة الخالدة من سمو وإعجاز ، وما تفردت به من تفوق وامتياز ، فى مجالات البيان ، وميادين القول :

(أ) القصد إلى إثارة العقل والوجدان معاً :

مما يلفت النظر لفتاً شديداً فى الأسلوب القرآنى ، اعتماده على منهج يعمد قصداً إلى إثارة وجدان القارىء والسامع ، إثارة قوية ، وإلى تحريك مشاعره ؛ لتوجيه سلوكه الوجهة التى إليها قصد القرآن ، فتقبل النفس على ما به أمر ، وتدبر وتعرض عما نهى عنه وزجر .

وهذا المنهج شائع فى القرآن ، يكاد يكون من العمد الأساسية للأسلوب القرآنى ؛ لأن القرآن « لا يعتمد على التفكير وحده ليقنع ، ولكنه يتكىء عليه وعلى الوجدان ليستميل ، فهو فى وعده ووعيده ، وأوامره ونواهيه ، وقصصه ووصفه ، وابتهاله وتسبيحه ، بل وفى أحكامه وبراهينه

---

(١) القرآن والتفكير ص ٧

لا يغفل هذه الناحية من نواحى النفس الإنسانية ؛ لأن العمل - غالبا ، يرتبط بها ويقترن [١] » .

ولنضرب لذلك بعض الأمثلة من آى القرآن :

يقول الله تعالى [٢] ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا * ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ، وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ .

فالآيتان تقصدان قصداً إلى إثارة مشاعر البهجة والغبطة فى نفس القارئ والسامع ، فكل منهما حين يتصور أنه سيكون رفيقاً لأنبياء الله ، الذين هم صفوة الخلق ، وأفضل البشر ، وللصديقين والشهداء والصالحين من عباده ، إن هو أطاع الله ورسوله ، ينشرح صدره للطاعة ، وتهش نفسه للإستجابة ، ومن ثم يندفع للإنقياد طائعاً ، مختاراً ، راضياً ، حريصاً على تجنب كل ما من شأنه نقض هذه الطاعة ، أو مجافاتها ؛ ذلك أن النفس الإنسانية تتطلع دوماً ، حتى فى حياتها الدنيويه الفانية ، إلى الامتياز ، بالسعى إلى رفعة الشأن ، وعلو المكانة ، والانتماء إلى كل طبقة تتصف بهذا الامتياز ، وخالقها أعلم بها ، وأخبر بما تهوى ؛ ولذا فهو يثير فيها هذه الفطرة ؛ لترنو إلى مقام سام ، ومنزلة عالية فى الدار الآخرة التى هى أخلد وأبقى .

ولننظر فى قوله تعالى : [٣] ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا

---

(١) من بلاغة القرآن ص ٣٧

(٢) سورة النساء : ٦٩ - ٧٠

(٣) سورة ق : ٦ - ١١

رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَآءً مُّبَارَكًا ، فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ * وَٱلنَّخْلَ باسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ .

فماذا تحرك هذه الآيات فى العقول والقلوب ؟ إنها تثير فيها إدراكاً قوياً ، وشعوراً غامراً بالإجلال لقدرة الله الخالق ، والانبهار بعظمة المبدع ، الذى بنى السماء فأحكم بناءها ، وزينها بالنجوم والكواكب ليلاً ، وبالضياء الباهر نهاراً ، وبسط الأرض ، ورعاها ، وأمدها بمقومات الحياة لكل ذى روح ، فحفظ توازنها بالجبال أرساها فى نواحيها ، واختار مواقع هذه الجبال بدقة الحكيم ، وخبرة العالم ، وأنبت فيها كل ما يسر العين ، ويشرح الصدر من بهيج النبت ، وجادها بماء ينزل من السماء ، تحيا به وتهتز ، فتخرج من بطونها جنات ، وترفع فوق أديمها نخيلا باسقات .

وليس من شك فى أن مشاعر الإجلال والإعجاب والانبهار تدفع النفس إلى الإيمان بقدرة الله المبدع ، وتقودها إلى التصديق والتسليم بقدرته تعالى على البعث والنشور ، وهذا ما قصد إليه هذا البيان القرآنى العظيم بقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ .

واقرأ فى القرآن كثيراً من آيات التذكير بالنعمة ، وفضل المنعم ، وإبداع الخلق ، وقصص العظة والاعتبار .. وغيرها ، ولسوف يروعك هذا المنهج الأسلوبى ، الذى يقرع العقول ، ويثير الوجدان .

وهذه الإثارة الوجدانية لا نعدمها حتى فى آيات الأحكام ، التى سيقت لإرساء القواعد ، وتشريع الضوابط للحياة الإنسانية ، فالقرآن كثيراً ما يحرص على أن تقترن الأحكام فيه بما يثير الوجدان ، حتى تقبل النفوس المؤمنة على العمل بها راضية مغتبطة .

نأخذ مثلا أشد الآيات القرآنية إيغالا فى بيان الأحكام ، نقرأ آية الدين :

يقول الله تعالى (١) : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا ، أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِٱلْعَدْلِ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِنْ لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْن فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُواْ وَلَا تَسْأَمُواْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِ ؛ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ ، وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُواْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ، وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ ، وَلَا شَهِيدٌ ، وَإِنْ تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللهُ واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

فالآية – كما نرى – خالصة للتشريع ؛ فهى تقرر نظرية الإسلام فى الدين ، من حيث وجوب تدوينه ، كبيراً كان أو صغيراً ، حفظاً للحقوق ، ومن حيث وجوب الإشهاد عليه ونظام هذا الإشهاد ، وبيان حق المدين ، وما يجب للكاتب والشاهد ، إلى آخر ما تقرره الآية من أحكام ، ومع ذلك فالعنصر الوجدانى ليس غائباً عنها ، ولا منعدماً فيها .

فنراها تتجه فى أولها إلى خطاب الذين آمنوا ؛ لتثير فيهم منذ البدء الحرص على الانقياد ، والعمل بما ستأمرهم به من أحكام ، وكأنها تنبه

---

(١) سورة البقرة : ٢٨٢

إدراكهم ومشاعرهم إلى أن المؤمنين الحريصين على سلامة إيمانهم ؛ هم الذين يسارعون إلى تنفيذ هذه الأحكام ، والالتزام بها ، ومن ثم يدفعهم هذا إلى الحرص على إيمانهم بالمسارعة إلى الاستجابة .

ونلاحظ كذلك أن الآية تدعو الكاتب إلى أن يكون عادلا فيما يكتب ، فلا يغير أو يبدل ما يملى عليه ، ولكى يكون كذلك تحرك فيه الشعور بالشكر والعرفان على ما منحه الله تعالى من نعمة المعرفة بالكتابة (كما علمه الله) وهذه النعمة ، وهذا الفضل الذى أسبغه الله عليه يقتضيان شكر المنعم المتفضل ، والشكر هنا إنما يكون باستخدام النعمة فيما يرضى الله ، وما يرضيه تعالى فى هذا المقام هو الكتابة بالعدل دون تغيير أو تدليس .

ثم إن الآية تذكّر من عليه الحق بأن يتقى الله ، وهو يملى ما عليه من دين ، وتقوى الله خشيته ، والخوف من عقابه ، فإذا تمثل المدين الخوف من الله اتقاه ، وتقوى الله هنا أن يملى الحق ، ولا يحيد عنه ؛ لأنه إذا مال عن الحق بخس الدائن حقه ، وحق عليه غضب الله ، وهذا ما يجب أن يتقيه . فإثارة مشاعر الخوف فى وجدان المدين عند إملاء الدين أسلوب مقصود الغرض ، محسوب الغاية .

والآية – فوق هذا – فى معالجتها أحكام الدين تلاحظ غريزة حب التملك فى الإنسان فتقصد إلى بث الاطمئنان والثقة التى ترضى هذه الغريزة عندما تتحدث عن الحكمه فى كتابه الدين ، فكتابته تحفظ المال ، وتبعد الشك عن النفس ، وتبث فيها الطمأنينة على هذا المال ، « ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ، ذلكم أقسط عند الله ، وأقوم للشهادة ، وأدنى ألا ترتابوا » .

ونلتفت أيضاً إلى هذا الجانب الوجدانى فى الآية ، عندما تحذر من

الإضرار بالكاتب والشهيد ؛ حيث تذكرنا بأن الإضرار بهما أو بأحدهما فسوق لا يرضاه الله ، والتعبير بالفسوق قصد به قصداً إلى التنفير من أحداث هذا الإضرار أو محاولته .

وأخيراً تنهى الآية أحكامها بتذكيرنا بأن الله عليم بكل شيء ، يعلم مافيه الخير لنا فيأمرنا به ، ويكون الفلاح فى القيام بما أمر « واتقوا الله ويعلمكم الله ، والله بكل شيء عليم » .

وحسبنا ما ذكرنا دليلا على هذا المنهج الأدبى الذى يصطنعه الأداء القرآنى فى كثير مما قصد إليه ، من مناحى القول ، تحريكا للعقول والوجدانات جميعاً .

(ب) كثرة التنوع فى الأساليب :

يمتاز أسلوب القرآن بكثرة التنوع والاختلاف فى الأساليب ، تبعاً لتنوع الأغراض ، واختلاف مقامات الكلام .

كما يمتاز القرآن الكريم بأنه يحرص الحرص كله على تحقيق المناسبة بين الموقف والأسلوب الذى يقتضيه ، وبين الموضوع والتعبير عنه ، على نحو من الدقة تبلغ حد الإعجاز .

فهو يؤثر الإيجاز – مثلا – فى خطاب الخاصة ، والإطناب فى خطاب العامة ، والتلميح للعربى ، والتصريح لغير العربى ، والتكرار فى مقام العظة والاعتبار ، لتوكيد الزجر والوعيد ، أو بسط الموعظة ، وتثبيت الحجة ، أو فى مقام تعديد النعمة ، والتذكير بالمنعم ، واقتضاء شكره .

وإلى ذلك يشير أبو هلال العسكرى فى قوله : « وقد رأينا أن الله تعالى إذا خاطب العرب والأعراب ، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحى ،

وإذا خاطب بنى إسرائيل ، أو حكى عنهم ، جعل الكلام مبسوطاً ، وقلما نجد قصة لبنى إسرائيل فى القرآن إلا مطولة مشروحة ، ومكررة فى مواضع معادة ؛ لبعد فهمهم ، وتأخر معرفتهم » (١) .

ويقول الدكتور طه حسين : « لا غرابة فى أن تختلف مذاهب القول فى القرآن ، باختلاف الموضوعات ، وباختلاف المقامات أيضاً ، وإنما الغرابة فى التزام مذهب واحد من مذاهب القول فى التشريع ، والقصص ، والتبشير ، والإنذار والموعظة اللينة ، واللوم العنيف ، وهذا التنوع فى مذاهب القول بتنوع الموضوعات والمقامات ، هو الذى يسميه أصحاب البيان فى اللغة العربية ، وفى غيرها أيضاً ، مطابقة الكلام لمقتضى الحال » .

« فالإنذار بقيام الساعة ، وما يكون فيه من الهول ، وبيوم الحساب ، وما يكون فيه من الشدة ، يقتضى أن يكون القول من القوة والأيد ، بحيث يملأ القلوب رعباً ، ولا سيما حين يكون النذير متجهاً إلى الملحّين فى الإنكار والعناد والمكابرة ، وأنت تقرأ من هذا الإنذار الشديد المروع فى القرآن شيئاً كثيراً ، واقرأ إن شئت من السور القصار فى آخر المصحف ، فسترى تصوير الهول قد بلغ من القوة ما يملأ النفس رهباً ورعباً ، وقف إن شئت عند كل موضوع عرض له القرآن ، فسترى ملاءمة القول للموضوع والمقام ... » (٢) .

وإذن فدقة المناسبة بين المقام والأسلوب الذى يقتضيه ظاهرة أسلوبية هامة فى إعجاز البيان القرآنى .

وعلى سبيل المثال ، نورد بعض النماذج لأسلوب القرآن فى الإيجاز

---

(١) الصناعتين ١٤٤ (المطبعة التجارية – القاهرة ١٩٥٢ م) .

(٢) مع طه حسين : سامى الكيالى (سلسلة اقرأ – العدد ٣٧٥) .

والإطناب ، أو القصر والطول ، وروعة المناسبة بين كل منها ، والمقام الذى يقتضيه .

١ - يقول الله تعالى (١) :

﴿ كَذَّبتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وما أسألُكُمْ عَلَيهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * قَالُواْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ * قَالَ : وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَو تَشعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ * قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ .

فهذه الآيات توجز قصة نوح أشد الايجاز ، بالنسبة لما أورده القرآن فى سورة خاصة (سورة نوح ٧١) عدد آياتها ثمان وعشرون ، وما أورده فى سورة هود (١١/٢٥ - ٤٩) فى أربع وعشرين آية .

وإنما اختصرت القصة هنا ؛ لأن ما قصد إليه القرآن من هذه القصة وغيرها من القصص فى هذه السورة (سورة الشعراء) إنما هو تذكير المشركين بآيات الله فيمن سبقهم من الأمم وتحذيرهم من أن يصيبهم مثل ما أصاب تلك الأمم ، وإظهارهم على بطش الله بالظالمين ، بينما سيقت القصة مطولة فى الموضعين السابقين ؛ لما كان الغرض من سوقها ، العظة والاعتبار والتبصير .

---

(١) سورة الشعراء : ١٠٥ - ١٢٠ ، وقد اعتمدنا فى تحليل هذا النموذج على : مرآة الإسلام ١٧٤

من هنا اكتفى القرآن من قصة نوح فى سورة الشعراء ، بما يؤدى هذه الأغراض فى قوة وعنف ، يملكان على السامعين والقارئين أمرهم كله ، فلم يتحدث عن صنع الفلك ، ولا عن المخلوقات التى حملها نوح فيه ، ولم يصف الموج الذى جرت فيه السفينة ، كما لم يتعرض إلى الحديث الذى دار بين نوح وربه ، أو بينه وبين ولده ... إلخ .

ومن أجل هذا أيضاً أديت هذه الأغراض فى هذه الآيات القصار ، المتتابعة فى نسق واحد ، كأنها السيل المندفع ، الذى يغمر كل ما يلقاه ، أو كأنها الريح العاصفة ، التى لا تذر شيئاً أتت عليه إلا جعلته كالرميم .

٢ – ويقول سبحانه وتعالى (١) :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَاحُ ﴾ .

فى هذه العبارة القصيرة ، يصور الله للناس قصر الحياة الدنيا الفانية ، التى تلهيهم عن الحياة الأخرى الباقية .

مشاهد ثلاث تلخص هذه الحياة فى دقة تصوير ، وروعة أداء : (كماءٍ أنزلناه من السماء) و (فاختلط به نبات الأرض) و (فأصبح هشيما تذروه الرياح) ، وبها ينتهى شريط الحياة كله ، لقد تحققت فى هذا الأداء كل عناصر الصدق والدقة والجمال : الصدق ، فى عرض أطوار النبات ، عرض الماء الذى يسبقه ، ويختلط بالأرض فتنبته ، وعرض نضجه ، وعرض تذريته ، فلم يبق بعد ذلك من أطوار النبات ، إلا ما هو ثانوى قليل الخطر ، والدقة : لأنه حقق الغرض الذى سيقت من أجله هذه الصورة كاملا ، وقربه إلى الأفهام أشد القرب ، أبرزه على أوضح ما يكون فى الحس

---

(١) سورة الكهف : ٤٥

فإذا هذه الحياة الدنيا قصيرة قصيرة ، هينة هينة ، لا يصح فى منطق الحق والعقل أن تشترى بالآخرة ، والجمال : لأن سرعتها الخاطفة مما ينشط له الخيال .

٣ – ويعرض القرآن هذه المشاهد الثلاث فى معرض آخر ، ومقام آخر ، مقام التذكير بفضل الله ، ونعمه على عباده ، فلننظر أى الأسلوبين (الإيجاز والإطناب) اصطنع فى هذا العرض :

قال الله تعالى (١) :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِى ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ .

فالآية الكريمة تبسط نعمة الله فى إسقاط المطر ؛ لتحيى به الأرض ، وهذا هو المشهد الأول وحده ، الخاص بوصول المطر إلى الأرض فى الآية السابقة (كماءٍ أنزلناه من السماء) يودى هنا فى عدة فقرات ، ويفصل فى مراحل : فالرياح تثور ، فتثير السحب فى السماء ، فتتراكم هذه السحب ، فيخرج منها المطر ، فينزل المطر من السماء .

أما المشهدان الآخران ، فيفصلهما قوله تعالى (٢) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَابِ ﴾ .

---

(١) سورة الروم : ٤٨ ، وقد اعتمدنا فى تحليل هذا النموذج وسابقه على : التصوير الفنى فى القرآن ١٠٠ ، ١٠٤

(٢) سورة الزمر : ٢١

فالأداء ينساب فى تمهل واضح ، وتفصيل غير قليل ، وفى استخدام أداة العطف (ثم) دقة تنسجم مع هذا الأداء المتمهل ، ومع مراحل المطر والنبات الطويلة ، المتباعدة الأزمنة .

إن المقام هنا مقام بيان النعم الإلهية على العباد ، فبسط العرض ، وبث الصور ، وتملى المشاهد ، هو الأجدر بالموقف ، والأنسب للمقام ، والأليق بترديد النعم ، والتذكير بالمنعم المتفضل ، جل وعلا .

٤ – ولنضرب مثلا آخر للإيجاز الرائع المألوف فى القرآن كثيراً ، قوله تعالى فى قصة طوفان نوح (١) :

﴿ وَقِيلَ : يَا أَرْضُ ٱبْلَعِى مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَاءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ .

فى هذه الكلمات القصار صور القرآن نهاية الطوفان ، وحركة الأرض والسماء فى تحقيق هذه النهاية ، وإسدال الستار على قصة الطوفان ، مع أن هذه الحركة تشغل من أبعاد الزمان والمكان ، ما يشغل وصفه صفحات وصفحات .

ومع ذلك فما أدق وصف هذه الحركة بفعلى الأمر هذين (ابلعى – أقلعى) فإذا السماء تكف ، والماء يغيض ، وإذا الأمر كله قد قضى ، وإذا السفينة قد استقرت على الجودى ، وإذا الطبيعة قد عادت إلى ماكانت عليه من صفاء ، وإذا الكون قد تنفس الصعداء ، فقد طهر من القوم الظالمين ، إنه لنسق رائع يتصدره فعلا الأمر ، ثم أنباء قصار أشد القصر ، موجزة أروع الإيجاز ، قاطعة لا معقب لها .

---

(١) سورة هود : ٤٤

ويجب أن نلفت النظر إلى ناحية من نواحى البلاغة القرآنية ، كما تتمثل فى هذه الآية ، دقة فى اختيار الكلمة ، ووضعها فى موضعها ؛ لتحقيق المناسبة الدقيقة بينها وبين مجاوراتها ، فضلا عن التصاقها بالمعنى الذى سيقت له .

فمثلا ، لو أخذنا كل كلمة فى هذه الآية على حدتها ، ومن غير نظر إلى حظها من الأداء فى معنى الآية بأكملها ، فقد لا نجد لها من التأثير ما نجده لها وهى بين أخواتها ، تؤدى معناها .

وهنا يحق لنا أن نسأل عن فضل الكلمة فى موضعها ، ونتبين جمال اختيارها ، وندرك ما لها من الميزة على غيرها ، فإذا سلكنا هذا المسلك فى الآية الكريمة التى بين أيدينا رأيناها تصور ما حدث بعد الطوفان من ابتلاع الأرض ماءها ، ونقاء السماء بعد أن كانت تغطى بسحبها ، واستواء السفينة على الجودى ، وقد طهرت الأرض من رجس الكافرين ، صورت الآية كل هذا تصويراً حسياً ، يؤكد فى النفس استجابة الطبيعة وخضوعها لأمر الله .

فهذا المطر المدرار ينهمل من السماء ، وهذا الماء الطاغى يجتاح نواحى الأرض ، وهذا الاضطراب فى أرجاء الكون لم يلبث أن سكن وانقضى ، فعادت الطبيعة إلى هدوئها ، عندما تلقت أمر الله أن تسكن وتهدأ ، ولكن لما كان هذا الأمر قد صار إلى الكون من غير أن يسمعه من فى الكون ، أو يروا قائله ، بنى الفعل للمجهول كما نرى (وقيل) وأوثرت فى نداء الأرض الأداة (يا) دون الهمزة ؛ لما يدعو اجتماعها مع همزة (أرض) إلى ثقل على اللسان فى النطق بهما ، وفضلت كذلك على الأداة (أيا) لما فى هذه من زيادة تنبيه ، ليست الأرض — وهى رهن أمر الله — فى حاجة إليه ، وأوثر تنكير الأرض (يا أرض) لما فى ذلك من تصغير أمرها ، فالمقام هنا يستدعى ذلك التهوين والتصغير ، كما يستدعى الإسراع فى تلبية

الأمر : وذلك لا يكون مع التعريف الذى يقتضى إطالة الكلام بـ (أيتها) ، وجاءت كلمة (ابلعى) فى هذا المقام مصورة لما يراد أن تصنعه الأرض بمائها ، وهو أن تبتلعه فى سرعة ؛ ولذا كانت أدق من كلمة (امتصى) — مثلا — لأنها لا تدل على الإسراع فى التشرب ، وفى إضافة الماء إلى الأرض (ماءك) ما يوحى بأنها جديرة بأن تبتلع ماء هو ماؤها ، فكأنها لم تكلف شططاً من الأمر .

وتحقيقاً للدقة البلاغية أيضا بنى الفعل (غيض) للمجهول ، تصويراً لإحساس من شاهدوا هذا المنظر الطبيعى ، فهم قد رأوا الماء يغيض ، والأمر يتم ، وكأنما حدث هذا كله من تلقاء نفسه ، من غير أن يكون ثمة فاعل قد فعل ، كذلك اختيرت لفظة (واستوت) دون (رست) مثلا ؛ لما فى الأولى من الدلالة على الثبات المستقر ، وبنى الفعل (قيل بعداً) للمجهول ، إشارة إلى أن هذا القول قد صدر ممن لا يعد كثرة ، حتى لكأن أرجاء الكون تردد هذا الدعاء ، وجاءت كلمة (بعداً) دون (هلاكا) مثلا ، إشارة إلى أن هلاك هؤلاء القوم الظالمين إنما قصد به إبعادهم عن الفساد فى الأرض ، وعن السخرية بمن آمن وعمل صالحاً ، ونحن نحس فى كلمة (بعداً) هنا ، دلالة على الراحة النفسية التى شعر بها من فى الكون ، بعد أن تخلصوا من هؤلاء القوم الظالمين ، ولعل لاستخدام المصدر الذى يؤكد أن الفعل قد تم أثرا فى الدلالة التى ذكرنا .

وقد يصل الإيجاز فى القرآن إلى حد الاكتفاء باللمح والإشارة ، إذا كان التلميح فى الموقف أبلغ من التصريح ، والإشارة أوقع من التفصيل :

فلننظر مدى ماوصلت إليه الآيات الكريمة فى سرعة اللمح ، ودقة الإشارة إليه فى قوله تعالى [١] :

---

(١) سورة الزمر : ٢٢

﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِلقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللهِ ﴾ .

فخبر (من) محذوف فى هذه الآية ، يشير إليه قوله بعد ذلك (فويل للقاسية قلوبهم) فيكون تقدير الخبر ، أفمن شرح الله صدره للإسلام كالقاسية قلوبهم ؟؟ .

ومن ذلك قوله تعالى (١) :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى آلسَّمَوَاتِ ﴾ .

فانظر إلى ما فى الآية من تهكم وسخرية بعبدة الأصنام ، وتعريض بعجز آلهتهم ، وأنها لا قدرة لها على خلق شىء ، ثم انظر إلى إلزامهم الحجة بهذا التحدى الصارخ :

« إئتونى بكتاب من قبْل هذا ، أو أثَارة مَنْ عِلْم إنْ كُنْتُمْ صادقين » .

وانظر أيضاً إلى إشارة الآية إلى المحذوف ، إشارة لطيفة دقيقة : أى ائتونى بكتاب من قبل القرآن ، أو بجزء ضئيل من العلم ، يشهد بجدارة ما تعبدون من هذه الأصنام وغيرها ، وأنها حقيقة بالعبادة !!

وبذا ينكشف جهلهم وعنادهم ؛ حيث لا دليل يهديهم ، أو حجة تسعفهم ، وإنما هم يخبطون فى الضلال ؛ لأنهم يعبدون ما لا يجيب دعاء ، ولا يسمع نداء ، ولا يستطيع نفعاً ولا ضراً ، فالمقام مقام سخرية وتهكم ، والمخاطبون عرب ، يفهمون اللمح والإشارة فى لغتهم ، ويدركون أن هذا الأسلوب أوقع من الإفصاح والتفصيل فى هذا المقام .

---

(١) سورة الأحقاف : ٤

ومن بلاغة الحذف فى القرآن ، اعتماداً على فطنة القارىء ، الذى يفهم سياق الكلام ، ودلالته على المحذوف ، قوله تعالى (سورة الكهف ٤٨/١٨) : ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمونا كما خَلَقْناكُم أَوَّلَ مرَّةٍ ... ﴾ أى : فقيل لهم ، فحذفت جملة القول لدلالة السياق عليها .

ومنه أيضاً ، قوله تعالى (سورة العنكبوت ٨/٢٩) : ﴿ وَوَصَّينا الإِنْسَانَ بِوالدَيْهِ حُسْنًا وإن جاهَدَاكَ لِتُشرِكَ بي ما ليسَ لك بِهِ عِلْمٌ فلا تُطِعهُمَا ... ﴾ أى : وقلنا له : وإن جاهداك ، فحذف جملة القول .

ومن وجوه الحذف البليغ فى القرآن ، الاستغناء عن التفصيل ، بحذف عدة جمل ؛ لأنها تدرك من السياق ؛ ولأن فى ذكرها إطالة ، وانشغال بما ليس من هدف الكلام ، نرى هذا فى قوله تعالى من قصة سليمان — عليه السلام — والهدهد (سورة النمل ٢٧/٢٧ — ٢٩) : « قال : سَنَنْظُرُ أصَدَقْتَ أم كُنتَ من الكَاذِبينَ آذْهَب بِّكِتَابى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَولَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرجِعون قالتْ : يأيُّها الملأُ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ... ﴾ .

فالحذف هنا يشمل تفصيلات جزئية تدرك من السياق ، وفى تركها وصول إلى العناصر الجوهرية فى القصة ، وتركيز عليها .

وهذا الذي مثلنا له من أساليب الحذف فى القرآن الكريم داخل فى باب الإيجاز البليغ ، وأمثال هذا كثير فى الأسلوب القرآنى [١] .

وقد نكون فى حاجة إلى وقفة عند هذه الظاهرة الأسلوبية فى البيان

---

(١) انظر مثلا سور : يونس ٣١/١٠ — ٣٢ ، والمائدة ٧٢/٥ — ٧٦ ، ومريم ٨١/١٩ — ٨٢ ، والقصص ٧١/٢٨ — ٧٢ ، وسبأ ٣٢/٣٤ ، والفرقان ٣/٢٥ ، والأحقاف ٢٧/٤٦ — ٢٨ ، والنحل ١٧/١٦ — ٢١

القرآنى ، نعنى ظاهرة تنوع الأساليب فى القرآن تنوعاً يتعذر حصره ، والوقوف على صوره ، نحاول من خلالها تفسير هذا التنوع الكثير فى الأساليب القرآنية ، والاقتراب من سر التفوق والإعجاز فيه ؛ حتى لا يحتج على قضية الإعجاز البيانى فى القرآن بأن مراعاة مقتضى الحال فى الأساليب ، وتنوع الكلام بتنوع المقامات كان أسلوباً من أساليب العرب قبل نزول القرآن ، ومذهباً من مذاهبهم فى فن الكلام .

إن القرآن نفسه يرشدنا إلى سر هذه الظاهرة فيه ، ويهدينا إلى المذهب الصحيح فى تفسيرها ، والكشف عن ميزتها .

يقول الله تعالى (سورة الأنعام ٣٨/٦) : ﴿ مَا فَرَّطنا فى الكِتابِ من شَىءٍ ﴾ ويقول (سورة هود ١/١١) : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آياتُه ثم فُصِّلَتْ من لَدُنْ حَكِيمٍ خَبيرٍ ﴾ ، ويقول (سورة الزمر ٢٧/٣٩) : ﴿ وَلَقَد ضَرَبْنَا للنَّاسِ فى هذَا القُرْآنِ مِن كُلِّ مَثلٍ لَعلَّهُمْ يَتذَكَّرُونَ ﴾ .

وصدق الله العظيم ، فالإحاطة والشمول ، والقصد إلى التدبر ، وضرب الأمثال للعبرة والعظة ، كل ذلك قد اقتضى أن يحوى القرآن من الأغراض والموضوعات ، ومقامات الكلام ما ينظم حياة الإنسان فى هذه الدنيا ، فقد عالج حياته العقدية ، وساق له من البراهين والدلائل ما يهديه إلى الله المعبود الحق ، ووضع له من الحدود ما ينظم علاقته بربه ، كما عالج القرآن شئون الاجتماع الإنسانى ، وحاطه بما يحقق له قواعد العدل والمرحمة ، وهدى الإنسان إلى فضائل الأخلاق ، وبين له أدواء الخصال ، وأوضح له ما فى الفضيلة من خير ، وما فى الرذيلة من شر ، وأقر الحقوق والواجبات بين الأفراد والجماعات ، ونظم له شئون الحرب والسلم .

واقتضى ذلك كله أن يحذر وينذر ، ويعد ويبشر ، وأن يقص عليه من أخبار الأمم قبله ، صالحهم وطالحهم ، مؤمنهم ، وكافرهم ، مايفتح عينيه

على مواطن العظة والاعتبار ، ويهديه فى كل ما يقول أو يفعل إلى المنهج الحق ، والصراط المستقيم .

وتحت هذه الأغراض الكبرى موضوعات كثيرة ، ومواقف عديدة ، فتحت باب الاعتقاد عقائد ، وفى شئون السياسة والاجتماع والأخلاق موضوعات شتى ، وفى مجال العبرة عبر ، وفى مواقف العظة هناك عظات ...

وهكذا تتشعب الأغراض والموضوعات فى معارض تناول القرآن لشئون الإنسان فى حياته الدنيا .

ومع ذلك فإن القرآن العظيم لم يقف بالإنسان عند حد هذه الحياة ، بل عالج أمره فى الحياة الأخرى ، وتحت هذا المعالجة أغراض وموضوعات ، ومواقف أخرى ، ففى القرآن حديث كثير عن الموت والنشور ، والبعث والحساب ، وفيه تصوير كثير لمواقف الثواب والعقاب ، وعرض متنوع لنعيم الجنة ، وألوان عذاب النار ... إلى غير ذلك ، مما يتصل بحياة الإنسان فى الدار الآخرة .

واقتضت حياة الإنسان فى عالميه السابقين الحديث عن عوالم أخرى ، ما كان للإنسان علم بها إلا من خبر السماء ، ففى القرآن أخبار عن عوالم الروح والملائكة والجن والأفلاك ... وغيرها من عوالم خلق الله .

على هذا النحو زخر القرآن بمختلف الأغراض والموضوعات والمواقف ، ولكل منها أسلوبه أو أساليبه التى يقتضيها ، ولا يقوم غيرها مقامها فيه ، ومن هنا تعددت أساليب القرآن وتنوعت ، وبلغت فى تمثيل الدقة بين المقام والأسلوب الذى يناسبه حداً يفوق قدرة البشر ، هو حد الإعجاز الذى تحدثنا عنه سابقا .

وهذه الظاهرة فى الأسلوب القرآنى تكفى وحدها للدلالة على هذا الإعجاز ، فما كان لبشر واحد مهما أوتى من النبوغ ، وسعة العلم ، أن يلم بكل هذه الأغراض ، والموضوعات والمواقف ، وأن يختار لها كل ألوان الأساليب المناسبة ، وأن يوفق فى هذا الإلمام إلى الحد الذى نراه فى القرآن .

وما كان لمجموعة من نوابغ علماء البشر وبلغائهم مشتركين ، أن يبلغوا من ذلك ما بلغه القرآن ؛ فقد نرى فى حياتنا البشرية من ألفوا ، ودوائر المعارف فى فنون شتى ، ولكننا نقرأ أساليبهم فى التعبير عن هذه المعارف ، فنقف على مستويات من الكلام تتذبذب بين الجودة والرداءة ، وبين الجفاف والعذوبة ، وبين الإصابة والخطأ ، وبين التعقيد والوضوح ، وإلى هذا يشير القرآن العظيم فى قوله تعالى (سورة النساء ٨٢/٤) : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القُرآنَ ولَوْ كان من عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا ﴾ ، ومع كل هذا فهم لم يحيطوا بكل ما أحاط به القرآن ، ولم يطرقوا من الموضوعات والمواقف كل ما طرق ، ولم يعرفوا من عوالم خلق الله وملكوته كما عرف القرآن وأخبر ، فما كان لهم أن يعالجوا موضوعات : الغيب ، وعالم الأرواح ، والملائكة ... وغيرها مما استأثر الله بعلمه ، وحدث ببعض خبره فى القرآن ، هذا فضلا عن أخبار الدار الآخرة وما فيها .

وما كان محمد إلا بشرا واحدا أميا ، من أمة أمية ، وما تلقى محمد ما تلقى هؤلاء فى معاهد الفكر ، ومجالات الدرس ، ومدارس العلم ، فما نطق إلا بما علمه الله ، وأوحى به إليه ، مما كان بعض علمه عند قومه ، وأهل زمانه مستحيلا ، مهما أخذ بعضهم عن بعض ، وصدق الله العظيم (سورة الفرقان ٤/٢٥ ، ٦) : ﴿ وقالَ الذين كَفَرُوا : إنْ هَـٰذَا إلَّا إفكٌ افْتَرَاهُ وأَعَانَهُ عليه قومٌ آخرون فَقَد جاءُوا ظُلْماً وزُورًا * قل أنزَلَهُ الذى يَعْلَمُ السِّرَّ فى السَّمَواتِ والأرضِ ﴾ .

ولقد كشف الله سبحانه عن بعض هذا السر فى آيات قرآنية كثيرة ، لم يعرفها العلم الحديث بإمكاناته وعقول علمائه إلا فى أزمنة متأخرة جداً عن نزول القرآن .

من ذلك قوله تعالى (سورة الرعد ٤١/١٣) : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِن أَطْرَافِهَا ﴾ وقوله (سورة الأنبياء ٣٠/٢١) : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا من الماءِ كُلَّ شيءٍ حَيٍّ ﴾ وقوله (سورة فصلت ١١/٤١) : ﴿ ثُمَّ استَوَىٰ إِلَى السَّماءِ وهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا ولِلأَرْضِ آئْتِيَا طَوعًا أو كَرهًا ، قالتَا أَتَينَا طَائِعِينَ ﴾ .

من هذا يتضح لنا مدى تنوع أساليب القرآن ، بتنوع الأغراض والمقامات وأن هذا التنوع لم يصب أسلوب القرآن بالاضطراب ، أو اختلاف المستويات ، من حيث الجودة والرداءة ، ونقرأ ما شئنا من آى القرآن فى أى غرض من أغراضه ، أو موقف من مواقفه ، فلا نجد اضطراباً فى الأساليب ، أو اختلافاً فى مستوى الكلام ، فصاحة ، وعلو بيان .

بهذا الوجه الذى فصلنا يفترق أسلوب القرآن فى بلاغة التنوع ، ومناسبة المقامات ، عن أسلوب العرب ، فى هذه الناحية الأسلوبية .

وتبرز هذه الظاهرة الأسلوبية (تنوع الأساليب فى القرآن) واضحة جلية ، عند المقارنة بين الأسلوب القرآنى فى السور المكية ، والأسلوب القرآنى فى السور المدنية بعامة :

لما كانت السور المكية أقدم من المدنية ، وهى فى مجموعها كانت فى حال بدء الدعوة إلى دين جديد ، والدفاع عنه ضد المعاندين من مشركى قريش ؛ لذا نجد القرآن فى مكة يدافع عن دعوته بحرارة ، ويتحمس لها تحمساً شديداً ، وهذه الحال تقتضى أسلوباً خطابياً متقداً ، شديد الوقع ،

قوى التأثير ، يتخذ طابع الحملات النارية العنيفة ، ويتألف من فقرات وجمل قصيرة رنانة ، يغلب عليها التسجيع ، الذى ينساب إلى النفوس فى قوة ، فيفعل فيها فعل السحر .

ولنأخذ مثلا قوله تعالى (١) :

﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمدُودًا وبَنِينَ شُهُودًا * ومَهدتُ لَهُ تمهيدًا * ثم يطمع أن أزيد !! ، كلَّا إنّه كان لِآيَاتِنا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إنه فكّر وقدّرَ * فَقُتِلَ * كيف قدّر !! ، ثم قُتِلَ ، كيف قدَّر !! ، ثُم نَظَرَ * ثُم عَبَسَ وبَسَر * ثُم أدْبَرَ واسْتَكْبَرَ * فقال : إنْ هذا إلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إنْ هَـٰذَا إلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيه سَقَرَ * وما أَدْرَاكَ ما سَقَرُ * لا تُبقِى ولا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبشَرِ ﴾ .

فالجمل قصيرة ، والألفاظ شديدة ، والعبارة عنيفة ، والسجع هو الأسلوب الغالب ، وهذا ما يقتضيه مقام الغضب والتهديد والوعيد ، لطاغية من طغاة مشركى مكة ، وهو الوليد بن المغيرة ، وفى القرآن من هذا الإنذار الشديد المروع شىء كثير .

من ذلك قوله تعالى (٢) :

﴿ كَلَّا إِنَهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِلّشَّوَىٰ * تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَع فَأَوْعَى * إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وإذا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ... ﴾ .

والأمثلة على ذلك كثيرة فى السور المكية القصار ، حيث تتتابع فيها معانى الإنذار ، والترهيب ، والوعيد ، للملحين فى الإنكار والعناد ،

---

(١) سورة المدثر : ١١ – ٢٩

(٢) سورة المعارج : ١٥ – ٢١

والمكابرة ، فإذا قرأنا — مثلا — سور : التكوير ، والانفطار ، والانشقاق ، والبروج ، وجدنا الآيات القصار المتلاحقة ، التي تنصب على السامعين ، كأنها الصواعق المنقضة ، تملأ القلوب رعبا .

والظاهرة الأسلوبية الشائعة فيها ، هي : قصر العبارات ، وقوتها ، وعنفها في الحملة على المشركين ، مع الازدواج ، أو السجع ، الذي يحرك في النفس انفعالات الخوف والرهبة ، التي يقتضيها مقام الزجر ، والتهديد ، والتخويف والثورة على المشركين .

ومع أن السور المكية الطويلة لم تتقيد بقصر الفقرات ، فإنها كغيرها ، يسود فيها الأسلوب الخطابي ، ونزعة الحملة العنيفة على المخالفين ، وقلما تعتمد على الأسلوب الجدلي ، أو التشريعي الهادىء .

تلك حال من أحوال الدعوة الجديدة في مكة ، حال الدفاع عن نفسها ، ضد مقاومة شرسة ، وعناد أحمق ، وتعصب أعمى لدين الآباء ، وكان هذا الأسلوب الذي وصفنا هو المناسب في مقام الردع والترهيب ، و الإنذار .

على أن هذه الدعوة كانت في حاجة إلى جمع الأنصار ، وتأليف القلوب حولها ؛ إذ كانت ما تزال غضة طرية مستضعفة ، لم يستجب لها إلّا قلة من ذوي المكانة في هذه البيئة الأولى ، وكثرة من الضعفاء والفقراء والأرقاء ، وكان هؤلاء يشعرون بهوان أمرهم ، وقلة شأنهم ، إزاء الطبقة الممتازة من زعماء قريش ، ورءوس الكفر في مكة ، وكان على القرآن أن يكشف لهؤلاء الضعفاء والمستضعفين جوانب من الامتياز أعدها الله لهم ، ومنازل من التفوق مدخرة في حياة أخرى أبقى وأخلد .

ومن هنا كثرت في السور المكية **أساليب الترغيب والبشارة** ، فأكثر من وصف النعيم الذي أعده الله لمن آمن به ، واستجاب لدعوة نبيه ، من

ذلك قوله تعالى فى سورة النبأ (وهى مكية) : ﴿ إنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازًا حدائِقَ وأعْنابًا * وكَواعِبَ أَتْرابًا * وكَأْسًا دِهَاقًا * لا يَسْمَعونَ فيها لَغْوًا ولا كِذابًا * جَزاءً مِّن ربِّكَ عَطاءً حِسابًا ﴾ [سورة : النبأ ٣١ - ٣٦] .

ومنه قوله تعالى فى سورة الواقعة (مكية) مبيناً ما أعده الله فى الدار الآخرة من نعيم للسابقين إلى الإيمان ، ولأصحاب اليمين : ﴿ والسّابقُونَ السَّابِقُونَ * أُولئِكَ المقَرَّبُونَ * فى جَنَّاتِ النَّعيم * ثُلَّةٌ من الأولينَ * وقَليلٌ مِّنَ الآخِرِينَ * على سُرُرٍ مَوضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عليها متقابِلينَ * يطوف عَلَيهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدون * بِأَكْوابٍ وأَباريقَ وكَأْسٍ مِّن مَعِينٍ * لا يُصَدَّعُونَ عنها ولا يُنْزِفُونَ * وفَاكِهَةٍ مِّما يَتَخيَّرون * وَلَحْمِ طَيْرٍ مما يشتهونَ * وحُورٍ عِينٌ * كأَمثالِ اللُّؤْلُؤِ المكْنُونِ * جزاءً بما كَانُواْ يَعْمَلُونَ * لا يسمَعُونَ فيها لَغْواً ولا تأْثِيمًا * إلا قِيلًا سلامًا سلامًا * وأصحابُ اليمِينِ مَا أصحابُ اليمِينِ * فى سِدْرٍ مَّخْضودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وظِلّ ممدودٍ * وماءٍ مَسكوبٍ * وفاكِهَةٍ كَثِيرةٍ ، لا مَقْطُوعةٍ ولا ممنوعةٍ * وَفُرشٍ مرفوعةٍ * إنّا أنشأْناهُنَّ إنشاءً * فجعلناهُنَّ أبْكارًا ، عُرُبًا أتْرابًا * لِأَصْحَابِ اليمِينِ ﴾ . [سورة الواقعة : ١٠ - ٣٨] .

بهذه المنزلة العالية ، والنعيم المقيم الخالد . واللذات الحلال المحببة ، أحيا القرآن آمالا كباراً فى نفوس الضعفاء والمساكين ، الذين سارعوا إلى الإيمان بدعوة نبيه فى مكة ، فأشعرهم أنهم باستجابتهم المؤمنة لهذه الدعوة ترتفع مكانتهم ، ويعظم قدرهم ، ويصيبون من الجاه والنعيم كل ما هو أبقى وأخلد .

والأسلوب هنا أيضاً يعتمد على الموسيقى المتلاحقة ، المنبعثة عن قصر الجمل ، والازدواج ، والموازنة ، والسجع .

ومع هذا التوافق فى وسائل التعبير بين موقفى الوعيد والوعد ، والإنذار والتبشير ، فإن الفرق كبير بين التأثير الموسيقى هنا ، والتأثير

الموسيقى هناك ، هنا تنساب الموسيقى إلى النفوس فى ليونة عذبة ، وهدوء محبب ؛ لتشيع البهجة والطمأنينة فى قلوب المؤمنين ، وهناك تندفع اندفاعاً قوياً هادراً ؛ لتخلع القلوب ، وتملأها رهبة وهلعاً ، وتصب عليها من الوعيد ناراً متقدة ، وليس من شك فى أن لاختيار الألفاظ فى المقامين دوراً رئيساً فى هذا الأداء ، الذى اختلف وقعاً وتأثيراً .

ففى مقام الترغيب تشيع ألفاظ النعيم والبهجة والسرور ، واللذة (حدائق ، أعناب ، كواعب ، كأس ، فاكهة ، حور عين ، اللؤلؤ المكنون ، سلاما سلاما ... إلخ) .

أما فى المقام الأول ، مقام الإنذار والتخويف ، فهناك ألفاظ مثل : (قتل ، سأرهقه ، عبس ، بسر ، سأصليه ، سقر ، لظى ، نزاعة للشوى ، هلوعا ... إلخ) .

ونحن نحس هذا الفرق فى التأثير الأسلوبى حين نقرأ فيما أعده الله للمكذبين ، فى مقابل ما نقرأ فيما وعد الله به المؤمنين ، فللكافرين يقول الله تعالى (سورة النبأ ٧٨/٢١ - ٣٠) : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا ولا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا * فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾

فإذا تذكرنا ما أوردته هذه السورة نفسها من وصف النعيم الذى أعد للمؤمنين : ﴿ إن للمتقين مفازاً ... ﴾ إلى آخر الآيات ، أحسسنا بمدى اختلاف التأثير الأسلوبى ، لاختلاف المقامين ، مع اتحاد الإطار التعبيرى فيهما تقريباً ، فكلاهما يعتمد على قصر الآيات ، وموسيقى السجع ، والأزدواج ، والموازنة ، وهذا من دقيق سر الإعجاز فى الأداء القرآنى .

بل إن هذه المقومات الأسلوبية أو الوسائل التعبيرية ، أو الإطار التعبيرى العام ، يستخدمه القرآن – تقريبا – فى موقف آخر من مواقف الدعوة الإسلامية فى مكة ، لتحقيق لون آخر من التأثير النفسى والعاطفى ، أعنى موقف التبصرة ، ولفت النظر إلى آيات الله فى الكون ، وفى الخلق ؛ بغية تسديد خطى الدعوة ، وبث اليقين فى قلوب أتباعها .

وفى السور المكية – وبخاصة القصار منها – كثير من آيات الله الدالة على وجوده ، وعظيم قدرته ، وبديع صنعته :

فلننظر فى قوله تعالى (سورة الغاشية ١٧/٨٨ – ٢٠) : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ .

وقوله (سورة الواقعة ٦٣/٥٦ – ٧٤) : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ ٱلْمَاءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ، فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ * ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا ، أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ، وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

وقوله (سورة القيامة ٣٦/٧٥ – ٤٠) : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً ، فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ .

وقوله (سورة النازعات ٧٩/٢٧ – ٣٣) : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَٱلْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ .

فقصر العبارة ، وغلبة السجع ، وتوازن الجمل طابع عام للأداء التعبيرى فى هذا المقام أيضاً ، وهو نفس الطابع الأسلوبى فى الموقفين السابقين – تقريبا – غير أن التأثير الأسلوبى هنا يختلف عنه فيما سبق .

فهنا اتجاه إلى العقل قبل العاطفة ، وقصد إلى غرس اليقين فى العقول والقلوب معاً ، قبل أن يكون إثارة للانفعال ؛ ولذا تدخل بعض العناصر الأسلوبية فى الأداء ، وتبرز بروزاً واضحاً ؛ لتؤدى دوراً إيجابياً فى بث اليقين ، وهدى العقول ، نذكر منها أسلوب الاستفهام الإنكارى (أأنتم أنشأتم شجرتها ، أأنتم أنزلتموه من المزن ، أأنتم تزرعونه ، أأنتم أشدّ خَلْقاً ، أيحسب الإنسان أن يترك سدىً ؟؟) ، والاستفهام التقريرى (ألم يك نطفة ؟ أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟؟) ، والاستفهام للتنبيه ولفت النظر ، مع شئ من التقريع (أفلا ينظرون إلى الإبل ...وإلى السماء ... وإلى الجبال ... أفرأيتم الماء الذى تشربون ... أفرأيتم النار التى تورون ... إلخ) .

على هذا النسق البديع تجرى جميع السور المكية – تقريبا – فى بداية الدعوة الإسلامية ، حيث اقتضت ظروفها ومواقفها وعيداً لمن عاندها وحاربها ، ووعداً وبشارة لمن استجاب لها وآمن ، وتبصرة وإرشاداً لدعم اليقين بها ، واجتذاب العقول الحرة المنصفة إليها .

فإذا انتقلنا إلى الأسلوب القرآنى فى السور المدنية ، وجدناه يختلف عن الطابع العام للأسلوب المكى ، ففى المدينة ، وضعت أنظمة الحياة الإسلامية ، واستقر الدين الجديد – إلى حد ما – فى قلوب الناس ، وكثر

أتباعه ، واحتك أهله بطائفة من أهل الكتاب فى المدينة وحواليها ، وهم اليهود ، فكان على القرآن أن يراعى كل هذه الظروف والأحوال ؛ ولذا نجد أسلوبه يتحول من الثورة على مشركى مكة ، إلى الاحتجاج والجدل ، الممزوجين أحيانا بلون من التقريع والتهكم ؛ إذ كان القصد أخذ هؤلاء اليهود بالحجة ، والكشف عن ضلالهم بالتدليل ، وأحيانا بالتقريع ، كما نجد هذا الأسلوب يأخذ فى مواقف أخرى طابع البيان الهادىء ، الذى يميل إلى البسط المناسب لتفصيل الأحكام ، وتبيين الحدود وسن الشرائع .

وجملة القول : أننا نحس عند مقابلة الأسلوب القرآنى فى السور المدنية بعامة ، بالأسلوب القرآنى فى السور المكية ، نحس بتغير النفس ، لتغير المكان والحال ؛ حيث تكثر فى الأسلوب المدنى الحجج الباهرة ، والبراهين القاطعة ، والعبارات الطويلة الهادئة ، المناسبة لمقامات الاحتجاج والجدل والتشريع وما تتطلبه من بسط وتفصيل .

ولتوضيح ما ذكرنا ، نسوق بعض الأمثلة من آى القرآن فى السور المدنية ، يقول الله تعالى [١] :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ ٱللهِ ٱلإِسلامِ ، وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُر بِآياتِ ٱللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ * فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا ٱلكتابَ وَالْأُمِّيِّنَ أَأَسلَمْتُمْ ؟؟ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَوَا وإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلاغُ والله بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ ﴾ .

---

(١) سورة آل عمران : ١٩ — ٢٠

ويقول سبحانه (١) :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفر واللهُ لا يَهدِى ٱلْقومَ ٱلظَّالَمِين ﴾ .

ويقول سبحانه (٢) :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمٰواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ آسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونِ * وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا ، وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ؛ يُغْشِى ٱللَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِن فِي ذَٰلِكَ لآياتٍ لِّقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لآياتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

فالملاحظ فى هذه الآيات وغيرها من السور المدنية أنها تتسم بالهدوء ؛ لأن المقام يتطلب هدوءا وتأملا ، وفضل تدبر ، وخاصة فى الآيات التى تدعو إلى إعمال الفكر ، وفى القصص والأخبار والأحكام ، وأكثر ما جاء ذلك فى السور المدنية .

فإذا قابلنا بين هذه الآيات ، والآيات المكية السابقة ، أحسسنا بالانتقال من حال إلى حال ، لا من حيث التركيب البيانى ورعته ، ولكن

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٨

(٢) سورة الرعد : ٢ - ٤

من حيث الانفعال ، وحرارة العبارة ، فالعبارة هنا طويلة النفس ، هادئة ، تتخذ طريق البرهان ، إفحاما للخصم ، وإلزاما بالحجة ، ومثل هذا الأسلوب كثير فى السور المدنية .

وليس معنى هذا أن الأسلوب فى السور المدنية خلا تماماً من الطابع الخطابى ، الذى يندفع فيه الكلام اندفاعا ، فى قوة وعنف ؛ فإننا نرى مثل هذا الأسلوب فى بعض مواقف السور المدنية ، ولكننا هنا نتحدث عن الطابع العام لكل من الأسلوبين .

فالقرآن لم يلزم طريقة أسلوبية واحدة ، وإنما اختلف فيه الأسلوب باختلاف الظروف ومقتضيات الأحوال ، فهو : « يعطى لكل حالة ما يناسبها من الإيجاز أو الإطناب ، الذكر أو الحذف ، التقديم أو التأخير ، الهدوء أو الانفعال ، كل ذلك فى سبك محكم ، وإنشاء بديع ، وبيان سام رفيع [(١)] .

وهذا الاختلاف الذى يلاحظ بين الأسلوب المدنى والأسلوب المكى فى القرآن ، لا يرجع إلى القيم البلاغية ، وفن الجمال الأدبى لكل منهما ، فالقرآن فى هذه القيم البلاغية والجمالية نسق واحد ، يتسم كله بالإعجاز ، وكمال البلاغة ؛ ذلك أنه كله من عند الله ؛ ولذا فهو وحدة فى روحه ، وفى إعجازه ، مهما اختلف تنزيل سوره ، ومهما اختلفت موضوعات السور ، ومذاهب القول فيها .

(حـ) منهج القرآن فى نظم كلامه :

ومن الظواهر الأسلوبية الهامة فى القرآن ، اعتماده أسلوبا خاصاً فى النظم ، يخالف ما كان عليه العرب فى نظم كلامهم ، فالأساليب التى كانت معروفة للعرب لا تخرج عن ثلاثة :

---

(١) النثر الفنى (بليغ) ٦٠

الأسلوب المرسل ، والمسجع ، والموزون المقفى (الشعر) .

وقد اختار القرآن أسلوباً يجمع بين مزايا هذه الأساليب ، ويبرأ من عيوبها ، فالأسلوب المرسل يناسب الطبع ، ولكنه لا يطرب الأذن ؛ لفقده عنصر الموسيقية ، والأسلوب المسجع ، وكذلك أسلوب الشعر ، غنيان بالموسيقى ، ولكنهما مثقلان بسلاسل وقيود ، قد تضطر الساجع أو الشاعر إلى بتر الفكرة ، أو الزيادة فيها ، جرياً وراء سجعة أو روى ، أو محافظة على الوزن .

وفى هذا يقول المرحوم الأستاذ سيد قطب [1] : « على أن النسق القرآنى قد جمع بين مزايا النثر والشعر جميعاً ، فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحدة ، والتفعيلات التامة ، فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة ، وأخذ فى الوقت ذاته من خصائص الشعر ، الموسيقى الداخلية ، والفواصل المتقاربة فى الوزن ، التى تغنى عن التفاعيل ، والتقفية التى تغنى عن القوافى ... فشمل النثر والنظم جميعاً » .

ولسنا بهذا ننكر اعتماد القرآن أسلوب السجع فى بعض آياته وسوره ؛ إذ لا يعيب الأسلوب القرآنى أن يكون بعضه مسجوعا ، ولكنا مع هذا نؤثر أن نستخدم كلمة « الفاصلة » أو « الفواصل » بدلا من كلمة « السجع » إلماعا إلى أن هذا اللون من الأسلوب ، يغاير نسق السجع الذى عهده العرب فى كلامهم ، واقتدروا عليه .

والحق أن السجع القرآنى فريد فى بابه : « يمتاز بأنه يحقق الملاءمة بين المعنى والأسلوب أروع تحقيق ، ويخضع كل منهما للآخر فى إعجاز بين لا ينكر ، وذلك أن سجعاته متعانقة مع ما قبلها ، مستقرة فى مواضعها ،

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن ٨٠

كفيلة بروعة المعنى وجمال الصورة ، واتزان النطق ، وتجانس الجرس ، وحلاوة الوقع ؛ ولهذا ترشد الآيات إلى فواصلها ، ويتوقعها من له عرق فى الأدب وذوق » [١] .

ومما يروى فى مقام الاستدلال على صواب هذا الحكم ، قول زيد بن ثابت رضى الله عنه : « أملى علينا رسول الله ﷺ هذه الآية [٢] :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ .

فعند ذلك قال معاذ بن جبل : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ ﴾ فضحك رسول الله ، فقال له معاذ : مم ضحكت يارسول الله ؟ فقال : بها ختمت [٣] .

وهكذا القرآن كله ، محكم اللفظ والمعنى ، تتعانق ألفاظه ومعانيه تعانقاً قوياً ؛ ومن أجل هذا لا يكاد السامع المتدبر المتذوق ، والقارىء الفطن ، يسمع آية أو يقرؤها ، وهى مختومة بغير ما نزلت به ، حتى ينكر ما سمع أو ما قرأ .

فقد سمع أعرابى قارئاً يتلو قوله تعالى [٤] : ﴿ فَإِنْ زَلَلْتُم من بعْدِ ما جاءَتْكُمُ البَيِّناتُ فاعْلَمُوا أنَّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ ﴾ تلاها هكذا

---

(١) من مقالة للدكتور أحمد الحوفى بعنوان (سجع القرآن فريد) : مجلة مجمع اللغة العربية ج ٢٨ نوفمبر ١٩٧١ م ص ٩٥ .

(٢) سورة المؤمنون : ١٢ — ١٤

(٣) الإتقان فى علوم القرآن : السيوطى ٢/١٧٠ (مطبعة حجازى — القاهرة ١٣٦٨ هـ) .

(٤) سورة البقرة : ٢٠٩

﴿ فاعلموا أن الله غفورٌ رحيم ﴾ فقال الأعرابى : هكذا لا يكون ، إن كان هذا كلام الله فلا ، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل (١) ؛ لأنه أدرك ببديهته أن ختام الآية بالمغفرة والرحمة لا يناسب الزلل المتعمد بعد الوعيد والوعد ، وبعد بيان الشر والتحذير منه ، وبيان الخير والحث عليه ، وإلا كان اقتران الغفران بالزلل إغراء به ، وتهويناً من شأن العقاب (٢) .

وقال بعضهم : كنت أقرأ قول الله تعالى (٣) : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ ٱللهِ واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ فقرأته (والله غفور رحيم) وبجانبى أعرابى ، فقال : كلام من هذا ؟؟ فقلت : كلام الله ، قال : أعد ، فأعدت ، فقال : ليس هذا كلام الله ، فانتبهت فقرأت (والله عزيز حكيم) فقال الأعرابى : أصبت ، هذا كلام الله ، فقلت : أتقرأ القرآن ؟؟ قال : لا ، فقلت : من أين علمت ؟؟ فقال : ياهذا ، عز فحكم فقطع ، ولو غفر ورحم ما قطع !!

وسواء أصحت هذه الروايات أم لم تصح ، فإنا نشعر هنا بما بين الفاصلة والآية من ارتباط قوى لا ينفصم ؛ إذ يشتد تمكنها فى مكانها ، حتى إن الآية لتوحى بها قبل نطقها ، كما رأينا فى الأخبار السابقة ، وكما نرى مثلا فى الآيات التى تنتهى بوصفه سبحانه وتعالى بالحكمة ؛ حيث نجد فيها ما يطلب هذا الوصف بعينه ويناسبه ، ويرتبط به .

ولنأخذ من هذه الآيات قوله تعالى (سورة البقرة ٢/٢٢٠) :

---

(١) البيان والتبيين : الجاحظ ٢/٣٣٩ (طبعة السندوبى – القاهرة ١٩٢٢ م) والإتقان للسيوطى ٢/١٧٠ .

(٢) سجع القرآن فريد (الحوفى) ٩٩

(٣) سورة المائدة : ٣٨

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَامَى ، قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ، وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ، وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ، فالمقام مقام تشريع وتحذير ، وهو يستدعى عزة المحذر ، وحكمة المشرع .

وقوله تعالى (سورة البقرة ٢/٣١ – ٣٢) : ﴿ وَعَلَّمَ آدمَ ٱلْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلائكَةِ فَقَالَ : أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُواْ : سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ، فالمقام مقام تعليم ، وهو نعمة يمنحها الله من يشاء ، ويحرم منها من يشاء ، فناسب ذلك وصفه تعالى بالعلم والحكمة .

وقوله تعالى (سورة آل عمران ٣/٦) : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فالتفرد بالألوهية ، والتصرف المطلق فى اختيار ما يشاء ، ثم تصوير الجنين على صورة خاصة ، كل ذلك يستدعى وصفه سبحانه وتعالى بالعزة والحكمة .

وهذا التناسب بين مضمون الآية وختامها فى القرآن محقق فى كل موضع منه ، فلا قلق أو اضطراب أو إكراه للكلمات فى مواضعها طلباً للسجع [1] .

فالسجع القرآنى يمتاز عن السجع الذى ألفه العرب من وجوه ، عجز بلغاؤهم عن محاكاتها ، وانقطعت بلاغتهم دونها ، نوجز منها هنا :

أن كل سجعة فى القرآن نازلة فى موضعها ، ملائمة لموقعها ، بريئة من التكلف ، يطلبها المعنى فتنهض به خير نهوض ، فلا نقص ولا زيادة ولا تكرار ، لضرورة السجع .

---

(١) للاستزادة ، انظر : من بلاغة القرآن ص ٧٧

بعد هذه اللمحة الموجزة عن السجع القرآنى ، وما امتاز به عن السجع المألوف عند العرب ، نعود لنقول : اختار القرآن نظام الموازنة والفواصل [١] .

ويقصد بالموازنة : أن تكون الكلمات الأخيرة من الآى على وزن واحد ، مثل : سميع ، عليم ، بصير ، قدير ... إلخ ، وبالفواصل : أن تتفق تلك الكلمات فى الوزن ، كما تتفق أواخرها فى الحرف ، مثل : صدرك ، وزرك ، ظهرك ، ذكرك .. إلخ .

ولا يخفى ما فى ذلك من إيقاع موسيقى ، تتعدد ألوانه ، ويتناسق مع مقامات الكلام ، فيؤدى وظيفة أساسية فى البيان ، فضلا عما فيه من إرضاء الأذن العربية ، التى ألفت موسيقى الشعر .

ويحرص القرآن الكريم على هذا النسق الموسيقى ، الذى يلاحظ دائماً فى بناء النظام القرآنى ، فى السور القصار والطوال ، على درجات متفاوتة .

وملاحظة اتزان الإيقاع الموسيقى فى الآيات والفواصل القرآنية ، تبدو واضحة فى كل موضع ، وعلى نحو من الدقة يثير الدهشة حقاً .

ومن دلائل هذه الدقة ، أن يعمد القرآن إلى العدول عن الصيغة القياسية للكلمة إلى صيغة خاصة ، أو أن يبنى النسق على نحو يختل إذا حدث فيه تقديم أو تأخير ، أو عدل أدنى تعديل ، كل ذلك تحقيقاً للانسجام الموسيقى بين الفواصل .

فنأخذ مثلا ، قوله تعالى [٢] :

---

(١) راجع مزيدا من التفصيل فى هذا النظام فى : أثر القرآن فى تطور النقد ٣٦٩ وما بعدها .

(٢) سورة الشعراء : ٧٥ — ٨٢

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدونَ * أَنتُمْ وَآباؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ * ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِى يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ .

فقد اختلست ياء المتكلم فى كل من (يهدين – يسقين – يشفين – يحيين) حتى يتفق إيقاعها الموسيقى مع (تعبدون – الأقدمون – العالمين) قبلها .

ولا يفوتنا أن ننبه إلى الدقة فى استخدام الفعل فى هذه الآيات ، فقد عبر القرآن عن الخلق بالفعل الماضى (خلقنى) وعما عداه بالفعل المضارع ، لأن الخلق لا يحدث إلا مرة واحدة فى حياة الإنسان ، وأما الهداية ؛ والإطعام والشفاء من المرض فهى متكررة فى حياته ، ومعلوم أن الفعل الماضى يدل على حصول الحدث ولا يفيد استمراره ، أو تكراره ، بخلاف الفعل المضارع الدال على ذلك .

ويلاحظ أن القرآن لم يتقيد دائماً بالوزن الواحد ، والفاصلة الواحدة ، من أول السورة إلى آخرها ، فهو يميل إلى وزن معين يختاره ليسيطر على الجو الموسيقى للسورة ، ثم يورد الفواصل متفقة مع هذا الوزن ، ولكنه لا يتعسف ، بل ينوع الفواصل أو الأوزان ، إذا اقتضت ذلك أجواء الكلام ومعارضه [1] ، نرى هذا – مثلا – فى سورة (ق) وفى سورة (الطارق) .

---

(١) ذهب الدكتور طه حسين إلى أن اتحاد الفواصل أو تعددها فى السورة الواحدة من سور القرآن ، يخضع لأمور ، أهمها : نزول السورة جملة أو منجمة ، فالسورة التى نزلت جملة ، تتحد فواصلها ، وتتداعى موضوعاتها تداعياً شديداً ، والتى نزلت منجمة تتعدد فواصلها ، وتختلف موضوعاتها ، أما الأستاذ سيد قطب فيرى أن تعدد الفواصل فى السورة الواحدة قد يعنى تعدد الموضوعات ، أو الانتقال من غرض إلى آخر ، كما يعنى تغير =

ففى السورة الأولى : نرى أن الأسلوب يمزج بين الفواصل والموازنة ، مزجا حرا ، يجرى مع الطبع ، ويبعد عن التكلف ، فالوزن السائد فى السورة هو وزن (فعيل) و (فُعول) والفاصلة الغالبة مبنية على حرف (الدال) ولكنها تبدو وتختفى ، وتحل محلها مفردات أخرى ، لا يربطها بها إلا الوزن .

وقد يتغير الوزن والفاصلة فى السورة الواحدة ، كما نرى فى السورة الثانية : فقد تأتى الفواصل على وزن (فاعل) مع تنوع الحرف الذى تبنى عليه هذه الفواصل ، فيكون (قافا) مثل : الطارق – دافق . أو (راء) مثل : قادر – ناصر – أو (باء) مثل : الثاقب ، وقد تأتى الفاصلة على وزن آخر مثل (فَعْل) مع حرف (العين) مثل : الرجع – الصدع ، أو (اللام) مثل : فصل – الهزْل ، وقد تأتى على غير هذين الوزنين الغالبين ، وهكذا تتنوع الفواصل فى السورة تنوعاً يجمع بين تحقيق قيم الجمال الموسيقى ، والبراءة من الرتابة .

ونظام الموازنة والفواصل ، الذى يشيع فى أسلوب القرآن ، يأتى متلاحقاً متدفقاً فى السور المكية القصيرة ، التى نزلت فى أوائل الدعوة ، والتى قصد بها التأثير على المخالفين ، ففيها تقصر الجمل – كما قدمنا .

أما فى السورة المدنية ، حيث اتجه القرآن إلى التشريع ، بعد أن استقرت الدعوة – نوعاً ما – وخفتت أصوات المعاندين ، واحتيج إلى مجادلة اليهود ، وغيرهم من أهل الكتاب ، فإن الفواصل والموازنة بين آخر الآيات ، تأتى متباعدة ، تعوزها الكثرة والتدفق ؛ لطول الآيات من ناحية ، وميلها إلى الانفعال الهادىء من ناحية أخرى ، ولكنها فى كل حال لا تتخلى عن الإيقاع ، الذى قد يتوارى قليلا أو كثيراً ، إلا أنه يظل ملحوظاً دائماً .

= الموقف الانفعالى من حيث الشدة واللين ، ولكنه يعترف أن هذا ليس مطرداً فى كل الحالات . لمزيد من التفصيل انظر : مرآة الإسلام ١٠٦ – ١٨٩ ، والتصوير البيانى فى القرآن ٨٣ – ٨٨

(د) لمحة عن أسلوب القرآن فى التصوير البيانى :

ونختتم هذه اللمحة الموجزة عن أسلوب القرآن ، بالإشارة إلى أسلوب شائع آخر فى النسق القرآنى ، أو كما يقول عنه بعض الباحثين : « الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن » (١) ، ونعنى به أسلوب التصوير البيانى (٢) .

وأسلوب التصوير البيانى فى النسق القرآنى ، ليس مجرد حلية من حلى الأساليب ، ولا فلتة من فلتات البلاغة ، تقع حيثما اتفق ، وإنما هو منهج مقرر ، وخطة موحدة ، وأداة للتعبير مقصودة ، ومحسوبة بدقة ، تقاس فيها الأبعاد والمسافات بالمشاعر والوجدانات ، وهى إلى جانب هذا خصيصة شاملة ، وأسلوب معين يستخدم بطرائق شتى ، وفى أوضاع مختلفة ومعارض متعددة .

والمتتبع لهذا الأسلوب فى الأداء القرآنى ، يقف على ظاهرة عجيبة حقاً ، تملأ النفس روعة ، وتوقفها على سر من أسرار الإعجاز فى تعبير القرآن .

فللقرآن الكريم أسلوبه الخاص فى انتقاء أدوات التصوير وتنويعها ، ودقة استخدامها ، فهو يصور باللون ، وبالحركة ، وبالإيقاع ، وأحياناً بالوصف والحوار ، وجرس الكلمات ، ونظم العبارات ، وموسيقى السياق ، وقد تتعاون بعض هذه الطرائق على تصوير الموقف ، أو الحادثة ؛ لتبرزها متعة تتملاها العين والأذن ، والحس والخيال ، والفكر والوجدان ، وهى فوق كل

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن ٢٩ .

(٢) فى مقدمة ما اعتمدنا عليه فى دراسة هذا الأسلوب : القرآن والتفكير (الحوفى) ١٧ — ٨٦ ، والتصوير الفنى فى القرآن (سيد قطب) ٢٩ وما بعدها .

هذا منبعثة من المواقف ، متساوقة مع الأحداث ، ملائمة تماما لما توحى به هذه المواقف والأحداث من انفعالات .

أما ظاهرة الشيوع فى استخدام التصوير البيانى فى الأداء القرآنى ، فهى حقيقة مؤكدة ، يدركها كل قارىء فى القرآن ، له إلمام بهذا الأسلوب الفنى ، وشاهدنا على ما نقول هو القرآن كله ، حيثما شاء أن يعبر عن معنى مجرد ، أو صفة معنوية ، أو نموذج إنسانى ، أو حادثة واقعة ، أو قصة ماضية ، أو مشهد من مشاهد القيامة ، أو حالة من حالات النعيم والعذاب ، وحينما يريد ضرب المثل فى جدل أو محاجة ، أو سوق الدليل على وجود الله ووحدانيته وقدرته ، أو يقرب صورة البعث إلى الأذهان ، أو يكشف عن حقائق يجب ألا يشك فى صدقها عاقل ... أو غير ذلك ، مما قد نعجز عن مقاربة جملته فصلا عن حصره .

ولن يطيق المقام هنا إيراد الأمثلة والنماذج ، لكل ما ذكرنا من ألوان التصوير البيانى فى القرآن وأغراضه ، فذلك مطلب تفرد له الدراسات ، وتقتصر عليه ، لا تتجاوزه .

وحسبنا بعض الأمثلة القليلة ، نلفت بها النظر إلى هذا الأسلوب القرآنى :

١ - القرآن الكريم يمقت الرياء ، ويحذر منه باعتباره داء من أدواء الخلق ، ورذيلة من رذائله ، تشين الإنسان ، وتحبط ثواب أعماله عند الله .

وفى القرآن كثير من الصور التى تعبر عن موقفه من هذا الخلق ، وتكشف عن نتائجه .

من ذلك قوله تعالى [١] :

---

(١) سورة البقرة : ٢٦٦

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ ، فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ !! كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلآيَاتِ ، لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

فالآية تصور حال من عمل أعمالاً طيبة ، لا يقصد بها وجه الله تعالى ، وإنما يرمى إلى غرض من أغراض الدنيا ، كحسن الأحدوثة بين الناس ، أو كسب منزلة مرموقة بينهم ... فإذا بأعماله هذه تكون وبالا عليه ، وتبرز الآية هذه الصورة بتمثيلها بحال من يحوز حديقة ذات خصب ونماء ، ماؤها غزير ، وظلها ظليل ، وثمرها كثير ، وقد أظلته الشيخوخة فأقعدته وأوهنته ، وله أبناء صغار ضعفاء ، فهو فى أشد الحاجة إلى غلة حديقته ، ولكنه فى هذه الحال ينظر فإذا حديقته رمادا تذروه الرياح ، فقد أصابتها صاعقة (الرياء) فأحرقتها ، كما أتى الرياء على ثواب عمل نظيره فأبطله ومحاه .

٢ — ومن ذلك عاقبة الصدقة تبذل رياء ، وتتبع بالمن والأذى ، فإنها لا تثمر ثواباً ، ولا تعقب قبولا عند الله والناس ، فبذلها وعدمه سواء .

يصور القرآن الكريم هذا المعنى الذهنى ، فى قوله تعالى (١) :

﴿ يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَى كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ ، فَتَرَكَهُ صَلْدًا ، لَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ﴾ .

---

(١) سورة البقرة : ٢٦٤

هنا نتخيل هيئة صخرة صلبة مستوية ملساء ، عليها قليل من التراب ، يصيبها مطر غزير ، فلا تهتز لها تربة ، ولا تستجيب فتخصب ، كما تهتز التربة الصالحة وتستجيب ، بل ينزاح عنها السيل حاملا معه ترابها القليل ، ويتركها صلداً ، لا يرجى منها أى خصب أو نماء .

وينبغى أن نلتفت إلى الدقة البالغة فى التعبير بلفظة (وابل) ، وقيمته فى إبراز مدى اليأس من توقع النماء والخصوبة من هذه الصخرة ؛ لاستحالة ذلك مع هذا الوابل ؛ لهذا آثر القرآن هذه الصورة من صور المطر (فأصابه وابل) ولم يقل (مطر) أو (ماء) مع أن القليل منهما كاف لإزالة ما فوق الصفوان من تراب خفيف .

٣ – على أن لصورة الصدقة وجهاً آخر ، وهو وجهها المقابل للصورة السابقة ، وجه خير مشرق مثمر ، عامر بالخير والخصوبة ، يعبر عنه القرآن – عقب الصورة السابقة – فى صورة أخرى [1] :

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ، كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ... ﴾ .

فالصدقة هنا غيرها هناك ، تلك بذلت رئاء الناس ، وهذه ابتغاء مرضاة الله ؛ ولذا اختلفت العاقبتين ، واختلفت تبعاً لذلك عناصر الصورتين .

هى هنا كالجنة ، وهناك كحفنة من تراب ، وهى هنا جنة فوق ربوة تزيدها خصباً ونماء وبهاء ، وهناك تراب على صفحة صفوان .

والوابل عنصر مشترك بين الصورتين ، ولكن شتان بين أثره هنا ، وأثره هناك ، هو هنا يربى ويخصب ، وهناك يمحو ويمحق ، هو هنا يصيب

---

(١) سورة البقرة : ٢٦٥

الجنة ، فتهتز تربتها ، وتؤتى أُكلا مضاعفاً ، أما هناك فلا أُكل ، ولا أمل فى مجرد الإنبات ، فضلا عن الأُكل .

وفى الصورتين – وفى التصوير القرآنى كله – تناسق عجيب مدهش ، يبدو فى تماثل الجزئيات ، وفى توزيع هذه الجزئيات ، ودقتها فى تمثيل المعنى المصور .

فالصفوان قد غشى بطبقة رقيقة من التراب ، وهو مثل للنفس الشريرة تغشيها الصدقة المبذولة رياء ، فالرياء ستار رقيق ، ووراءه قلب شرير غليظ ، والمناسبة بين الجنة فوق الربوة ، والنفس الخيرة ، والقلب العامر بالخير ، لا تخفى على من له حظ من الفطنة ، والذوق الفنى .

٤ – وهاك لوناً آخر من التصوير ، فى غرض آخر ، يمثل صورة العالم الجاحد ، الذى لا يعمل بعلمه ، ولا ينتفع به فى سلوكه ، فقد هيئت له المعرفة والهداية ، ولكنه يتخذ إلٰهه هواه ، فيهبط به إلى درك الجهل ، وكأن المعرفة لم تهيأ له قط ، فيظل مطارداً بهموم نفسه ، وأثقال هواه ، فلا هو استراح بالغفلة ، ولا استراح بالمعرفة :

فلنتأمل هذه الصورة الدقيقة الرائعة (١) :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَٱنسلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ ٱلغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفعناهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى ٱلأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ ؛ فَمثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ، أَو تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ، ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا .. ﴾ .

فالصورة تحقق غرضاً دينياً ، بتمثيل هذا العالم الجاحد بالكلب ،

(١) سورة الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦

قذارة وحقارة ، كما تحقق غرضاً فنياً بالتشخيص ، وبالحركة ، وبإيراد صورة معهودة للكلب الذى يلهث دائماً ، طورد أم لم يطارد ؛ ليكون تثبيت المعنى المراد من ورائها أشد وأقوى .

ولا يخفى مافى الصورة من تناسق دقيق بين المعنى والعبارة عنه ، ومن تنوع فى وسائل التصوير ، حتى اللفظة تؤدى دورها فى الصورة بدقة عجيبة ، كما نرى فى (انسلخ - لرفعناه - أخلد - يلهث) .

وهكذا يتعانق الغرض الدينى مع الغرض الفنى فى هذه الصورة ، وفى كثير من الصور القرآنية .

ونبرز هذه الدقة التصويرية أيضا فى قوله تعالى (سوره الجمعة ٦٢/٥) : ﴿ مَثَلُ الَّذِين حُمِّلُوا التّوراةَ ثم لم يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الحِمارِ يَحْمِلُ أسفارًا بئسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِين كذّبوا بآياتِ الله ﴾ .

فالقرآن هنا لا يكتفى بذكر المشبه به ؛ لإبراز صورة المشبه ، بل يقيد المشبه به بالوصف المناسب (يحمل أسفارا) حتى تبدو الصورة دقيقة واضحة أخاذة ، فقد يتراءى لنا أنه يكفى فى التصوير هنا أن يقال : مثلهم كمثل الحمار الذى لا يعقل ، ولكن الصورة تزداد قوة والتصاقا والتحاما حين يقرن بين هؤلاء وقد حملوا التوراة ، فلم ينتفعوا بما فيها ، وبين الحمار يحمل أسفار العلم ، ولا يدرى مما ضمته شيئا ، فتمام الصورتين يأتى من هذا القيد ، الذى جعل الصلة بينهما قوية وثيقة .

وقد يعتمد القرآن على الإيحاء النفسى فى تركيب الصورة ، واختيار عناصرها ، وأداء وظيفتها التأثيرية المطلوبة .

فالمعلوم أن التعبير بالصورة إنما يأتى لخدمة المصوَّر (المشبه) إبرازاً له ، وتوضيحا ، وهذا المصور قد يكون معقولا فيجسمه التصوير ،

أو محسوسا فيزيده إيضاحا وإبرازا ، وهذا كله يقتضى أن يكون المصور به (المشبه به) معلوما مدركا بالحس أو بالعقل ، حتى يمكن أن يؤدى وظيفته فى التصوير ، وهى إيضاح المشبه .

ولكننا نجد فى القرآن تصويراً يستوى فيه طرفا الصورة من حيث الجهل بكل منهما ، فكلاهما مجهول لا ندركه بحس ولا عقل ، وذلك كقوله تعالى فى وصف شجرة الزقوم وثمرها (سورة الصافات ٣٧/٦٤ - ٦٥) : ﴿ إِنَّهَا شجرةٌ تَخْرُجُ فى أَصْلِ الجَحِيمِ طَلعُهَا كأَنَّه رُءُوسُ الشَّياطِينِ ﴾ .

فنحن لم نر طلع شجرة الزقوم ، ولا رءوس الشياطين ، سواء رؤيا محسوسة أو معقولة ، ولكن القرآن يعتمد هنا ؛ لكى تؤدى الصورة وظيفتها فى التأثير ، على ما رسخ فى وهم النفوس من صورة للشياطين بشعة مرعبة ، وهذا الإيحاء النفسى هو الذى يحدث التأثير المطلوب من مثل هذه الصورة التى لا شك تؤثر تأثيراً بالغا ، فتلقى فيها قدرا هائلا من الفزع والرهبة .

وقريب من هذا الأسلوب فى التصوير القرآنى ، قوله تعالى عن عصا موسى (سورة النمل ٢٧/١٠) : ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهتَزُّ كأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدبِرًا ﴾ .

فالمشبه به مجهول ، وهو الجان ، لا يعرفه موسى ، ولكن الخيال الإنسانى قد احتفظ للجن بصورة خارقة للطبيعة ، وبعض جوانب هذه الصورة تمثل الجان شديد الحركة ، لا يكاد يهدأ أو يستقر ، وعلى هذا الإيحاء اعتمد القرآن فى تكوين هذه الصورة الدقيقة .

ونقف عند هذا الحد من عرض النماذج والأمثلة لأسلوب التصوير البيانى فى النظم القرآنى ، وهو وإن لم يكن وافياً بالغرض ، فهو - على الأقل - بمثابة علامة على طريق الإعجاز القرآنى فى هذا الأسلوب .

وإعجاز القرآن بعد هذا كله شىء يشعر به القلب والوجدان ، وتمتلىء به النفس ، ويذعن له الضمير ، ويعجز عن وصفه وتحديده القلم واللسان .

هذه لمحة سريعة لبعض الخصائص العامة للأسلوب القرآنى ، لم نقصد بها تفصيل القول فيه واستيفائه ، كما لم نقصد تتبع مواطن القوة والجمال ، ومظاهر الروعة والإعجاز فى هذا الأسلوب كله ، الحافل بشتى القيم الفنية البديعة ، وضروب الجمال الأدبى المختلفة ، فذلك مطلب عسير فى هذا المجال ، وحسبنا ما ذكرنا دليلا على أن القرآن الكريم واجه العرب بطراز رائع من القول ، ومثال بديع من أمثلة الكلام ، وبفنون مختلفة من الأساليب ، تضافرت فأدهشتهم ، وحيرت أفهامهم .

وجملة القول : أن القرآن الكريم ارتفع باللغة العربية وأساليبها إلى المستوى الأنوف ، ونشرها فى الآفاق ، وخلع عليها رداء الخلود ، ومن هنا كان تأثيره فى آدابها على مر العصور .

وقد أقبل صحابة رسول الله ﷺ على القرآن ، وأصبح همهم حفظه وتلاوته صباح مساء ، وحرص الرسول وخلفاؤه على نشر القرآن بين المسلمين ، فكانوا يرسلون إلى كل جهة أحد القراء الحفاظ ؛ ليقرىء الناس القرآن ، ويعلمهم دينهم ، فشغل المسلمون بالقرآن ، وفرغوا له كثيراً « فكان دعاؤهم فى المسجد ، ونظامهم فى البيت ، ومنهاجهم فى العمل ، ودستورهم فى الحكومة ، فسرى هديه فيهم مسرى الروح ، ونزل وحيه منهم منزلة الطبع ، وأثر فى ألسنتهم وأفئدتهم ... ما لم يؤثره كتاب سماوى آخر فى أهله » (١) .

نعم ، كان القرآن أمامهم المثل الحى ، وموطن المحاكاة والتقليد ، فى كل ما يحاولون من كلام ، أو يريدون من مقال ، ينسجون على غرار بلاغته العالية ، ويقتبسون منه ، ويرصعون كلامهم بآياته .

فإلى أى مدى تأثروا به فى لغتهم وأسلوبهم ؟ فى نثرهم وشعرهم ؟ هذا ما سنحاول استكشافه من خلال دراستنا لأدبهم فى الفصول التالية .

---

(١) تاريخ الأدب العربى : أحمد حسن الزيات ٦٠ (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٣٥ م) .

الباب الأول

النثر فى عهد النبوة والراشدين
فنونه – خصائصه

الفصل الأول

أقوال الرسول

تبين لنا مما سبق أن الإسلام وكتابه الكريم ، قد أثرا تأثيراً خطيراً فى مختلف نواحى الحياة العربية ؛ فقد جاء الإسلام بدين جديد ، وعقيدة جديدة ، أخذت بيد العرب إلى حضارة روحية سامية ، حافلة بالمثل التى تحدثنا عنها آنفا .

كما كان القرآن نموذجاً رفيعاً للفصاحة والبلاغة العربية ، غنياً بألوان الجمال الأدبى ، ومن شأن ذلك أن يوجه الحياة الأدبية للعرب وجهة جديدة ، يتجلى فيها التعبير الفنى الواضح عن أغراضه ومعانيه .

لقد فتح الإسلام أمام المسلمين أبواباً جديدة لفن القول ، تدور حول الدفاع عن دعوته ، والدعاية لها ، والحث على نصرتها ، وحفز العزائم والهمم للجهاد والغزو ؛ لنشر تعاليمها ، ومقاومة خصومها ودحرهم ... فانبعثت من خلال ذلك كله نهضة أدبية ، كان للقرآن الكريم الفضل الأول فى توجيهها ، وتهذيبها ، كما كان لأقوال الرسول ﷺ ورسائله ، وخطبه ، ورسائل خلفائه وأصحابه وخطبهم أثر كبير فى تقويمها وتطويرها .

— ١ —

ماذا نعنى بأقوال الرسول ؟؟

يطلق المسلمون على كل ما أثر عن الرسول كلمة (الحديث) ، ويراد بها ما ورد عن الرسول ﷺ من : قول ، أو فعل ، أو تقرير .

ولا يعنينا هنا تناول الحديث من الناحية الفقهية أو التشريعية ؛ فلذلك علماء قد تخصصوا فى دراسته ، وأتقنوا بحثه ، وإنما نقصد إلى الدراسة الفنية لهذه المجموعة الأدبية الخطيرة ، التى وضعها علماء العربية وآدابها فى المقام الأعلى بعد القرآن الكريم .

ولهذا فإن ما يهمنا فى مجال دراسة أساليب النثر النبوى وخصائصه ، هو ما ورد عن الرسول ﷺ مسنداً إليه قوله ، وهو ما أسميناه (أقوال الرسول) ، أما ما ورد من أقوال الصحابة ، يحكى فعلا من أفعاله ، أو حالا من أحواله ، أو شأناً من شئون الدين أو الدنيا ، استفادوه من خلال معاشرتهم إياه ، فلا يدخل فى نطاق هذه الدراسة .

– ٢ –

مشكلتان فى الدراسة الأدبية للنثر النبوى :

تعترض الدارس للنثر النبوى الشريف مشكلتان :

إحداهما : مشكلة تمييز الصحيح من الموضوع ، من الأقوال المسندة إلى الرسول ، فقد تأخر تدوين الحديث إلى ما بعد القرن الأول الإسلامى [١] ، ويرجع ذلك إلى أن الرسول نفسه لم يحرص على تدوين ما نطق به من غير القرآن ، بل يقال : إنه نهى عن تدوينه ، خشية أن يختلط بالقرآن ، وتابعه الصحابة على ذلك ، حتى إن عمر بن الخطاب استشار أصحاب الرسول ﷺ فى تدوين الحديث فأشار عليه عامتهم بتدوينه ، فلبث شهراً يستخير الله فى ذلك ، شاكا فيه ، ثم أصبح يوماً فعدل عن فكرة تدوينه ، وقال للصحابة [٢] : « إنى كنت ذكرت لكم من كتابة

---

(١) راجع فى تدوين الحديث فى عهد الرسول وبعده : فجر الإسلام (طبعة الاعتماد – الطبعة الثالثة) ١/٢٢٤ – ٢٦٢

(٢) فجر الإسلام : ٢٦٠

السنن ماقد علمتم ، ثم تذكرت ، فإذا أناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً ، فأكبوا عليها ، وتركوا كتاب الله ، وإنى والله لا ألبس كتاب الله بشيء » .

وقد ترتب على تأخر تدوين الحديث ، أن استباح قوم لأنفسهم وضع الحديث ، ونسبته كذباً إلى رسول الله ﷺ ، وكان المجال مهيئاً لهذا الوضع فى الصدر الأول بعد وفاة الرسول ؛ لكثرة الفتن السياسية والحزبية والمذهبية ؛ ولظهور التعصب للجنس بين طوائف من المسلمين ، عرب وغير عرب ؛ ولميل بعض الزهاد والقصاص ، الذين كانوا يجلسون لوعظ الناس مرغبين مرهبين ، إلى الاستكثار من أحاديث الفضائل والترغيب والترهيب ، وإضافة كثير منها إلى النبى ، ترغيباً فى فضائل الأعمال ، وتنفيراً من سيئاتها ، دون أن يجدوا حرجاً فى أن يضيفوا إلى النبى ما لم يقل ، ما داموا لا يريدون إلا النصح للمسلمين ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر والنبى أول ناصح للمسلمين ، وأول آمر بالمعروف ، وناه عن المنكر ، فكل أمر بالخير ، أو نهى عن الشر ، يمكن عند كثير من القصاص أن يحمل على النبى (١) ، وغير ذلك من دواعى وضع الأحاديث ، التى نجدها فى بعض كتب الحديث والأدب واللغة .

وقد عالج علماء الحديث هذه المشكلة ، بالاهتمام بالنظر فى الحديث ونقده ، وتمييز صحيحه من زائفه ، عن طريق البحث فى رواته ونقدهم ؛ لمعرفة منزلة كل راو من حيث الصدق والكذب ، أو الانحراف عن العدالة فى السيرة ، أو ضعف الذاكرة ، أو قلة التثبت مما يروى ، أو الأخذ عمن لا يصح الأخذ عنه ... ونحو ذلك ، مما يعرف فى علم الحديث بنقد السند ، أو الجرح والتعديل .

---

(١) مرآة الإسلام ٢٣٧

وترتب على هذا المنهج رفض آلاف من الأخبار والأقوال المنسوبة للرسول ، فقد أثبت الإمام محمد بن إسماعيل البخارى فى صحيحه أربعة آلاف حديث هى التى صحت عنده من ستمائة ألف قول وخبر ، ونحو ذلك فعل الإمام مسلم بن الحجاج فى صحيحه ، ويقول ابن خلدون (١) : « واعلم أن الأئمة المجتهدين ، تفاوتوا فى الإكثار من هذه الصناعة (يعنى رواية الحديث ونقده وتدوينه) والإقلال ، فأبو حنيفة ، يقال بلغت روايته إلى سبعة عشر حديثا ، ومالك إنما صح عنده ما فى كتاب الموطأ ، وغايته ثلاثمائة حديث أو نحوها » .

بيد أن هذا المنهج لم يكن كافياً تماماً فى نقد الحديث ، والتمييز بين الصحيح منه والزائف ، بل أصبح لزاماً على دارسى النثر النبوى الاستعانة بالنظر فى نص الحديث ، وشكله اللغوى والإنشائى ، ومدى مسايرته للعقل والمنطق ، ومطابقته لروح عصره وثقافته ، وبراءته من النزعات السياسية والمذهبية ، وموافقته لما جاء فى القرآن وما ألف من سيرة النبى وعمله ، حتى يطمئن إلى أن ما بين يديه من نصوص أقوال الرسول يمكن أن يعد وثائق صحيحة يعتمد عليها فى دراسة النثر النبوى .

وقد يكون من المفيد إيراد طائفة من الأحاديث ، التى ينبغى على الباحث تجنب أمثالها ؛ لمخالفتها المنهج النقدى المتعلق بمتن الحديث :

١ — ينسب إلى عبد الله بن عمر أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن العربية كلام أهل الجنة ، والعربية كلام أهل السماء ، وكلامهم إذا وقفوا بين يدى الله عز وجل فى الموقف » (٢) .

ففضلا عما فى هذا الخبر من تكرار غير مفيد ، يبعده عن روح البلاغة النبوية ، فإنه واضح الدلالة على مناهضة الشعوبية ، أو هو على الأقل من قبيل الدعاية للغة القومية للعرب .

---

(١) المقدمة ٤٤٢ (مطبعة التقدم — القاهرة ١٣٢٩ هـ) .

(٢) التاريخ الكبير (ابن عساكر) ٨٢/٢ (طبعة الشام ١٢٢٩ هـ) .

٢ – ما يروى من أن الرسول قال : « الخلافة فى أمتى ثلاثون سنة ، ثم ملك بعد ذلك » [١] فإنه وليد نزعة سياسية مناهضة لحكم بنى أمية ، وإنكار لحق الأمويين فى الخلافة .

٣ – ومما نسب إلى الرسول ﷺ : « لكل أمة مجوس ، ومجوس أمتى الذين يقولون لا قدر ، إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم » [٢] ، فهو انتصار للقدرية ضد فرقة الجبرية ، أى أنه وضع فى الخصومة بين هاتين الفرقتين .

٤ – ومن ذلك : « لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه ... » [٣] ، فهو مناهض لأصل من أصول العقيدة الإسلامية ، وهو وجوب الاعتقاد فى الله وحده ، وأنه هو الضار والنافع .

٥ – ومن ذلك ما ينسب إلى الرسول ﷺ أنه قال [٤] : « إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه » ، فلما عرض هذا القول على عائشة أم المؤمنين (رضى الله عنها) أنكرته ، وقالت : اقرءوا قول الله عز وجل : ﴿ ولا تزر وازرة أخرى ﴾ ، أى أن عائشة أنكرت أن يصدر هذا القول عن الرسول ؛ لأنه يعارض نصا قرآنيا صريحا ، وليس معقولا أن يصدر عنه ما يناقض حكما قرآنيا [٥] .

---

(١) تيسير الوصول إلى جامع الأصول (ابن الديبع الشيبانى) ٣٢٢/١ (مصر ١٣٣٠ هـ) .

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٨٦/٢ (المطبعة الميمنية – القاهرة ١٣١٣ هـ) .

(٣) المرجع السابق ، وانظر فى كل هذه الأحاديث الموضوعة : اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة (السيوطى) المكتبة التجارية الكبرى – القاهرة بلا تاريخ .

(٤) مرآة الإسلام ٣٣٨

(٥) ومع هذا فالحديث فى ضمن الأحاديث الصحيحة التى رواها البخارى فى صحيحة ، وللعلماء فيه تأويلات وروايات منها ماذكره الذهبى فى (كتاب الكبائر ص ٢٠٢ طبعة الرياض ١٩٧١ م) حيث عدّه من الأحاديث الصحيحة ثم ذكر أنه ليس على ظاهره وإطلاقه بل هو مؤول واختلف العلماء فى تأويله على أقوال ، أظهرها – والله أعلم – أنه محمول على أن يكون له سبب البكاء ، إما أن يكون قد أوصاهم به ، أو غير ذلك . ا.هـ

٦ – ومنه : « لو كان الرز (كذا !!) رجلا لكان حليما ، ما أكله جائع إلا أشبعه » . ولا يخفى ما فيه من سماجة ، وإثارة للسخرية ، مما لا يليق بمقام الرسول الكريم .

ونكتفى بهذا القدر للتدليل على أهمية نقد متن الحديث ، على ضوء الأسس التى أشرنا إليها ؛ لتمييز صحيحه من زائفه .

والمشكلة الأخرى : هى ما أثاره بعض العلماء القدماء ، من أن ألفاظ الحديث وعباراته لا يمكن القطع بأنها هى بعينها ألفاظ الرسول ﷺ ، وعباراته ؛ وذلك لجواز رواية الحديث بالمعنى ، لما كان لفظه ليس مقدسا كلفظ القرآن .

وقضية رواية الحديث بلفظه أو بمعناه ، أثارت جدلا طويلا بين علماء العربية ، واحتج كل فريق لمذهبه فيها ، وليس مما يعنينا هنا ، أن نفصل القول فى هذه الآراء والحجج [١] ، غير أننا نشير إشارة موجزة إلى ما بين أيدينا من أقوال ، تدل على مدى تشدد القوم فى إجازة الرواية بالمعنى .

من ذلك قول ابن الصلاح فى مقدمته [٢] : « ينبغى لمن يروى حديثاً بالمعنى أن يتبعه بأن يقول : « أو كما قال » « أو نحو هذا » وما أشبه ذلك ، من الألفاظ التى تدل على تشكك الراوى فى أن لفظة أو أكثر ليست من

---

(١) انظر – مثلا – فى هذه الآراء والحجج : جامع الأصول فى أحاديث الرسول (مجد الدين بن الأثير) ٥١/١ وما بعدها (مطبعة السنة المحمدية – القاهرة ١٩٥٠ م) ، ومقدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث ص ٥٩ وما بعدها (طبعة بومباى ١٣٥٧ هـ) ودراسات فى العربية وتاريخها (محمد الخضر حسين) ١٦٨ – ١٧٧ (طبعة دمشق ١٩٦٠ م) ، وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية (الرافعى) هامش ص ٣٥٧ – ٣٥٩ (مطبعة الاستقامة – القاهرة ١٩٥٢ م) .

(٢) ص ١٠٦

كلام الرسول ، روى ذلك عن الصحابة ، عن ابن مسعود ، وأبى الدرداء ، وأنس ، رضى الله عنهم ، قال الخطيب : والصحابة أرباب اللسان ، وأعلم بمعانى الكلام ، ولم يكونوا يقولون ذلك إلا تخوفاً من الزلل ؛ لمعرفتهم ما فى الرواية على المعنى من الخطر » .

كذلك يذكر ابن الصلاح : أنه مما يشهد على شدة حرصهم على لفظ الرواية ، أن أكثر الأشياخ كانوا إذا وجدوا فى الرواية لحناً نقلوها كما وصلت إليهم ، ولا يغيرونها فى كتبهم .. وقد وقع ذلك فى الصحيحين والموطأ وغيرها (١) .

كما يذكر ابن خلدون : أن التشدد فى ضبط ألفاظ الحديث ، والتحرى فى نقلها بأعيانها كان شائعاً بين الرواة (٢) .

ويروى ابن قتيبة فى كتابه : (تأويل مختلف الحديث) كثيرا من الأخبار ، التى تدل على حرص الصحابة ، ومن روى عنهم ، على رواية الحديث بنصه الذى سمع من الرسول ﷺ (٣) .

وإذن ، فيمكننا أن نقول : إن أقوال الرسول ﷺ التى يمكن استخلاصها بعد تطبيق المنهج النقدى السابق ، تمثل لفظ الرسول وأدبه ، عن طريق غلبة الظن ، المفضية إلى الاطمئنان النفسى ، إلى أن أكثر ألفاظ هذه الأقوال وعباراتها مما تلفظ به الرسول ﷺ ، ونحن نكتفى بغلبة الظن فى دراسة ما نقل إلينا من إنتاج أدبى عن القدماء ؛ حيث لا يمكن القطع بأن هذا الذى وصل إلينا هو نص ما قاله أدباؤهم ، بدليل وجود الروايات

---

(١) مقدمة ابن الصلاح : ص ١٠٩

(٢) دراسات فى العربية ١٧١

(٣) انظره ص ٨٨ – ١٠٣ (طبعة الكردى – القاهرة ١٣٣٦ هـ) .

المختلفة للنص الواحد ، فينبغى أن نكتفى بغلبة الظن أيضاً فى الدراسة الأدبية للحديث الشريف ، بل هو أولى للتشدد الذى ذكرناه فى روايته ، والذى لم ترتفع الرواية الأدبية إلى حده ، بالإضافة إلى ما عرف به أهل الصدر الأول من الحفظ والإتقان .

– ٣ –

مكانة النثر النبوى :

تعد أقوال الرسول فى قمة النصوص الأدبية المروية عن عهد النبوة ، بعد القرآن ، فصاحة وبلاغة ؛ لما عرف به الرسول ﷺ من أنه كان أفصح العرب ، وأن فصاحته كانت توفيقاً من الله وتوقيفا ؛ لأنه سبحانه ابتعثه للعرب ، وهم قوم تنقاد أرواحهم لألسنتهم ، فيقادون من ألسنتهم ، وقد وصف الرسول ﷺ نفسه بالفصاحة ، فقال : « أنا أفصح العرب ، بيد أنى من قريش » وقال : « بعثت بجوامع الكلم » [1] ، وكثيراً ما أدهش أصحابه بفصاحته ، فيروى أن أبا بكر قال له يوما [2] :

« لقد طُفتُ فى العرب وسَمعتُ فصحاءَهم ، فما سمعت أفصحَ منكَ ، فمن أدّبك (أى علمك) ؟؟ فقال الرسول : أدّبنى ربّى فأحسنَ تأديبى » .

لذا جاءت أقوال الرسول ﷺ ممثلة للبلاغة الإنسانية فى قمة بيانها ، ليست وليدة الصنعة والمعاناة ، وإن بدت فى إتقانها وعلو طبقتها كأنها مصنوعة ، ولم يتكلف لها وهى على سهولتها ممنوعة ، بعيدة المنال .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان (محمد فؤاد عبد الباقى) ١١٤/١ (طبعة الحلبى – القاهرة ١٩٤٩ م) .

(٢) تاريخ آداب العرب (الرافعى) ٣٠٩/٢

نعم ، هى : « ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه ، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه ، فهى إن لم تكن من الوحى ، ولكنها جاءت من سبيله ... محكمة الفصول ... محذوفة الفضول ... إن خرجت فى الموعظة قلت أنين من فؤاد مقروح ، وإن راعت بالحكمة قلت صورة بشرية من الروح ، وإذا أراك القرآن أنه خطاب السماء للأرض أراك هذا أنه كلام الأرض بعد السماء ... (١) وهما بعد ذلك كأنهما سواء فى سهولة الإطماع ، وصعوبة الامتناع » .

من هنا كان لما أثر عن النبى ﷺ من قول انعكاس واضح على مجالات اللغة والأدب والثقافة .

نعم ، كان تأثير البلاغة النبوية قوياً فى أدب هذا العصر ، وبخاصة فى باب النثر الفنى ، وعلى الأخص فى ميدان الخطابة ، حيث أمدت الخطباء بالماعون القوى ، والمدد الفياض ، فتمثلوها ، وحذوا حذوها ، وحاولوا تقليدها ، باقتباس ألفاظها وأساليبها ، وموافقة معانيها وأغراضها ، وسوق الأدلة والبراهين على غرارها ، كما أكثروا من الاستشهاد بنصوصها فى ثنايا كلامهم .

ولسنا فى هذا الحديث نلقى الكلام على عواهنه ، ونطلق الأحكام جزافا ، منبعثة عن عواطف المحبة والإجلال للرسول الكريم ، فها هى ذى أقواله ﷺ بين أيدينا شاهد صدق على ما ذكرنا ، وذكر غيرنا من قبلنا ، ممن تذوق حلاوة البلاغة النبوية ، وأدرك سر تفوقها ونبوغها ، من أمثال : أبى عثمان الجاحظ ، الذى يقول عن كلام النبوة :

« هو الكلام الذى قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (الرافعى) ٣١٢

الصنعة ، ونزه عن التكلف ... استعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصور فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن الهجين السوقى ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وهذا الكلام الذى ألقى الله المحبة عليه ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام ، وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ... ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين فى فحواه من كلامه ﷺ » (١) .

ولكى تطمئن القلوب والعقول معاً ، إلى صدق ما حدثنا به ورويناه ، عن أقوال الرسول ﷺ ، كان لا بد لنا أن نحتكم إلى أذواقنا ، ومقاييس البلاغة والجمال فى لغتنا ، فى طائفة من أقواله ﷺ فى شتى الأغراض ؛ لنقف من خلال ذلك على بعض مجالى هذه البلاغة النبوية .

وقد حرصنا على اختيار هذه الأقوال ، من جملة ما اتفق على روايته وضبط سنده صاحبا الصحيحين (البخارى ومسلم) ؛ لتكون بريئة من الطعن ، خالية من الشوائب ، واضحة الدلالة على أنها من صحيح ما روى عنه ﷺ ، يدعو به إلى فضيلة ، أو ينهى عن رذيلة ، أو يقرر حكما ، أو يسوق حكمة ، أو يعالج أمراً من أمور الدين أو الدنيا .

* * *

---

(١) البيان والتبيين (طبعة السندوبى) ٢/١٤ – ١٥

– ٤ –

دراسة نماذج من النثر النبوى :

قال الرسول ﷺ : « لَوْ أنَّ لابْنِ آدمَ مِثل وادٍ مالاً لأحَبَّ أنَّ لهُ إليهِ مِثْله ، ولا يَمْلأُ عَينَ ابْنِ آدَمَ إلّا التُّراب ، ويَتُوبُ اللهُ عَلى مَنْ تابَ » (١) .

فانظر كيف يتدسس الرسول فى النفس البشرية ؛ ليكشف عما ركز فى طبعها ، وغرس فى جبلتها من حب المال والحرص عليه ، والتهالك على طلبه ، والتطلع الدائم إلى المزيد منه !! وتأمل تعبيره الرائع عن غريزة الطمع ، والضراوة فى جمع المال ، حتى لا تقنع عينه بأى قدر منه مهما كثر ، فيستهلك صحة بدنه ، وسنى عمره فى طلب هذا العرض الزائل ، مع أن حفنة يسيرة من التراب الذى لا قيمة له ولا خطر ، تملأ هذه العين وتفيض !! .

بيد أن الرسول الكريم – وهو الرحمة المهداة من الله إلى عباده – يرشد الإنسان إلى ما يخلصه من إسار المال ، وذل استعباده النفوس ، ويأخذ بيده إلى باب الرحمة والخلاص ، الذى إن ولجه فى صدق وإخلاص استرد راحة نفسه ، ورضا قلبه ، وفاز بمغفرة ربه وتوفيقه ، فيقول : « ويتوب الله على من تاب » فمن قاوم هذا الطبع الذميم ، وجاهد نفسه فيه ، وغلبها على هواها ، يسر الله عليه التوبة والبراءة من الطمع ، ووفقه فيها ، وقبلها منه .

وعبارة الرسول بعد هذا تؤدى هذه المضامين ، وتوحى بأكثر منها ، على قلة ألفاظها ، وبراءتها من الغموض والكزازة والحشو ، وسهولة بيانها ، وعلو فصاحتها ، فهى لا تتكلف القول ، ولا تقصد إلى تزيينه ، وتنساب مع ذلك لتعبر عن إلهام النبوة ، ونتاج الحكمة ، وغاية العقل ، بحيث يصدر الكلام وليس فوقه مقدار إنسانى من البلاغة والتسديد ، وبراعة القصد .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان ٢٥١/١

ومن هذا الباب ما روى عن حكيم بن حزام أنه قال : « سألت رسول الله ﷺ فأعطانى ، ثم سألته فأعطانى ، ثم سألته فأعطانى ، ثم قال :

« يا حَكيمُ !! إنَّ هذا المال خَضِرَةٌ حلْوَةٌ ، فَمَنْ أخَذَهُ بِسَخاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فيه ، ومنْ أخَذَهُ بإشرافِ نَفْسٍ لَمْ يُبارَكْ لهُ فيهِ ، كالذى يأكُلُ ، ولا يَشْبَع ، اليدُ العُليَا خيرٌ من اليدِ السُّفلى » (١) .

فقد لاحظ الرسول الكريم أن السائل يلحف فى السؤال ، ويوشك أن يتخذ من المسألة بابا للارتزاق ، فأراد أن يرشده بهوادة ولين ، إلى أن ذلك لا يليق بالمسلم ، فالإسلام دين العزة والكرامة ، وهو يريد للإنسان المسلم ألا يريق ماء وجهه فى طلب المال ، صونًا لكرامته ، وعزة نفسه .

والرسول فى إرشاده الحكيم ، حريص على غرس الخلق الإسلامى فى المسلمين ، عن طريق الإقناع ، مستغلا هذا الموقف من حكيم بن حزام ، وقد سلك فى ذلك طريقين : أولهما : الإبانة عن مدى إغراء المال للإنسان ، وشدة تأثيره فى اجتذاب النفوس ، وقد أبرز هذا المعنى فى صورة قوية معبرة ، جسمته للعيون ، وقربته إلى الأفهام ، بعقد مشابهة بين المال والثمرة اليانعة الناضجة ، فكما أن هذه الثمرة تستهوى النفوس ، وتحرك الرغبة فى نيلها والاستزادة منها لحلاوتها ، كذلك المال يفتن النفوس ، فيضعف مقاومتها أمام سلطانه ؛ لأنه زينة تبهر ، وكما أن نهم الإنسان فى تناول الثمر اليانع يكون وبالا على صحة بدنه كذلك حرصه على طلب المال ، والجرى وراء إغوائه ، فيه الخطر كل الخطر على صحة نفسه وكرامته ، بل إنسانيته ؛ إذ ينقلب عبداً للمال ، وكم أذل الحرص أعناق الرجال !!

---

(١) اللؤلؤ والمرجان ٣٤٧/١ . إشراف النفس : ارتفاعها وتطلعها ، والمراد هنا شدة الحرص على الطلب ، اليد العليا : مجاز ، والمراد : المعطى ، اليد السفلى : مجاز ، والمراد : السائل .

ولكن المال مع ذلك من المقومات الهامة فى الحياة ؛ إذ هو من الدعائم الهامة التى ترتكز عليها معايش الناس فى هذه الحياة الدنيا ؛ ولذا نرى الرسول ﷺ يرسم المنهج الصحيح ، الذى ينبغى أن يلتزمه المسلم فى سعيه وراء المال ، حيث يوجه السائل إلى أن طلب المال غير محظور ، إذا تخلى الإنسان عن الطمع والحرص والإلحاح فى الطلب ، وبذلك يبارك الله له فيما أصاب منه ، وبهذه البركة يغدو قليله كثيراً ، مع وفرة الكرامة ، والحفاظ على العزة ، والتمسك بالثقة فى الله ، الذى يرزق ويبارك فى الرزق لمن يشاء ، أما التهالك على طلب المال وجمعه فإنه يورث المذلة ، ويطبع النفس على الجشع ، ويحرمها نعمة الرضا ، فهى دائماً فى طلب المزيد ، لا يقنعها قدر منه مهما كثر ، تماماً كالذى يأكل ولا يشبع .

والآخر : ذلك الحكم الدامغ الذى أوجزه الرسول فى آخر الحديث ، حيث نفّر من المسألة ، بجعل المعطى فاضلا ، موفور الكرامة ، ممتعاً بالعزة ، وعلو المكانة ، وهو بذلك يكون خيراً من السائل .

وهكذا تتجلى البلاغة النبوية ، قدرة فائقة على الإيحاء بالمعانى وإثارتها ، فى غزارة وثراء ، بألفاظ قليلة ، وعبارات موجزة محكمة ، خالية من الفضول ، بعيدة عن تكلف الزخرف ، بريئة من معاناة الصنعة ، ومع ذلك فهى تحوى من قيم الجمال الفنى ، وروعة التصوير ، ما يجعلها جديرة باحتلال القمة فى عالم البيان ، ويكفى أن نلاحظ هذا التنوع فى الأسلوب بين الحقيقة والمجاز ، وهذه الدقة ، وذلك الوضوح فى تركيب عناصر الصورة الأدبية ، بحيث تنفذ إلى القلوب ، فتحدث أثرها المطلوب ، فى العقل والوجدان معاً ، كل ذلك مع حس لغوى ممتاز فى اختيار اللفظ ، ووقوعه موقعه ، ومناسبته لمعناه ، بحيث لا يغنى عنه سواه ، نرى هذا – مثلا – فى التعبير بكلمة (سخاوة) ووضع كلمة (إشراف) فى مقابلتها ، وكذلك فى المقابلة بين (العليا) و (السفلى) ، ثم انظر إلى حذفه الموصوف فى قوله :

« خضرة حلوة » ليطلق لخيالنا العنان ، فيذهب فى تخيل العنصر المحذوف من الصورة كل مذهب .

ولعلنا قد لاحظنا أن هذين النصين من أقوال الرسول ﷺ يعالجان موضوعا واحدا تقريبا ، يدور حول وجوب مقاومة هوى النفس فى جمع المال ، والرغبة فى الاستزادة منه ، وعدم القناعة بأى قدر منه مهما كثر .

ولما كان المقام مقام توجيه ، وإرشاد وتهذيب ، فإن الأسلوب فى هذين النصين يميل إلى الهدوء واللين ؛ إذ كان القصد اجتذاب النفوس إلى الاستجابة إلى هذا الإرشاد الحكيم ، عن طريق التأثير فى الوجدان ببعض العبارات والصور ، التى من شأنها أن تحقق هذا التأثير ، مع إقناع العقول بصواب هذا الهدى النبوى .

من مثل قوله ﷺ فى النص الأول : « ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب » فإنه يقوم مقام الدليل والبرهان على بطلان الطمع والجشع فى طلب المال ، وعدم جدواهما فى تحقيق سعادة الإنسان نفسيا ، وصحيا ، واجتماعيا .

كما تقوم الصورة فى النص الثانى : « كالذى يأكل ولا يشبع » بوظيفة هامة فى تأكيد هذا المعنى وإبرازه وتجسيمه للعيان والأفهام .

وفى قوله ﷺ ، « إن هذا المال خضرة حلوة » صورة دقيقة توحى بما للمال من سطوة قوية فى إغواء النفوس ، ودفعها إلى التهالك على طلبه ، والتهافت على جمعه وتثميره ، وهى بكشفها عن هذه الحقيقة ، وترسيخها فى القلوب والعقول إنما تنبه إلى خطر هذا الإغواء ، وتحذر من الاستجابة إليه ، وتدعو إلى شحذ الإرادة لمقاومته ، وهكذا تتعاون العبارات والصور ، وصولا إلى التأثير فى القلوب ، وإقناع العقول ، بما يتطلبه المقام من هدى وإرشاد .

هذا هو الطابع العام للأسلوب فى النصين السابقين ، فى مقام التبصرة والتهذيب ، إلى جانب ما سبق أن أشرنا إليه ، من ميل العبارة إلى الإيجاز ، واللفظ إلى السهولة ، والمعانى إلى الوضوح مع البعد عن تكلف الصنعة لزخرفة الكلام .

والقول فى هذا الباب يطول ، فيكفى ما قدمنا منه ، ولننتقل إلى حقل آخر من حقول المعانى والموضوعات التى غزاها الأدب النبوى .

قال ﷺ : « والذى نَفْسى بِيدِهِ ، لقدْ هَمَمْت أنْ آمُرَ بِحَطَبٍ فَيُحْطب ، ثمَّ آمُرَ بالصلاةِ فَيُؤذَّن لها ، ثم آمر رجُلا فيَؤمَّ النَّاس ، ثم أخالِفُ إلى رجال فأُحرِّق عَلَيْهم بُيوتَهُم ، والذى نَفْسى بِيدِه ، لو يَعْلَمُ أحَدُهُم أنه يَجِدُ عَرقاً سَمِيناً ، أو مِرماتَيْنَ حَسَنَتَيْنِ لَشَهِدَ العِشاء » (١) .

فالمقام مقام زجر وتهديد ، لطائفة من الناس ، كانوا يتخلفون عن أداء الصلاة لوقتها مع الجماعة فى المسجد ؛ ولذا نجد الأسلوب يأخذ طابع الشدة والعنف ، ويصطنع لذلك الوسائل الفنية المناسبة للمقام ، من اختيار الألفاظ الموحية بمعانى التهديد والوعيد ، وبعواطف الغضب والضيق والسخط ، والعبارات المؤكدة لكل ذلك ، والمعبرة عنه من مثل : (والذى نفسى بيده) وهو قسم عظيم ، يكرره زيادة فى تأكيد ما أراد من معان ، ومثل (أخالف فأحرق) مع ما فى تضعيف الفعل ، من قوة زائدة فى أداء المعنى عن الفعل (أحرق) ثم هذه السخرية المرة ، والتأنيب الموجع لهؤلاء الذين يؤثرون عرض العاجلة ، مهما كان تافهاً حقيراً على ثواب الآجلة .

هذا ، على أن للرسول الكريم من الابتكار فى اللغة ما أحدث به

---

(١) اللؤلؤ والمرجان ١/ ١٠ . العرق . بقيه اللحم ، المرماتان : ما بين ظلف الشاة من اللحم .

جديداً من الاستعمال فى بعض المفردات والتراكيب ، ومن هذا الباب هنا هذا التركيب الجديد فى القسم (والذى نفسى بيده) .

وقال ﷺ : « مَن كانتِ الدنيا همَّهُ وَسَدَمه (طَلِبَتهُ) جعلَ الله فقراً بين عَينيْهِ » (١) .

أى من جعل متاع الدنيا وزخرفها ولذائذها شغله الشاغل ، فاشتغل بذلك عن العمل لآخرته ، والتزود لها ، عاقبه الله بأن يزيده فقر نفس ، فلا تسد مفاقرة كثرة ما جمع وعدّد ، وعظيم ماثمّر ، فكأنه يرى الفقر بين عينيه فهو أبدا خائف من الوقوع فيه ، والانتهاء إليه ، فلا يزال آكلا لا يشبع ، وشارباً لا ينقع ، فمعه حرص الفقراء ، وله مال الأغنياء .

ولله ما أروع قوله : « جعل الله فقراً بين عينيه » فى إبراز المعنى بالمبالغة فى وصفه بتصور الفقر ، فكأنه جد قريب منه ، غير غائب عنه .

ومن ذلك قوله ﷺ للشارب والطاعم فى آنية الذهب والفضة : « إنّما يُجَرجِرُ فى بَطنِهِ نارَ جَهَنَّم » (٢) .

جعل النبى ﷺ جرع الإنسان الماء والتهام الطعام ، فى هذه الأوانى المخصوصة ، لوقوع النهى عن الشرب والطعام فيها ، واستحقاق العقاب على استعمالها ، كمن يجر فى بطنه ناراً ، وقال (يجرجر) طلباً لتضعيف اللفظ الدال على تكثير المعنى ، والمراد : كأنما يتجرع نار جهنم ، تغليظا للوعيد .

---

(١) المجازات النبوية (الشريف الرضى) ص ٩٦ الحلبى – القاهرة ١٩٥٥ م) . أخرجه ابن ماجه بنحوه فى سننه عن زيد بن ثابت فى كتاب الزهد باب الهم بالدنيا ١٣٧٥/٢ هـ ط عيسى الحلبى بمصر .

(٢) أخرجه البخارى عن أم سلمة بلفظه فى كتاب الأشربة ، باب آنية الفضة ٩٦/١٠ فتح البارى طبعة السلفية بمصر ، وأخرجه مسلم عن أم سلمة بلفظه فى كتاب اللباس والزينة باب تحريم استعمال أوانى الذهب والفضة ٢٧/١٤ صحيح مسلم بشرح النووى ط دار الفكر بيروت ١٩٨١ م .

ومن باب الحكمة والنظرة الصائبة :

قوله ﷺ : « حُبُّكَ الشَّىءَ يُعْمِى ويُصِمْ » (١) .

وهى كلمة يعالج بها الرسول داء من أدواء النفس الإنسانية ، كثيراً ما يودى بها ، وهو الغفلة والانسياق مع الهوى ، فالإنسان إذا أحب الشيء أغضى عن مواضع عيوبه ، كأنه لا ينظرها ، وأعرض عن الملاوم والمعاتب من أجله ، كأنه لا يسمعها ، فصار من هذا الوجه كالأعمى لتغاضيه ، والأصم لتغابيه .

وعبارة الرسول هنا أجود وأقوى وأدق فى التعبير عن المعنى من قول الشاعر : (٢)

وعيْن الرضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ ولكنَّ عَينَ السُّخْط تُبدِى المَسَاوِيَا

حيث اقتصر البيت على حاسة البصر ، وجعلها ضعيفة ، لا ممحاة ، كما فى قول الرسول ، وزاد النبى حاسة السمع ، فأتى على المعنى من أطرافه ، مع فضل الإيجاز فى العبارة .

وهناك طائفة أخرى من أقوال الرسول فى مختلف الأغراض والمعانى ، لا يتسع المجال هنا لدراستها وتحليلها ، نورد منها - فوق ما ذكرنا - بعض ما يدخل فى باب « جوامع الكلم » .

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننة عن أبى الدرداء بلفظه فى كتاب الأدب ، باب فى الهوى ٣٣٤/٤ طبعة دار إحياء السنة النبوية بيروت ، كما أخرجه أحمد فى مسنده عن أبى الدرداء بلفظه ١٩٤/٥ ط المكتب الإسلامى بيروت .

(٢) البيت ضمن أبيات فى ديوان الشافعى بتحقيق محمد عفيف الزغبى ص ٩١ ط بيروت ١٩٧١ [ولا أظنها للشافعى] . وهو لعبد الله بن معاوية فى زهر الآداب ٨٥/١ والحيوان ٤٨٨/٣ والكامل للمبرد ٢١٢/١ وعيون الأخبار ٧٦/٣

من ذلك قوله ﷺ : « الحياءُ لا يَأتِى إلا بخَيْرٍ » (١) .

وقوله : « ليسَ الغِنى عنْ كَثْرَةِ العرَضِ ، ولكنَّ الغنى غِنَى النِفس » (٢) .

وقوله : « المُسْلِمَ مَنْ سلِمَ المُسلمونَ مِن لِسانِه ويدِهِ » (٣) .

وقوله : « آفةُ العِلمِ النّسيان ، وإضاعَتهُ أن تُحدِّث به غير أهْلِهِ » .

* * *

(١) اللؤلؤ والمرجان ١/١٠

(٢) اللؤلؤ والمرجان ١/٢٥١

(٣) اللؤلؤ والمرجان ١/٢٠

نظرات فنية فى النثر النبوى

(أ) الأغراض والموضوعات :

١ - الإحاطة والشمول :

يستطيع الناظر فى أقوال الرسول ﷺ ، أن يدرك ما تمتاز به من إحاطة وشمول ، من حيث معالجتها لشتى الأغراض والموضوعات ، فى جوانب العقائد : (إلهيات ، نبوات ، مغيبات ... إلخ) والعبادات : (الصلاة ، الصوم ، الزكاة ، الحج ، الصدقة ... إلخ) ، وشئون الاجتماع : (المعاملات - الأسرة - الآداب والسلوك والتربية - العلاقات الإنسانية - تنمية الحس الجماعى - محاربة العادات والأدواء الاجتماعية الفاسدة) وضرورات الحياة : (المال - والشراب ، والطعام واللباس ... وغيرها) ونظم الحرب والسياسة ، والوصف ، والحكمة ، والمثل ، والوصايا والعظات ، والحكاية أو الأقصوصة ، وغيرها مما يندرج تحت الترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، والأمر والنهى ، والوعظ والزجر ، والتشريع والتقنين ، والتمييز بين الخير والشر ، والنفع والضر [1] ، والحلال والحرام ، إلى غير ذلك من الأمور الكثيرة ، التى من شأن صاحب الرسالة أن يضطلع بها ؛ ليسموا بالجوانب الروحية ، والمادية للإنسان .

٢ - التأثر بالقرآن الكريم :

ويلاحظ أن أقوال الرسول ﷺ متأثرة إلى حد كبير بأغراض القرآن وموضوعاته ، والقرآن - كما نعلم - بحر زاخر فى هذا الباب ؛ ولذا يقول الرسول الكريم :

---

(١) الضر : بالفتح وبالضم : ضد النفع ، وبالفتح فقط : مصدر ضر يضر .

« أُوتِيت الكتَابَ ، ومِثلَهُ معهُ » [١] يعنى السنن .

٣ - جدة الأغراض والموضوعات :

كما يلاحظ أن جملة كبيرة من هذه الموضوعات والأغراض ، تعد إضافة جديدة ثرية لمجالات القول ، التى طرقها العرب قبل الإسلام ، ولا عجب ، فقد جاء الإسلام - ممثلا فى القرآن والحديث - بكل ما يعالج شئون الإنسان فى حياته العاجلة والآجلة .

(ب) المعانى :

ارتياد حقول جديدة للمعانى :

يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال ، وقد كسا أسامة بن زيد قبطية [٢] ، فكساها امرأته ، فقال عليه الصلاة والسلام :

« إنى أخافُ أنْ تَصِفَ حَجمَ عِظامِها » [٣] .

وقد علق الشريف الرضى على هذا المعنى بقوله : « ... فكان رسول الله صلى الله عليه وآله أبا عذرة هذا المعنى ، ومن تبعه فإنما سلك نهجه ، وطلع فجه » [٤] .

وفيما قدمنا من نماذج ، شواهد أخرى من المعانى التى جاءت فى أقواله ﷺ ، وكان فاتق أكامها ، فاقتران الحياء بالخير ، وكون الغنى فى

---

(١) تأويل مختلف الحديث (ابن قتيبة) ص ٢٠٧ .
(٢) قبطية : بالضم على غير قياس : نسبة إلى قبط مصر (بالكسر) صانعوها ، وقد تكسر .
(٣) لم أقف عليه فى كتب الصحاح ، وانظر : المجازات النبوية ١٢٩
(٤) المرجع نفسه : العذرة : البكارة .

القناعة والرضا ، وعدم الحرص على المال والجشع .. كل ذلك وغيره ، مما تزخر به أقوال الرسول ، من المعانى التى جاء بها الدين الجديد لأول مرة .

وقد أشار بعض العلماء والنقاد ، القدماء والمحدثين ، إلى كثير من المعانى التى تعد بحق حقولا جديدة ، ارتادها الرسول ﷺ فى كلامه ، ولم يسبق إليها ، فكانت بذلك روافد ثرة ، أمدت العربية بثروة قيمة من المعانى المبتكرة ، غنمها من بعده أرباب اللسان والقلم ، وزينوا بها نتاج بلاغتهم .

ويكفى أن نلمح هنا إلى هذا الفيض من الأقوال ، التى بثها الرسول فى ثنايا كلامه ، وسارت من بعده مسرى الأمثال ، وهى فى جملتها معان جديدة ، ونظرات صائبة ؛ لأنها إلهام النبوة ، ونتاج الحكمة ، وغاية العقل .

من ذلك - على سبيل المثال :

« إن المُنبت لا أرضاً قَطع ، ولا ظَهراً أبقى - كل الصيد فى جَوف الفرا [1] - لا يُلدغ المؤمنُ من جُحر مرتّين - الأعمالُ بخواتيمها - إنَّ مما ينبتُ الربيعُ ما يقتل حَبطا [2] أو يُلِم - هدنةٌ على دَخن [3] - الجارَ قبل الدار ، والرفيقَ قبل الطريق » وغير ذلك كثير .

هذا فضلا عما استمده الرسول ﷺ من معانى القرآن الكريم ، المنبع الثر ، والمعين الذى لا ينضب ، وبخاصة المعانى العقدية ، والتشريعية ، والتى تتحدث عن الدار الآخرة وما فيها ، وهى فى جملتها لم تكن من المعانى المعروفة فى نظم الحياة الجاهلية قبل الإسلام .

---

(١) الفرا : حمار الوحش ، وكان من أفضل الصيد عند العرب ، والعبارة مثل يضرب للشيء الواحد يجمع فوائد جمة .

(٢) الحبط : وجع بطن البعير إذا أكثر من أكل الكلأ ، فينتفخ منه ، يضرب مثلا للإسراف فى الأمر الذى يؤدى إلى الضرر .

(٣) الدخن : الدخان ، ومعنى العبارة : إيقاف القتال لعلة ، لا لسعى فى الصلح ، أو رغبة فيه .

(جـ) اللفظ والعبارة :

كان الرسول ﷺ فوق كونه مشرعاً وهادياً ، ومعلماً ، أخلاقياً ، ومصلحاً دينياً واجتماعياً ، فناناً ملهم الحس ، مرهف الذوق ، دقيق الإدراك بمواقع الكلمات ، ووضعها فى بيئتها ، وائتلافها مع معانيها ، يتمتع بدرجة عالية من الحس اللغوى ، والمزاج الفنى .

أ - مناسبة الألفاظ للمعانى :

فى تحليلنا السابق لبعض أقواله ما يشهد لذلك ، ونأتى هنا بمزيد إيضاح لما امتازت به البلاغة النبوية ، من دقة فى اختيار اللفظ لمناسبة المعنى ، ووضوح الصلة بينهما ، وبراعة فى الملاءمة بين الكلام ومعانيه .

روى أبو هريرة أن رسول الله قال : « لا يدْخُل الجنةَّ مَنْ لا يَأمنُ جارُه بوائقه » (١) .

فمع إيجاز العبارة وفصاحتها ، نجد أن الرسول قد أجاد اختيار اللفظ المناسب للمعنى المراد ، كما فى إطلاق كلمة (بوائق) التى تحمل معنى الاغتيال والهلاك والفتك ، على ما يمكن أن يؤذى به الجار جاره ، من النظر إلى حريمه ، أو التجسس على أحواله ، أو نحو ذلك مما من شأنه إيذاء الجار .

ومن ذلك ما رواه أبو سعيد الخُدْرى أن رسول الله قال : « يُوشِكُ أنْ يكونَ خَيْرُ مالِ المُسْلم غَنَماً يَتَّبع بها شَعَفَ الجِبالِ ، ومواقعَ القَطْرِ ، يَفِرُّ بِدينِهِ من الفتن » (٢) .

فالتعبير بقوله : (يوشك) يدل على التوقع والقرب ، أى أن الفتن

---

(١) صحيح مسلم ٦٨/١ (بتحقيق محمد فؤاد عبد الباق - طبعة الحلبى - القاهرة ١٩٥٥ م) ، البوائق : جمع بائقة : وهى الداهية والفتك .

(٢) صحيح البخارى ٧/١ (طبعة القاهرة ١٩٣٢ م) ، وشعف الجبال : رءوسها .

متوقعة وقريبة ، وقد صدق ، فما هى إلا سنوات بعد وفاته ﷺ ، حتى اندلعت شر فتنة أصابت الإسلام ، وهى التى بدأت بالثورة على عثمان ، وأدت إلى قتله ، وافتراق الأمة شيعاً وأحزاباً .

ثم اختيار كلمة (يفر) التى توحى بصورة الفتن ، وقد أطبقت على المؤمن كأنها السجن ، فهو يجد فى الهرب منها ، فاللفظة دقيقة فى تعبيرها وإيحائها .

يضاف إلى ذلك ذكر (الغنم) خاصة ؛ لما فيها من توفر الحد الأدنى من العيش مع خشونته ، وإمكان الاستغناء بما تمده به من كساء وغذاء .

وتتجلى جودة التعبير عن المعانى أيضاً فى قوله ﷺ : « ... وَرَجُل تصدَّق بصدقةٍ أخْفاها ، لا تعلمُ شمالُه ما تنفقُ يمينُه » [١] .

فالمراد المبالغة فى صفته بكتمان نفقته ، وإخفاء صدقته ، فإذا كانت شماله لا تعلم بما تنفق يمينه ، وهى جارتها وقسيمتها ، ولصيقتها ، فأجدر ألا يعلم بذلك غيرها ، ممن شط داراً ، وبعد جواراً ، والعبارة تصور شدة الحرص على إخفاء الصدقة ، بطريق المبالغة التى لا تخرج بحد المعنى عن المراد ، مع إفهام المطلوب .

ب – ملاءمة الألفاظ بعضها لبعض :

الملاءمة بين الألفاظ سمة من سمات البلاغة النبوية ، لاحظناها عند دراستنا لبعض نصوص أقواله ، ونضيف هنا نموذجاً آخر لهذه الظاهرة :

---

(١) صحيح البخارى ٨٣/١ ، وصحيح مسلم ٧١٥/٢ . والعبارة قطعة من حديث مروى فيهما بتمامه .

روى أن رسول الله ﷺ قال : « مَن قالَ حينَ يُصبحُ لا إلهَ إلّا الله ، وحدهُ لا شَريكَ لهُ ، لهُ المُلكُ ولهُ الحمدُ ، يحيِي ويُميت ، وهو على كلِّ شيءٍ قدِير ، عشرَ مراتٍ ، كتبَ اللهُ له بكلِّ واحدةٍ عَشر حسناتٍ ، وحَطَّ عنهُ عشر سيِّئات ، ورفعه عشْر درجاتٍ وكُنَّ له مَسْلَحةً من أول نهاره إلى آخِرِه ، ما لَم يَعمل يومئذٍ عملا يَقهرهُنّ » (١) .

فإن الرسول لما أقام تلك الكلمات مقام السلاح (وكن له مسلحة) لقائلها ، جعل ما فى مقابلتها من إثم موبق بمنزلة القاهر لها ، ملاءمة بين صفحات الألفاظ ، ومزاوجة بين فرائد الكلام .

ومن ذلك قوله ﷺ : « الحَجَرُ يمينُ الله فمن شاءَ صافحهُ بها » (٢) .

فقد عبر عن طاعة الله والقرب منه بكلمة « اليمين » ، ثم جاء بكلمة « صافحه » المناسبة لليمين ؛ ليوفى الفصاحة حقها ، ويبلغ بالبلاغة غايتها .

وهكذا تمضى ألفاظ الرسول وعباراته ، خالية من حرف مضطرب ، أو لفظة مستكرهة مجلوبة لمعناها ، أو كلمة غيرها أتم منها فى أداء المعنى .

جـ - السهولة والبساطة والخلو من التعقيد والتكلف :

وتنساب الألفاظ والعبارات فى الأدب النبوى ، فترتاح لها الأسماع ، وتتقبلها الأفئدة بقبول حسن ، مع براءتها من تكلف الزخرف والصناعة

---

(١) المجازات النبوية ص ٢٨٦ . المسلحة : مجتمع السلاح الكثير ، يقهرن : أى يعمل ما يغلب إثمه على أجر هذه الكلمات .

(٢) المرجع نفسه ص ٢١٩ : الحجر : يريد الحجر الأسود بالكعبة . رواه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده عن جابر بلفظ : « الحجر يمين الله فى الأرض يصافح الله بها عباده » والحديث حسن وإن كان ضعيفا بحسب أصله . انظر : كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، للعجلونى ٤١٧/١ ط مكتبة التراث الإسلامى بحلب .

اللفظية ، التى يتعمد فيها السجع ، والازدواج ، وغيرها من قيم الجمال اللفظى ، التى تعرف بالمحسنات البديعية ، إلا ما جاء من ذلك عفو الخاطر ، بوحى من الفطرة والطبع ، دون تكلف له ، أو قصد إليه .

ومن هنا كانت السهولة والبساطة ، والخلو من التعقيد – فى اللفظ والمعنى على السواء – من السمات الفنية البارزة فى أدب الرسول ، متأثراً فى ذلك بآداب القرآن ، وبالطابع العام للإسلام ، دين اليسر ، والفطرة السمحة ، التى تكره التقعر والتعقيد ، فى الكلام ، وفى الحياة بعامة ، والمعروف عن الرسول أنه كان يحب اليسر فى كل أمره ، وأنه ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، وأنه كان يقول لأصحابه : إنما بعثتم ميسرين ، لا معسرين ، وأنه كان يكره الغلو حتى فى العبادة والدين ، فقد نهى عبد الله بن عمرو بن العاص عن صيام الدهر كله ، وقيام الليل كله ، واشتد عليه فى ذلك ، ذاكراً أن لجسمه عليه حقاً ، ولأهله عليه حقاً ، وأمره بالاعتدال فى العبادة [١] ، وقد انعكس هذا الميل إلى الاعتدال والبساطة على الأدب النبوى ، فكان على ما ذكرنا .

ولننظر فى قوله – ﷺ –: « خيرُ المال عينٌ ساهِرة ، لِعين نائمة » [٢] .

ففيه جناس بين (عين) الأولى ، والمراد بها عين الماء الجارية ليلا ونهاراً ؛ ولذا سماها ساهرة ، و (عين) الثانية ، وهى عين الإنسان ، كما أن فيه مقابلة وتضادا فى (ساهرة – نائمة) وفضلا عن هذه المحسنات ففيه استعارة فى (ساهرة) ولفظ السهر فى هذا الكلام لا يقوم مقامه غيره ، فى عقد المناسبة المعنوية بين الكلام ، ومع هذا ، فالكلام مرسل ، لا تحس فيه تكلفاً أو صنعة .

---

(١) انظر : مرآة الإسلام ٢١٧ ، ٢٨٥ .

(٢) لم أقف عليه فى كتب الصحاح ، وانظر : المجازات النبوية ٧٩

أ – دقة الصورة ووضوح تعبيرها عن المعنى :

وكما جاءت محسنات الكلام فى كلام الرسول عفو الخاطر ، كذلك وقعت صوره الفنية بعيدة عن التعمل والقصد والمعاناة ، تمتاز بدقة اختيار عناصرها ، وحسن الملاءمة بينها ، وجودة التعبير عن المعنى الذى سيقت من أجله .

من ذلك قوله ﷺ : « فإنَّ المُنْبتَّ لا أرضاً قطع ولا ظَهراً أبقَى » (١) .

فقد شبه عليه السلام العابد الذى يستفرغ قواه ، ويستنفد طاقته فى العبادة ، بالمنبت وهو الذى يغذ السير ، ويكد الظهر ، منقطعاً عن رفقته ، فتضعف مطيته ، ولا يقطع شقته ، فالعابد وعبادته ، والمسافر ومطيته ، عناصر الصورة ، والمناسبة بين طرفيها (المشبه والمشبه به) لطيفة الخيال ، والصورة فى أدائها للمعنى جيدة التعبير ، شديدة التأثير بالعظة التى أرادها الرسول ، مما جعل الشريف الرضى يقول عنها : « وهذا من أحسن التمثيلات ، وأوقع التشبيهات » (٢) .

وهناك العديد من أمثال هذه الصورة ، أشرنا إلى بعضها فى دراستنا السابقة للنماذج .

(ب) الجِدَّة والابتكار فى الخيال :

أما حظ الصورة الأدبية فى أقوال الرسول من الجدة والابتكار ، فقد فازت من ذلك بفيض من البراعة ، والتحليق فى أجواء جديدة ، من سماء الجمال والخيال ، ولنضرب لذلك مثلا قوله ﷺ :

---

(١) رواه البزار عن جابر بلفظ : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت ... » كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للعجلونى ١/٣٠٠

(٢) المجازات النبوية ص ٩٥ ، المنبت : الذى يجهد دابته فى السير فيقطع ظهرها .

« إيّاكم وخضراءَ الدِّمن » (١) .

فقد شبه الحسناء بالروضة الخضرة لجمال ظاهرها ، وشبه منبتها السوء بالدمنة لقباحة باطنها ، وهى صورة مبتكرة ، أبدعتها عبقرية الرسول ؛ لتكون أوقع فى النهى عن نكاح المرأة ، إذا كانت معيبة فى نفسها ، أو مطعوناً عليها فى نسبها ؛ لأن أعراق السوء تنزع إلى ولدها ، وتضرب فى نسلها .

ألا يحق لنا بعد هذا أن نقرر ماذكره بعض المحدثين (٢) فى حديثه عن الأسلوب النبوى ، وأنه : « مسدد اللفظ ، محكم الوضع ، جزل التركيب ، متناسب الأجزاء فى تأليف الكلمات ، فخم الجملة ، واضح الصلة بين اللفظ ومعناه ، واللفظ وضريبه فى التأليف والنسق ... » وأنه قد : « سلم من التعقيد والعى والخطل ... وسلمت وجوهه من الاستعانة بما لا حقيقة له ، من أصول البلاغة ، كالمجاز البعيد ، الذى يغوص إلى الأعماق الخيالية ، وضروب الإحالة ، وفساد الوضع المعنوى ، وفنون الصنعة ، وما إليها مما هو فاش فى كلام البلغاء ، يعين جفاء البداوة على بعضه ، ورقة الحضارة على بعضه ، وهو فى الجهتين باب واحد » .

وهناك ناحيتان فنيتان تنبغى الإشارة إليهما فى هذا المجال ، من الحديث عن ألفاظ الرسول وعباراته : إحداهما : ميل البلاغة النبوية إلى الإيجاز فى العبارة ، والأخرى : ما استحدثه الكلام النبوى من ألفاظ وتراكيب فى اللغة .

---

(١) المرجع نفسه ص ٦١ ، الدمنة ، الأبعار المجتمعة تركبها الرياح ويعلوها التراب ، فإذا أصلبها المطر أنبتت نباتاً خضراً يروق نظره ويسوء مخبره .

(٢) إعجاز القرآن (الرافعى) ٣٥٩ ، ٣٧٥

غلبة الإيجاز :

أما ميل البلاغة النبوية إلى الإيجاز ، فهو الطابع الغالب عليها ؛ وذلك لما منحه الرسول من كمال عقله ، وغلبة فكره على لسانه ، فقل كلامه ، وتنزه من الحشو ، وبرئ من شوائب الإطالة بما يجاوز مقدار القصد ، وأعرب عن ميله هذا فى قوله لرجل تكلم بحضرته فأطال :

« كَمْ دونَ لِسانِكَ مِن حِجابٍ ؟ فقال : شفتاى وأسنانى ، فقال له : إن اللهَ يَكرَهُ الانبِعاق (١) فى الكلام ، فنضَّرَ اللهُ وَجْهَ رجلٍ أوجَزَ فى كلامِهِ ، واقتَصرَ عَلى حاجَتِهِ » .

ومن دلائل إيثاره ﷺ الإيجاز فى المنطق قوله (٢) :

« ألَا أُخبرُكم بأَحَبِّكم إلىَّ ، وأقربِكُمْ مِنِّى مجالِسَ يومَ القيامةِ ؟ أحاسِنُكم أخلاقاً ، المُوطأُون أكنَافاً ، الذين يَأْلَفُونَ ويُؤْلَفون ، ألاَ أُخبرُكم بأبغَضِكم إلىَّ ، وأبعدِكم مِنِّى مجالسَ يومَ القيامة ، الثَّرْثارون المُتَفَيهِقونَ » .

فالرسول ﷺ يريد الصدق فى المنطق ، والقصد ، وترك ما لا يحتاج إليه ؛ ولذا قال أيضاً لجرير بن عبد الله البَجَلى :

« يا جرير ، إذا قُلت فأَوْجِزْ ، وإذا بَلَغْتَ حاجَتَك فلا تَتَكلف » (٣) .

---

(١) الانبعاق : الاندفاع فى الكلام ، وهو مظنة الخطأ ، وقلما سلم صاحبه من الزلل .

(٢) لم أقف عليه فى كتب الصحاح ، وهو فى الكامل (المبرد) ١/٣ (طبعة دار العهد الجديد بالخرنفش بلا تاريخ) ، الموطأون : دمثوا الأخلاق ، لينوا الجانب كرماء ، المتفيهقون : تفيهق فى الكلام : تنطع ، وتوسع فيه ، كأنه ملأ به فمه ، لأن أصله من فهق الإناء : امتلأ .

(٣) المرجع نفسه ١/٥

واجتماع كلام الرسول وقلة ألفاظه ، مع اتساع معناه ، والإبانة عن المعنى ، واستغراق أجزائه ، فى غير تعقيد ولا تكلف ، أمر لم يعرف فى العربية لغيره ﷺ ، بالقدر الذى عرف له ، خص به توفيقاً وتسديداً من الله ، الذى يخاطبه بقوله :

﴿ وعلمَك ما لم تكن تعلَم ، وكان فضلُ الله عليكَ عظيماً ﴾ .

من أجل هذا كثر فى كلامه ﷺ ما قل حروفه ، وكثرت معانيه من قبيل ما يعرف بـ « جوامع الكلم » وجاء من ذلك ما لا ترقى إلى سمائه بلاغة إنسانية ، إلا تلك البلاغة الملهمة ، بلاغة النبوة .

وقد مرت بنا نماذج من هذا الضرب فى أقوال الرسول ، سردناها سردا هناك ، ونقف هنا عند بعضها ؛ لننظر فيها بعين الدرس والتحليل ، فعسى أن نوفق إلى تجلية بعض مواطن الروعة فيها ، من ذلك قوله ﷺ : « كَفَى بالسلامَةِ داء » .

فتحت هذه الكلمات القليلة المبنى ، معان غزيرة ، لو بسطنا القول فيها لحبرنا صفحات ، وجملة معناها : أن السلامة تفضى إلى الأدواء القاتلة ، والأعراض المهلكة ؛ لأن طولها يؤدى إلى موت الشهوات ، وانقطاع اللذات ، وآفات الهرم ، وعوادى السقم ، فحسن من هذا الوجه أن تسمى داء ؛ إذ كانت مؤدية إليه ، موقعة فيه ، وقد أكثر الشعراء نظم هذا المعنى فى أشعارهم ، بيد أن كلمة النبى ﷺ أبهى من جميع ما قالوا ، وأبعد منزعا ، وأوجز فى تمام ، وأكثر إفادة مع قلة كلام .

فمما جاء فى هذا المعنى : قول حُميد بن ثَور الهلالى [1] :

أرَى بَصَرِى قد رابَنِى بعد صِحّة   وحَسبُك داءً أن تَصِح وتَسلَما

---

(١) ديوانه ص ٧ (طبعة دار الكتب المصرية ١٣٧١ هـ) ، والكامل المبرد ١/٢٨

وقول النَّمِر بن تَوْلَب (١) :

يَسُرّ الفتى طُول السلامة والبَقَا فكيفَ يَرَى طول السلامة يفعلُ

وقول لبيد بن ربيعة (٢) :

ودعوتُ ربّى بالسلامة جاهداً لِيُصِحَّنى فإذا السلامة داء

ومن ذلك قوله ﷺ فى الخيل : « ظُهُورُها حِرز ، وبطونُها كنز » .

أراد أن أصحابها ينتجونها من الأفلاء (جمع فلو وهو المهر بلغ السنة) ما تنمى به أموالهم وتحسن معه أحوالهم ، فهم باستيداع بطونها نطف الفحولة كمن كنز كنزاً ، إذا أراده وجده ، وإذا لجأ إليه ، دعم ظهره ، كما يكون الكانز عند الرجوع إلى كنزه ، والتعويل على ما تحت يده ، وظهورها حرز ؛ لأنها منجاة من المعاطب ، وملجأة عند المهارب ، فانظر كيف جمع الرسول فوائد الخيل فى السلم والحرب فى هذه الكلمات الأربع !!

ليس معنى هذا أن كلام الرسول قد قل فيه استخدام بعض أساليب البسط والتكرار ، فكثيراً ما كان الرسول يلجأ إلى مثل هذه الأساليب ، استجابة لدواع نفسية أو دينية ، أو نحوها ، كالذى نراه من تكرار عبارة : « من يؤمن بالله واليوم الآخر » إلى جانب كل أمر أو نهى فى قوله :

« مَن كانَ يؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فلا يُؤْذِ جارَهُ ، ومن كانَ يُؤمِنُ باللهِ واليوم الآخر فليُكْرِم ضيفَه ، ومن كان يؤمن باللهِ واليوم الآخر فَلْيَقُلْ خيراً أو لِيصْمُت » (٣) .

---

(١) الكامل للمبرد ١٢٨/١

(٢) ديوانه ، ملحق الديوان ٣٦١ (بتحقيق إحسان عباس – الكويت ١٩٦٢ م) وفيه خلاف فى نسبة البيت للبيد ، وهو فى الكامل للمبرد ١٢٨/١ منسوبا لبعض شعراء الجاهلية .

(٣) اللؤلؤ والمرجان ١١/١

وذلك ليؤكد أن ما أمر به ، أو نهى عنه من كمال الإيمان بالله واليوم الآخر ، بالإضافة إلى ما فى هذا التكرار من حث على امتثال أمره ، واجتناب نهيه .

أما ما استحدثه الرسول من فصيح الكلم فى اللغة ، فقد روى العلماء باللغة غير قليل منه ، وصرحوا بأنه لم يسبق إليه .

من ذلك قوله ﷺ فى يوم حُنيْن ، لما رأى مُجْتَلد المسلمين والمشركين ، واشتداد القتال : « الآن حَمِى الوطيسُ » (١) .

وروى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، أنه قال : « ما سمعت كلمة عربية من العرب إلا وقد سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وآله ، وسمعته يقول : مات حتف أنفه ، وما سمعتها من عربى قبله » (٢) وأمثال هذا كثير يطلب فى مظانه (٣) .

على أن هذه الملاحظة لا تقتصر على ابتداع التراكيب ، فقد وردت ألفاظ غير قليلة فى كلام النبى ﷺ لا يعرف لها علماء العربية شاهدا فى كلام العرب ، كما ترد بعض الألفاظ على وجه من الاستعمال ، لا يعرف إلا من كلامه ﷺ (٤) .

---

(١) لم أقف عليه فى كتب الصحاح ، وهو فى الأوائل (السيوطى) ٩ (طبعة المدينة المنورة ١٩٦٦ م) و مجمع الأمثال للميدانى ١٤٥/٢ (بولاق – القاهرة ١٣٢٠ هـ) . وانظر أيضاً ، السيرة لابن هشام ق ٤٤٥/٢ ، الوطيس : التنور ، يستعار للحرب ، والمعنى : اشتدت الحرب .

(٢) المجازات النبوية ٦١ وما ذكره الإمام على لا يعنى أن هذه العبارة لم تستعمل فى العربية قبل عهد النبى : فللسموءل بن عادياء الشاعر الجاهلى بيت يقول فيه :

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل

(ديوانه ص ١٣ نشرة عيسى سابا – بيروت ١٩٥١ م) .

(٣) انظر مثلا : إعجاز القرآن (الرافعى) ٣٤٥ – ٣٤٦ ، ٣٦٢ – ٣٦٥ .

(٤) انظر أمثلة لذلك فى : النهاية فى غريب الحديث (ابن الأثير) مادة : هرو ؛ ستر (المطبعة الخيرية – القاهرة – ١٣٢٢ هـ) ، وانظر أيضاً : دراسات فى العربية ١٦٧

ومن هذه الألفاظ على سبيل المثال : كلمة (أستاره) فى قوله :

« أيّما رجلٍ أغْلق بابَهُ على امرأتِهِ وأرْخى دُونَها أستارَهُ ، فقد تمَّ صَدَاقُها » .

فقد قال علماء اللغة والغريب : لم تستعمل (أستار) إلا فى هذا الحديث .

ومنها : كلمة (المخيلة) فى قوله لأبى تَمِيمة الهُجيْمِى : « إيَّاكَ والمَخِيلَةَ » .

فقال يا رسول الله نحن قوم عرب ، فما المخيلة ؟ فقال عليه السلام : « سبل الإزار » وسارت الكلمة على هذا الوضع يراد بها الكبر (١) . ومنها : كلمة (أفلج) استعملت استعمالا لا يعرف إلا فى الحديث ؛ حيث استعملت غير مضافة إلى الأسنان ، وعلماء اللغة يقولون : لا يقال رجل أفلج إلا إذا ذكر معه الأسنان .

نخلص من هذا كله إلى أن أسلوب الرسول فى أقواله بعامة ، أسلوب « لا يضطرب به الضعف ، ولا تزايله الحكمة ، ولا يجافيه الصواب ، بل يخرج رصيناً غير متهافت ، متسقاً غير متفاوت ، لا يغلب على النفس التى خرج منها بل تغلب عليه ، ولا تسترسل به المخيلة ، بل يضبطه العقل ، ولا يتوثب به الهاجس ، بل يحكمه الرأى ، تراه على استواء واحد ، فى شدة وقوة ، واندماج وتوثيق » (٢) .

---

(١) يبدو أن هذه اللفظة (المخيلة) لم تكن معروفة فى لهجة بنى هجيم ؛ لا أنها لم تكن معروفة فى اللغة العربية كلها ؛ بدليل ورودها فى قول امرىء القيس :

لعمرك ما إن ضربى وسط حمير ... وأقيالها إلا المخيلة والسكر

(٢) إعجاز القرآن (الرافعى) ص ٣٢٤

ويحتفظ أسلوب النبى بطابعه هذا ، ولا ينزل عن طبيعته فى البلاغة ، حتى وإن كان الكلام فى التشريع ، وتقرير النظر ، وتبيين الأحكام ، ونصب الأدلة ، وإقامة الأصول ، والاحتجاج لها ، والرد على خلافها ، وغير ذلك من الأغراض ، التى إن جنح إليها البليغ ، جاء بكلام نازل عن طبقة كلامه فى غيرها ، تقع فيه على اللفظ المستكره ، أو المعنى المستغلق ، أو السياق المضطرب ، والأسلوب المتهافت ، أو الصنعة التى لا روح فيها ؛ ولذا يتوخى البلغاء – عادة – الأغراض والمعانى التى يعذب فيها الكلام ويتسق القول ، وتحسن الصنعة ، مما يكون أكبر حسنه فى مادته اللغوية ، واتصاله بالعواطف البشرية .

وبين أيدينا أقوال الرسول فى أبواب الأعتقاد والتشريع والعبادة ، وليس فى أسلوبها مثل ما يقع للبلغاء إن دخلوا فى هذه الأغراض ، مع أنها قد جاءت خالية – غالباً – من وسائل تزيين الكلام ، لا يجاوز الرسول بعبارته فيها حد الإبلاغ عن المعنى الذى يريده ، غير أن المتذوق لأسلوبها كثيراً ما يسرى فى روحه الإحساس بالجمال ، فإذا ما ذهب يلتمس مواطن هذا الجمال فإنه قد يعجز عن التماسه فى ناحية بعينها من نواحى الأسلوب ، فيعود ممتلىء اليقين بأن هناك روحاً خفية ملهمة ، تنشر فيه الجمال ، وتنفث هذا السحر الحلال .

ولا يفوتنا أن نلاحظ تنوع الأساليب فى البلاغة النبوية ، بتنوع الموضوعات والمواقف ، واختلاف المقامات ، والأغراض ، فالدارس للأسلوب النبوى يجده مردداً بين أنماط كثيرة من الأساليب ، لكل منها غايته التى لا يصلح لها سواه ، من تفصيل بعد إجمال ، أو تفسير بعد إبهام ، أو توكيد بالتكرار ، أو إجراء الكلام على طريقة القص والحوار ... ، إلى غير ذلك من وسائل الأداء فى الأسلوب النبوى .

وبعد ، فإنما آثرنا أن نقف عند أقوال الرسول هذه الوقفة ، التى تبدو وكأنها قد طالت ؛ لما هالنا من إهمال علمائنا ونقادنا ، من قدامى ومحدثين ، لدراسة الحديث دارسة أدبية نقدية ، إهمالا يكاد يكون تاماً ، اللهم إلا ما كان من بعض شواهد الحديث التى نجدها متناثرة ، قليلة فى بعض كتب النقد والأدب القديمة ، كبديع ابن المعتز ، وبيان الجاحظ ، والصناعتين لأبى هلال ، ونحوها ، وهى عناية وقفت عند حد بيان بعض ما فى الحديث من ألوان البيان ، ولم نجد من بينهم من تناول الحديث فى دراسة أدبية شاملة ، تعالج نصوصه ، وتحللها ، وتنقدها ، وتضع أمامنا ملامح البلاغة النبوية فى ظواهرها الأدبية ، ومعارضها الفنية ، بل إن الجهد الوحيد – فيما نعلم – الذى أفرده صاحبه لدراسة الحديث دراسة فنية ، وهو كتاب : « المجازات النبوية » للشريف الرضى ، لم يخرج عن نطاق دراسة ألوان المجاز فى طائفة من الأحاديث ، وأسلوب المجاز – على روعته فى الحديث – إنما هو قطرة من بحر ، أو غصن من شجرة ، فى دوحة البلاغة النبوية .

ومع ذلك فنحن – بهذه الدراسة – لا ندعى أننا سددنا الثغرة وأكملنا النقص ؛ إذ إن ذلك لا يكون إلا بدراسة مستوعبة ، لا تتاح لها فرصة المكان هنا .

وإن عنى هذا الذى قدمناه شيئاً ، فإنما يعنى أن ما أوردناه من أحكام على أدب الحديث ، من حيث خصائصه ، وأسلوبه ، ووسائله التصويرية ، وقيمه المختلفة ، الفنية والجمالية والموضوعية ، كل ذلك لا يرقى بالطبع إلى درجة البرهان القاطع ، ولا يزيد على درجة التمثيل والتدليل ، والقارىء نفسه متروك له أن يشاركنى فى إتمام هذا العمل ، بمزيد من التأمل فى الحديث الشريف على ضوء ما ذكرنا فى هذه الدراسة ؛ ليعرف بنفسه مدى صحة ما قدمنا من أحكام ؛ وليضيف إليها ما يراه ، أو يعدل فيها ، أو يصحح ، أو يتحفظ ، وبهذا تتضافر الجهود لتحقيق الفائدة المرجوة من مثل هذه الدراسات .

على أن استيعاب الكلام فى البلاغة النبوية وخصائصها ، إنما هو طلب لغاية فى السماء العالية ، ولا نجد ما نختتم به هذه الدراسة الموجزة أفضل من هذه المناجاة الأدبية ، التى يتوجه بها أمير الشعراء [1] ، إلى إمام البلغاء :

يا أفصحَ النّاطقينَ الضّادَ قاطِبَةً ... حَديثُك الشَّهْد عندَ الذّائِق الفهِمِ
حلّيتَ من عَطَلٍ جِيدَ البيانِ بِهِ ... فى كل مُنتثرٍ فى حُسْنِ مُنتظم
بكل قولٍ كريمٍ أنتَ قائلُهُ ... تُحيِى القلوبَ وتحيِى مَيِّت الهِمم

* * *

(١) هو أحمد شوقى ، انظر الشوقيات ٢٤٧/١ (مطبعة مصر بلا تاريخ) .

الفصل الثانى

الكتابة الفنية

- ١ -

الكتابة فن إسلامى النشأة :

عند دراسة الكتابة الفنية فى صدر الإسلام ، يثير مؤرخو الأدب عادة مشكلة نشأة هذا الفن فى اللغة العربية ، وتختلف آراؤهم فى محاولاتهم للإجابة عن التساؤل الآتى : هل فن الكتابة جاهلى أم إسلامى النشأة ؟؟ أو بعبارة أخرى : هل عرف العرب فى جاهليتهم هذا اللون من فن النثر ، أم هو فن إسلامى خالص ؟ .

حقاً لا نجد من المؤرخين من ينكر معرفة العرب الكتابة ، باعتبارها وسيلة من وسائل تسجيل بعض شئون حياتهم ومعاملاتهم ، وما كان فى وسعهم أن ينكروا معرفتهم الكتابة على هذا المستوى ، على الأقل فى بعض بيئاتهم ، وخاصة فى الحضر ، إذ كان القرآن الكريم – وهو وثيقة تاريخية لا يتطرق إليها الشك – شاهداً على ذلك ، فى كثير من آياته التى تشير إلى أن الكتابة كانت معروفة فى بعض البيئات الجاهلية [١] .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ فوَيلٌ للذين يَكتُبونَ الكتابَ بأيديهم ، ثم يقولونَ هذا مِن عند اللهِ ليشترُوا به ثمناً قليلاً ، فوَيلٌ لهم مما كتَبَت أيديهم ﴾ [٢] .

---

(١) انظر : تطور الأساليب النثرية ٩/١ وما بعدها .

(٢) سورة البقرة : ٢ – ٧٩/

وقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ ... ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عليهِ بُكْرَةً وأَصِيلاً ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ ن ، والقلمِ وما يَسطرونَ ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ يومَ نَطوى السماءَ كَطيِّ السجلِّ للكتب ﴾ (٤)

وآيات أخر ، كلها تبين أن العرب عرفوا الكتابة واستعملوها (٥) ، وبخاصة فى بيئات اليهود بالمدينة وحواليها ، وفى مكة ، حيث قريش ونشاطها التجارى ، المتطلب استعمال الكتابة ؛ ولذا يذكر المؤرخون ورواة الأخبار ، أن الإسلام ظهر وفى قريش عدد غير قليل من الكتاب (٦) ، وأن العرب كانت تؤرخ فى كتبها وديونها من عام الفيل ، ثم عام الفجار ، حتى جاء

---

(١) سورة البقرة : ٢٨٢

(٢) سورة الفرقان : ٥

(٣) سورة القلم : ١

(٤) سورة الأنبياء : ١٠٥

(٥) استخدم القرآن الكريم مادة القراءة والكتابة ، وما يتطلبان من أقلام وصحف ودرس ونحو ذلك فى كثير من آياته ؛ فوردت مادة القراءة فى سبع عشرة آية ، والكتابة (بمعنى الخط) فى نحو ثلاث مائة ، والقلم فى أربع ، والصحف فى ثمان ... إلخ . انظر : القرآن والتفكير (الحوفى) ١١ - ١٢

(٦) هم فى رواية البلاذرى سبعة عشر كاتباً . انظر : فتوح البلدان ٤٧١ (دار النشر للجامعيين القاهرة ١٩٥٧ م) وجعلهم ابن عبد ربه أربعة عشر كاتبا ، انظر العقد الفريد ١١٤/٣ (طبعة الجمالية - الطبعة الأولى - القاهرة ١٩١٣ م) .

الإسلام فأرخ المسلمون بعام الهجرة [١] ، ولقد نعلم أنه كان للنبى كتّاب يكتبون له الوحى ، ولهم نواب ينوبون عنهم إذا غابوا [٢] .

كل ذلك يؤكد معرفة الكتابة واستخدامها فى الحياة الجاهلية [٣] ، ويرى فريق من مؤرخى الأدب ، أن استخدام الجاهليين الكتابة لم يتعد شئون معاملاتهم التجارية ، وبعض أغراضهم الأخرى ؛ إذ على الرغم من معرفة العرب الكتابة فإنها لم تكن شائعة فيهم [٤] ، أو بعبارة أخرى : كانت القراءة والكتابة معروفتين فى البادية والحضر فى الجاهلية « ولكن لم تكونا ثقافة عامة فى الجاهليين » [٥] ، مستخدمة فى مختلف أغراضهم ؛ وعلى ذلك فأغلب الظن أن هذا اللون من النثر الجاهلى ، كان نثراً مرسلا للتعامل ، مطلقاً من كل صنعة ، ساذجاً ، خاليا من قيم الجمال الفنى ، فالجاهليون إذن لم يعرفوا النثر الفنى فى الكتابة وإن عرفوا الكتابة الخطية التى مهدت له [٦] .

على أن من المؤرخين من يرى أن الكتابة أخذت طريقها إلى التجويد والافتنان على أيدى الجاهليين ، وأن عدم وصول نماذج منها إلينا ليس دليلا

---

(١) أخبار مكة (محمد بن عبد الله الأزرقى ١٠٢ (طبعة مكة ١٢٧٥ هـ) .

(٢) العقد الفريد ٣/٥

(٣) من هذا يتبين خطأ المستشرق نيكلسون فيما ذهب إليه من أن عرب الجاهلية لم يكن لهم إلمام حتى بهذا المستوى من الكتابة (الكتابة الخطية) انظر :

A literary History of the Arabs, P.31

(٤) تاريخ آداب اللغة العربية (زيدان) ١/١٨٩

(٥) تاريخ الجاهلية (عمر فروخ) ٦١ ، ١٦٤ (طبعة بيروت ١٩٦٤ م) .

(٦) ممن ذهب إلى هذا الرأى : طه حسين فى : من حديث الشعر والنثر (دار المعارف بمصر ١٩٣٦ م) وأنيس المقدسى فى : تطور الأساليب النثرية ، وجورجى زيدان فى : تاريخ آداب اللغة العربية .

على جهالة العرب نثر الكتابة الفنى [١] ، ويسوقون فى مقام التدليل على رأيهم ، ما رواه أبو هلال العسكرى [٢] ، من أن أكثم بن صيفى حكيم العرب وبليغها ، كان إذا كاتب ملوك الجاهلية يقول لكتابه : « افصلوا بين كل منقضى معنى ، وصلوا إذا كان الكلام معجوناً بعضه فى بعض » وأن الحارث بن أبى شمر الغسانى – أحد ملوك العرب الغساسنة – كان يقول لكاتبه المرقش : « إذا نزع الكلام إلى الابتداء بغير ما أنت فيه فافصل بينه وبين تبيعته من الألفاظ ، فإنك إن مذقت ألفاظك بغير ما يحسن أن تمذق ، نفرت القلوب عن وعيها ، وملتها الأسماع ، واستثقلتها الرواة » .

فهذه الرواية وسابقتها تدلان على أن الكتابة ارتقت فى الجاهلية إلى حد ما ، ووضع لها بعض كتابهم أصولا فنية ، تجود على أساسها ، وما رواه القلقشندى ، من أن قس بن ساعدة الإيادى خطيب العرب المشهور ، كان أول من كتب : « من فلان إلى فلان » [٣] ، غير أن أمثال هذه الروايات لا تبرأ من الشك فى صحتها تاريخياً ، وقد أحس من استشهدوا بها بما يمكن أن يوجه إليه من نقد ؛ ولذا نجد الدكتور زكى مبارك يعلق عليها قائلا : وليشك من شاء فى صحة هذه النصوص ، فهى على كل حال صورة لفهم نقاد العرب لبعض ما كان عليه أهل الجاهلية [٤] .

---

(١) انظر فى هذا الرأى : السياسة فى العصر الأموى (الحوفى) ٤٤٥ وما بعدها (طبعة نهضة مصر – القاهرة ١٩٦٩ م) . والنثر الفنى فى القرن الرابع (زكى مبارك) ٢٣/١ . وانظر أيضاً : بلاغة الكتاب فى العصر العباسى (نبيه حجاب) ٤٧ ، ٤٨ (المطبعة الفنية الحديثة – القاهرة ١٩٦٥ م) .

(٢) الصناعتين ٣٥١

(٣) صبح الأعشى (القلقشندى) ٣٢٧/٦ (طبعة الأميرية ١٩١٣ – ١٩١٩ م) .

(٤) النثر الفنى ٤٨/١

ويحاول أصحاب هذا الرأى تدعيم وجهة نظرهم أيضاً ، بأنه لا خلاف فى ازدهار فن الخطابة الجاهلية ، وما الخطابة إلا نثر فنى « والمعقول أن الذى يحسن إعداد الخطبة يحسن بسهولة إنشاء الرسالة » [١] ، ثم يكتبها إن أحسن الكتابة أو يمليها إن لم يكن كذلك ، ويعلل عدم وصول وثائق صحيحة للكتابة الفنية الجاهلية ، مع بقاء نماذج للخطابة مع أنها نثر شفهى ، يصعب حفظه وروايته ، بأن الخطابه كانت تلقى فى المناسبات الهامة ، والمواسم الكبرى والأحداث الخطيرة ، فظل صداها عالقاً فى الأذهان ، أما الرسائل فكانت تنقل من قبيلة إلى أخرى ، أو بين زعماء القبائل ، وملوك العرب ، ويجرى بها الرسل بينهم ، وكانت فى الأغلب مما يكتمه المرسلون .

والذى نراه أن البيئة الجاهلية بعامة لم تكن تتوفر فيها دواعى الكتابة الفنية ، اكتفاء بذيوع الشعر فيهم ، وكثرة الخطباء بين ظهرانيهم ، ولهم من شعرائهم وخطبائهم خير عون على تسجيل محامدهم ، وإذاعة مآثرهم ، والسفارة بين ملوكهم وزعماء قبائلهم ، مما قلل من فرص استخدام الكتابة فى مثل هذه الشئون ، وجعلها تقف – غالباً – عند تسجيل معاملاتهم التجارية ، وما يشبه ذلك من كتابة عهد ، أو عقد حلف ، فى صورة بسيطة ، بعيدة عن محاولة التأنق ، أو تحقيق قيمة من قيم الجمال الفنى .

ولسنا بهذا ننكر احتمال ظهور لون من الكتابة الفنية فى الجاهلية ، بل إننا نميل إلى ظهوره ، خاصة فى الممالك العربية المجاورة للحضارات الفارسية واليونانية ، وعلى يد بعض عظماء البيان من العرب ، الذين كانوا على صلة قوية ببعض هذه البيئات العربية المتحضرة ، ولعل فى هذا ما يفسر لنا روايات أبى هلال والقلقشندى السابقة ، إن قلنا بصحتها ، وسلامتها من الوضع بعد الإسلام .

---

(١) المصدر نفسه ١/٢٣

وإذا كانت نماذج هذه الكتابة لم تصل إلينا لظروف نجهلها ، فإننا نفتقد العنصر الأساسى فى الحكم على خصائص هذا النثر ، ومبلغ حظه من الفن ، وهى النصوص التى تقوم عليها الدراسات الأدبية ، وتستنبط على هديها ما يوافق الحقيقة ، أو يقاربها فى الحكم عليها .

يضاف إلى ذلك أن ما جاءنا من رسائل الفترة المبكرة من صدر الإسلام (عهد النبوة) ، يحمل خصائص الكتابة الفنية فى طور نشأتها — كما سنرى — فلعل ذلك مما يستأنس به ، للرأى القائل بأن النثر الفنى للكتابة إسلامى النشأة .

تلك مقدمة لازمة ، وهى وإن لم تحسم القول فى قضية الكتابة الفنية فى اللسان العربى ، فهى تساعد على إلقاء أضواء أكثر كشفا لحياة الكتابة فى صدر الإسلام .

— ٢ —

الإسلام والكتابة :

جاء الإسلام فحث على تعلم القراءة والكتابة ، باعتباره دينا يقوم على المعرفة ، ويعلى من مكانة الفكر والعقل ، ويرفع العلم والعلماء درجات [١] ، فكان عليه لكى يعبد الطريق أمام الفكر والمعرفة ، أن يعمل على مناهضة الأمية فى العرب ، ويجد فى محوها ، أو الحد من شيوعها ، والخطوة الأولى فى هذا المجال هى تشجيع تعلم القراءة والكتابة .

وكان من مظاهر حرص الرسول الكريم على نشر الكتابة بين المسلمين ، أنه جعل فداء القارئ الكاتب من أسرى بدر تعليم عشرة من

---

(١) انظر فى تشجيع الإسلام العلم والفكر ، وتقديره العلماء : القرآن والتفكير (الحوفى) ٩ — ١٢ ، ٢٤ — ٢٩

أبناء الصحابة القراءة والكتابة [١] ، كما أن إلحاح القرآن الكريم على العقل العربى ، يدعوه إلى إعمال النظر والتدبر فى ملكوت السموات والأرض ؛ ليهتدى بالخلق إلى خالقه ، وبالصنعة إلى صانعها ؛ أى ليصل إلى المعرفة ، جعل العرب يدركون أهمية القراءة والكتابة ، ويقبلون على تعلمهما ، باعتبارهما أهم خطوة على طريق المعرفة المنشودة ؛ وبذا شاعت الكتابة بين المسلمين ، واستخدموها فى أغراض دينهم ، فكان الرسول يملى رسائله على كتّابه ، كما كان خلفاؤه وصحابته من بعده ، ينشئون بملكتهم ، ويكتبون بأيديهم ، أو يستكتبون غيرهم ، واقتضت ظروف الدعوة الجديدة ، والدولة الناشئة ، اصطناع الكتابة فى مجالات شتى ، كالكتابة إلى العمال والولاة ، وقادة الجيوش ، ورعايا الدولة الجدد فى الأمصار المفتوحة ؛ لشرح سياسة الدين والدنيا ، أو لتنظيم العلاقة بينهم وبين العرب الفاتحين ، هذا فضلا عن الكتابة إلى الأبناء موصين أو واعظين .

والفن بعامة ، والأدب بخاصة ، إنما يزدهر ، ويدرج بقوة فى طريق النضج إذا كانت ظروف العصر والبيئة تتطلبانه ، وتوفران دواعيه ، فأثمر ذلك كله نوعا من النثر ، يمكن أن يعد جديداً فى البيئة العربية ، لم يكن معروفا بها قبل الإسلام بشكل واضح ، هو الكتابة الفنية ، وعلى الأخص كتابة الرسائل ، التى أخذت تتدرج فى طريق النضج ، حتى أينعت فى عصر بنى أمية ، وبخاصة فى أخريات هذا العصر ، على يد الأديب عبد الحميد بن يحيى الكاتب المشهور [٢] .

---

(١) انظر : فجر الإسلام ١٧١

(٢) انظر فى تطور الكتابة على يد عبد الحميد بن يحيى : بلاغة الكتّاب فى العصر العباسى (نبيه حجاب) ٦٦ - ٦٨

— ٣ —

دراسة نماذج من الكتابة فى صدر الإسلام :

مرت الكتابة فى صدر الإسلام بمراحل عدة على طريق النمو ، واكتساب ملامح فنية بارزة ، وهذه المراحل متداخلة أشد التداخل ، وقد يكون من العسير إبراز كل مرحلة منها على حدة ، وتحديد معالم نمو الكتابة فيها .

ولكننا مع ذلك — وبقصد التبسيط الدراسى — يمكن أن نلخص هذه المراحل فى مرحلتين بارزتين : إحداهما : فترة النبوة ، والأخرى : فترة الخلفاء الراشدين :

(أ) الرسائل والعهود النبوية :

كتب رسول الله ﷺ إلى بنى ضمرة بن بكر من كنانة (١) :

« أنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وأنَّ لهم النصرَ على من دَهَمَهُم بظلم ، وعليهم نَصرُ النبىِّ ﷺ ، ما بَلَّ بحرٌ صوفَة ، إلا أن يحاربوا فى دين الله ، وأن النبىَّ إذا دعاهم أجابوه ، عليهم بذلك ذِمةُ اللهِ ورسولِهِ ، ولهم النصرُ على من بَرَّ منهم واتّقَى » .

— وكتب إلى نعيم بن مسعود الأشجعى (٢) :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما حالَفَ عليه نُعَيْمَ بنَ مسعود بن

---

(١) الطبقات الكبرى (أبو عبد الله محمد بن سعد) ج ١ قسم ٢ ص ٢٧ (طبعة بيروت ١٩٥٧ م) .

(٢) المرجع نفسه ج ١ ق ٢/ ٢٦

رُخَيْلة الأشجعيّ ، حالفهُ على النصر والنصيحة ، ما كان أُحدٌ مكانَه ، ما بَلَّ بَحرٌ صوفَة » .

. وتمثل هذه العهود طابع نثر الكتابة ، فى السنوات الأولى من حياة الرسول بالمدينة ، وهى كما نرى تقف فى عرضها عند حد مقتضى الأداء للمعنى المراد ، وتبليغه ، دون محاولة للتنسيق ، ففيها ترسل العبارة إرسالا ، وتقد على قدر المعنى ، وتكاد تخلو من أساليب البيان الفنى ، اللهم إلا نادراً ، وهى إن جاءت ، فإنما تكون عفو الخاطر ، دون قصد إليها ، أو تكلف لها ، كما نرى من استخدام الكناية فى قوله : « ما كان أحد مكانه ، ما بل بحر صوفة » (١) .

كما يلاحظ أنها لا تراعى أية قواعد فنية فى البدء والختام ، وتخلو تماماً من أساليب المبالغة والتفخيم .

فإذا ما تقدم بنا الزمن قليلا وقعنا على نماذج أخرى منها :

— كتب رسول الله ﷺ إلى هوذة بن على صاحب اليمامة (٢) :

« من محمدٍ رسول الله إلى هَوْذَةَ بنِ على :

سلامٌ على من اتبعَ الهدَى ، واعلم أن دِينى سيظهرُ إلى مُنتهَى الخُفِّ والحَافِرِ ، فأسلِمْ تَسْلَمْ ، وأجعَلْ لك ما تحتَ يَدَيك » .

---

(١) وردت هذه العبارة فى حديث الخلاف بين أبناء عبد مناف ، وعبد الدار بن قصى ، على تولى شئون الكعبة ، حيث تحالف كل منهم ضد الآخر ، ونصها : « مابل بحر صوفة » ، انظر : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (الحافظ تقى الدين الفاسى) ٧٦/٢ (طبعة الحلبى ١٩٥٦ م) قال فى هامشه : « من عادة قريش إذا أبرمت عهداً أن تقول : ما أقام ثبير ، ومابل بحر صوفة » وانظر حلف الفضول فى المرجع نفسه ١٣/٢

(٢) صبح الأعشى ٣٧٩/٦

- وكتب إلى خالد بن الوليد (١) :

« من محمدٍ رسول الله إلى خالد بن الوليد :

سلامٌ عليك : فإنى أحمدُ إليك اللهَ الذى لا إلهَ إلا هو .

أما بعد : فإن كتابك جاءنى مع رسولك ، يُخبِرُنى أن بنى الحارثِ قد أسلموا قبل أن تُقاتِلَهُم ، وأجابوا إلى ما دعوتَهم إليه من الإسلام ، وشَهِدوا أنْ لا إله إلاّ الله ، وأن محمداً عبدُه ورسوله ، وأنْ قد هَداهُم اللهُ بهُداه ، فبشِّرْهُمْ وأنذِرْهم ، وأقْبِلْ ولْيُقبلْ معك وفْدُهُم ، والسلامُ عليك ورحمةُ الله وبركاته » .

وأول ما يلاحظ : بدء ظهور نوع من التقنين لنظام البدء والختام فى الرسالة ، وإن لم يأخذ دائماً طابعاً واحداً ، كما يظهر فى الرسالتين ، حيث تضمنت الثانية خاتمة ، وخلت الأولى منها ، وأيضاً : اشتمال الثانية على عبارة « أما بعد » فى صدر الغرض ، بينما خلت الأولى منها .

أما من حيث الأسلوب : فيبدو التردد بين الإطناب والإيجاز ، إذ كان طابع الرسالة الأولى الإيجاز ، الذى يتجلى فى قوله : « أسلم تسلم » فتحت هاتين الكلمتين كل ماجاء به الإسلام من سبل خلاص المسلم وسلامته ، فى دنياه وآخرته ، أما الرسالة الثانية فيغلب عليها طابع البسط ، الذى يظهر فى أداء المعنى ، فى صور متعددة من العبارة ، فكلمة « أسلموا » فى صدر الرسالة ، تغنى عن كل ماجاء بعدها إلى قوله : « بهداه » وإن كان فى البسط زيادة مزية ؛ إذ قصد به تأكيد إجابتهم داعى الإسلام ، ويعنى ذلك كف سيف الإسلام عنهم ، كما فيه النص على فوزهم بالهداية ، بدخولهم فى الإسلام .

---

(١) نفس المرجع ٣٦٧/٦

ونلاحظ أيضاً بدء ظهور محاولة لرعاية فن البيان فى الأداء وإيثار الصورة البيانية على أسلوب التعبير المباشر بأسلوب الحقيقة ، ويتضح هذا فى عبارة : « واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر » بدل أن يقول : سيظهر فى الجزيرة العربية كلها .

وفى أخريات العهد النبوى نميز لونا من التطور اليسير فى شكل الرسالة ومضمونها ، ولنضرب لذلك مثلا الرسالة التالية :

– كتب رسول الله ﷺ إلى أُكَيْدِرِ دومة (١) :

« من محمدٍ رسول الله لِأُكَيْدِر دَوَمَةَ ، حينَ أجابَ إلى الإسلام ، وخَلع الأندادَ والأصنام ، مع خالد بن الوليد ، سيف الله فى دَوْمَةِ الجَنْدَلِ وأكنافِها : أنَّ لنا الضاحيةَ من الضحْلِ والبُورِ والمعاصِى ، وأغفالَ الأرض ، والحَلْقَة والسِّلاح ، والحافر والحِصن ، ولكم الضامِنةُ من النخل والمَعِينِ من المعمورِ ، لا تُعدَلُ سارِحَتُكم ، ولا تُعَدُّ فارِدَتُكم ، ولا يُحظَر عليكم النباتُ ، تُقِيمون الصلاة لِوقْتِها ، وتُؤَدُّونَ الزكاةَ بحقِّها ، عليكم بذلك العهد والميثاقُ ، ولكم بذلك الصدقُ والوفاءُ شهِدَ اللهُ ومَنْ حَضَرَ مِنَ المسلمين » .

فمن حيث المضمون : تعددت مناحى القول وتنوعت أغراض الكلام ، فقد استقر الدين الجديد ، وفصلت أحكامه ، واكتملت سياسته

---

(١) صبح الأعشى ٧٠/٦ . الضاحية : الناحية البارزة ، والمراد هنا : أطراف الأرض . الضحل : القليل من الماء . البور : الأرض لم تزرع . المعاصى : الأرض التى لا عمران فيها . أغفال الأرض : التى لا أثر فيها يعرف . الحلقة : الدروع . الضامنة من النخل : ماتضمنته القرى منه . لا تعدل سارحتكم : أى لا تحول دوابكم الراعية عن المرعى . لا تعد فاردتكم : لا تضم إلى مال الصدقة ، والفاردة : الزائدة على الفريضة ، فلا تجب فيها الصدقة .

ومن هنا تناولت الرسالة تفصيل الحقوق والواجبات ، على نحو لم نجده فى رسائل الرسول ، وعهوده السابقة .

ومن حيث الشكل : أخذت بوادر التحبير ، وتحسين الكلام تظهر فى الأسلوب ، كالازدواج والسجع فى قوله : « لا تعدل سارحتكم ، ولا تعد فاردتكم » والموازنة والسجع فى قوله : « تقيمون الصلاة لوقتها ، وتؤدون الزكاة لحقها » والموازنة فى قوله : « عليكم بذلك العهد والميثاق ، ولكم بذلك الصدق والوفاء » كما مال الأسلوب إلى إيثار لفظة على أخرى لملاحظة الدقة والجمال فى الأداء ، وذلك مثلا فى اختيار كلمة (وخلع) بدل كلمة (وترك) أو نحوها ، لما فى الأولى من معنى الترك وزيادة ؛ لأنها توحى بمعنى الإصرار على الترك وعدم الرجوع إلى عبادتها ، كما يخلع الإنسان الثوب البالى فلا يعود إلى لبسه ، أو القيد فيشعر بالحرية والخلاص ، وفى خلع عبادة الأصنام ، ما يلمح إلى التخلص من عبادة فاسدة بالية ، والخلاص من أسر الوثنية التى تغل العقول ، والأرواح .

وعلى الرغم من طول الرسالة نوعا ما ، فإن أسلوب المساواة هو الغالب عليها ، وإن مالت إلى الإيجاز فى بعض عباراتها ، كالإيجاز بالحذف فى قوله : « لا تعدل سارحتكم » أى عن المرعى ، « ولا تعد فاردتكم » أى فى مال الصدقة الواجبة .

على ضوء هذه الدراسة لنماذج من رسائل النبى وعهوده ، يمكن استنباط بعض الملاحظات الفنية الآتية :

السمات الفنية العامة للكتابة فى عهد النبوة :

١ – كان الطابع العام للكتابة فى السنوات الأولى من الهجرة (حتى سنة ٥ هـ تقريباً) هو الميل إلى البساطة والسهولة فى التعبير عن المضمون ، والبراءة من اصطناع أساليب الزخرف وفن البيان – إلا نادراً ، ودون قصد

أو إيثار – مع إيثار الإيجاز ، والنفاذ إلى القصد مباشرة ، فهى مختصرة غالباً ، خالية من التنميق والتحبير ، لا يقصد منها سوى الأداء والتبليغ ، فى غير تفنن أو إثارة لجمال فنى خاص .

فإذا ما تقدمت سنوات أخرى من عهد النبوة ، أخذت تظهر بعض الملامح لفن الرسالة ، من تقسيمها إلى مقدمة وغرض وخاتمة ، تستوفى هذه الأسس حينا ، وتهمل بعضها أحياناً ، وعرفت الصورة البيانية البسيطة طريقها إلى الرسالة ، وتردد أسلوبها بين المساواة والبسط والإيجاز .

فإذا ما انتهت إلى أخريات عهد النبوة ، لمحنا فيها بوادر التنميق ، وإيثار بعض الألفاظ على بعض ؛ لمكانها من دقة الأداء وجمال التعبير ، واستخدام بعض الأساليب الفنية ؛ لتحلية العبارة وتحقيق بعض القيم الجمالية فيها ، ومع ذلك فقد ظل طابعها العام يمتاز بالبساطة ، وقلة المحاولات الفنية والتأثير الأنفعالى ، إذ كان همها هو الأداء والتبليغ .

٢ – ضعف الميل إلى الالتزام بعناصر بناء الرسالة ، والخضوع لقواعد معينة فى البدء والختام ، فالرسول ﷺ لم يلتزم نهجاً واحداً فى بدء رسائله أو ختامها ؛ إذ كان يفتتح بعض رسائله بعبارة : « من محمد رسول الله إلى فلان » وبعضها بعبارة : « أما بعد » أو بالبسملة ، أو بعبارة : « هذا كتاب من محمد رسول الله إلى فلان » .

وكان يأتى فى صدر كتبه بالسلام ، فيقول للمسلم : « سلام عليك » أو « السلام على من آمن بالله ورسوله » وفى خطاب غير المسلم ، يقول : « سلام على من اتبع الهدى » وربما أسقط السلام فى صدر كتابه ، وقد يتبع السلام بالتحميد ، كما فى رسالته إلى خالد بن الوليد ، وربما ترك التحميد ، وقد يأتى بعد التحميد بالتشهد ، أو لا يأتى به .

أما التخلص إلى الغرض ، فكان بعبارة : « أما بعد » وتارة يهملها

ويكثر أن يكون السلام ختاماً لرسائله ، فيقول للمسلم : « والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » وربما اقتصر على لفظ : « والسلام » ، ويقول لغير المسلم : « والسلام على من اتبع الهدى » وقد يسقط السلام من الختام جملة .

٣ – الخلو من عبارات التعظيم وألقاب التفخيم – إلا فى النادر ، فكان الرسول ﷺ يذكر اسمه مجرداً إلا من ألزم صفاته ، وهى الرسالة ، التى باسمها وبمقتضاها يكتب إلى الناس ، داعياً ، أو هادياً ، أو مشرعاً ، كما كان يذكر اسم المرسل إليه مجرداً من ألقاب التعظيم ، وندر أن يقرن اسماً فى رسائله بلقب يعظمه ، كما فى رسالته السابقة إلى أكيدر ، حيث لقب خالد بن الوليد بلقب : « سيف الله » تعظيماً له وتشريفاً .

أما عبارته عن نفسه بالضمير ، فكانت تأخذ صورة الإفراد ، نفوراً من التعظيم ، وتواضعاً ، فيقول مثلا : « أنا » أو « جاءنى » « يخبرنى » وما أشبه ذلك ، ويعبر عن المرسل إليه عند الإفراد بكاف الخطاب ، وعند التثنية بلفظها ، وعند الجمع بلفظه .

وهذا الذى ذكرنا يشبه أن يكون تأثراً بالروح العامة للإسلام ، وطابعه التهذيبى الذى ينفر من المبالغة والتهويل ، وينهى عن الكبر والخيلاء ، ويثبت العظمة لله وحده .

٤ – الاقتصاد إلى حد كبير فى استخدام أساليب البيان الفنية ، من تشبيه واستعارة وكناية ، وإيثار التعبير بلغة الحقيقة على لغة المجاز غالباً .

(ب) الرسائل والعهود فى عهد الراشدين :

فى هذه المرحلة من حياة الكتابة الفنية ، يخطو فن الرسائل خطوات بارزة على طريق النمو ، جعلته أدخل فى عالم الفن من المرحلة السابقة ، ومهدت له سبيل الارتقاء ؛ ليحتل من هذا العالم مكاناً مرموقاً فى عهد بنى أمية .

ولبيان ملامح هذا التطور لفن الكتابة فى عهد الراشدين ، علينا أن نبدأ بدراسة بعض نماذجها :

– عهد أبو بكر الصديق إلى عمر بالخلافة لما حضرته الوفاة فقال (١) :

« بسم الله الرحيم الرحيم :

هذا ما عَهِدَ به أبو بكر ، خليفةُ محمد رسول الله ﷺ ، عند آخرِ عَهْدِهِ بالدنيا ، وأول عهده بالآخرة ، فى الحالِ التى يُؤْمِنُ فيها الكافرُ ، ويَتّقِى فيها الفَاجِرُ .

إنِّى استعملتُ عليكم عُمَرَ بن الخَطاب ، فإنْ بَرَّ وعَدَلَ ، فذلك عِلمى به ، ورَأيِى فيه ، وَإنْ جارَ وبدَّلَ ، فلا عِلْم لى بالغيبِ ، والخَيْرَ أردتُ ، ولكلِّ امرىءٍ ما اكتَسبَ ، وسَيَعْلمُ الذين ظَلمُوا أىَّ مُنقلبٍ يَنقلبُون » .

فموضوع العهد مجال جديد للكتابة ، استحدث بعد وفاة الرسول ، فهو عهد بتولى خلافة المسلمين ، والخلافة منصب لم يكن من قبل .

كما أخذت المعانى تخطو نحو معالجة شئون الحياة الإسلامية فى الدولة الجديدة ، الآخذة فى التطور والاتساع ، فأبو بكر يحدد لخليفته أساساً عاماً لحكم المسلمين من بعده ، يقوم على البر والعدل ، واجتناب الظلم ، والانحراف عن كتاب الله وسنة رسوله .

يضاف إلى هذا ما يلوح فى الأسلوب من احتفال ، يميل بالعبارة إلى الجودة ، وجمال الأداء ، كما يظهر فى قصر الفقرات ، ومحاولة الموازنة بينها ، وتقديم المفعول لإبرازه فى قوله : « والخير أردت » ثم اختيار هذه العبارة القرآنية المناسبة للمقام لختام العهد .

---

(١) تاريخ الأدب العربى (السباعى) ص ١٨١

ومع ذلك فالكتاب يحتفظ بالطابع العام ، الذى كانت تتصف به الكتابة فى العهد النبوى ، وبخاصة فى أواخره ، من حيث البساطة وعدم التكلف ، والقصد إلى الغرض ، فى معنى محكم ، ولفظ جزل مختصر غالبا ، والكلام – كما يقول أبو هلال –: « إذا سلم من التكلف ، وبرىء من العيوب ، كان فى غاية الحسن ونهاية الجودة » [١] .

– كتب أبو عبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب [٢] :

« منْ أبى عُبيدةَ بن الجرَّاحِ ومُعاذِ بن جَبلٍ إلى عُمَر بن الخطّاب : سلامٌ عليك : فإنّا نحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو .

أما بعد : فإنّا عَهدْناكَ ، وأمْرُ نفسِكَ لك مُهم ، فأصْبحتَ وقد وُلِّيتَ أمْرَ هذه الأمة ، أحْمرها وأسودِها ، يجلِس بين يديْك الصديقُ والعدُوّ ، والشَّريفُ والوضيعُ ، ولكلٍّ حصتُّهُ من العدل ، فانظر كيف أنتَ يا عمرُ عندَ ذلك !! وإنَّما نُحذِّركَ يوماً تعنُو فيه الوجُوهُ ، وتجِبُ القلوبُ ، وتنْقطِع فيه الحجج ، بحُجَّةِ ملكٍ قَهرَهُم بجبرُوتِه ، والخلْق داخِرُون له ، يَرْجُون رحمتَه ، ويخافُون عقابَه ، وإنَّا كنَّا نتحدثُ أنَّ أمرَ هذه الأمة يرجعُ فى آخِر زمانِها أنْ يكونَ إخوانُ العلانِيةِ ، أعْداءَ السَّرِيرة ، وإنا نعوذُ بالله أن تُنزِلَ كتابنَا هذا سوَى المنزل الذى نَزَلَ من قلُوبنا ، فإنّا إنما كَتْبنَا إليكَ نصيحةً لك ، والسلام » .

فالرسالة نصيحة مخلصة من صحابيين جليلين إلى أمير المؤمنين ، وولى أمر المسلمين ، تبصره ببعض القواعد ، التى يجب أن يراعيها الحاكم

---

(١) الصناعتين ص ٢٠٥

(٢) تاريخ الأدب (الزيات) ص ٨٠

المسلم فى قضائه بين الرعية ، من المساواة بين الناس فى العدل ، والتنزه عن الهوى فى القضاء ، فلا يميل مع العربى تعصبا للجنس ، أو مع الصديق ، تأثراً بعواطف المودة ، أو مع ذى المكانة مراعاة لعلو طبقته ، وشرف أرومته ؛ لأنه مسئول عن الأمة جمعاء ، وأفرادها سواسية فى الحقوق والواجبات ، فعليه أن يراقب ربه الذى ولاه أمر عباده ، وسيحاسبه حين يقف بين يديه فى يوم عظيم ، تخضع فيه رقاب العباد لبارئها ، وتضطرب القلوب خوفا من عقابه ، ورجاء فى رحمته وثوابه ، يوم لا نجاة إلا لمن فاز برضاه ، وأخلص فى طاعته . إلخ .

والمعانى كما نرى ذات صبغة دينية ، واضحة التأثر بالقرآن الكريم ، بل هى مستمدة منه ، ولم يقف هذا التأثر عند حد المعانى ، فقد تجاوزها إلى غير قليل من الألفاظ والعبارات ؛ ولذا تعد هذه الرسالة نموذجاً من النماذج ذات الدلالة القاطعة على ظهور تأثر الكتّاب فى هذه الفترة بالقرآن الكريم ، الذى ملك عليهم عقولهم وقلوبهم وألسنتهم ، فأخذوا يحتذونه لفظا ومعنى وأسلوباً .

ويهمنا هنا أن ننبه إلى أن الكتابة الفنية قد حظيت منذ عهد عمر بن الخطاب باهتمام ملحوظ ، وأخذت تسعى حثيثاً إلى احتلال مكانة مرموقة بين فنون الأدب ، فالفتوح الكثيرة فى عهده ، جعلت الإسلام يبسط سلطانه على أمم جديدة ، وأراض شاسعة ، وجه إليها الخليفة ولاته وعماله ، وكان لابد أن يظل على صلة بهم وبأعمالهم ؛ ليكون على بينة من أمر الأمة ، وإدارة شئونها ورعاية مصالحها .

من هنا كثرت الرسائل المتداولة فى أنحاء الدولة الإسلامية ، واصطنعها الخليفة والأمراء والقواد ، وطبيعى أن يثمر ذلك تطوراً ملحوظاً فى فن الرسالة ؛ حيث اتسعت مجالاتها ، وتجددت أفكارها ، وتنوعت موضوعاتها ، تبعاً لتطور الحياة الإسلامية ، تطوراً بعد بها بعض الشىء ،

عن الحياة البسيطة التى كانت معروفة فى حياة النبى ﷺ ، ومن أبرز النماذج التى تعبر عن هذه المرحلة من تطور فن الكتابة ، رسالة عمر بن الخطاب المشهورة فى القضاء ، التى بعث بها إلى أبى موسى الأشعرى ، وهى الرسالة التى جمع فيها – كما يقول المبرد – جمل الأحكام ، واختصرها بأجود الكلام ، وجعل الناس بعده يتخذونها إماماً ، وهذا نصها [١] :

بسم الله الرحمن الرحيم :

من عبدِ الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، إلى عبدِ الله بن قيس : سلامٌ عليك .

أما بعدُ ، فإنَّ القضاءَ فريضةٌ محْكَمَةٌ ، وسُنَّةٌ مُتَّبعةٌ ، فافْهمْ إذا أُدْلى إليك ، فإنه لا ينفعُ تَكلُّمٌ بحقٍّ لا نَفَاذَ لهُ ، آس بَينَ الناس فى وَجهِك ، وعَدْلك ، ومجْلِسك ، حتى لا يَطمَع شرِيفٌ فى حَيْفِك ، ولا يَيْأسَ ضعيفٌ من عَدْلك ، البيِّنةُ على من ادَّعَى ، واليَمينُ على من أنْكَرَ ، والصُّلْحُ جائزٌ بين المسلمين ، إلا صلحاً أحلَّ حراماً ، أو حرَّم حلالا ، لا يَمْنعَنَّكَ قضاءٌ قضيتَه اليومَ ، فراجَعْتَ فيه عقلَك ، وهُديتَ فيه لِرشدِك ، أن ترجِعَ إلى الحقِّ ، فإن الحقَّ قديمٌ ، ومراجعةُ الحقِّ خيرٌ من التمادى فى الباطل ، الفهمَ الفهمَ فيما تَلَجْلَجَ فى صدرِك مما ليس فى كتابٍ ولا سنّة ، ثم اعرفْ الأشباه والأمثال ، فقس الأمورَ عند ذلك ، واعْمِد إلى أقْربِها إلى الله ، وأشبهِها بالحقِّ ، واجعلْ لِمن ادَّعى حقاً غائباً أو بينَةً ، أمداً يَنتهى إليه ، فإنْ أحضرَ بَيِّنتهُ أخذْتَ بحقِّه ، وإلا استحللتَ عليه القضِية ، فإنّ ذلك أنْفَى للشكِّ وأجْلَى لِلعَمَى ، وأبلَغُ فى العُذْر ، المسلمون عُدولٌ بعضهم على بعض إلا مَجلوداً فى حَدّ ، أو مُجَرَّباً عليه شهادة زورٍ ،

---

(١) صبح الأعشى ٣٨٨/٦ ، والعقد الفريد (الطبعة الأولى) ٤٥/١ ، والكامل للمبرد ٩/١

أو ظنّيناً فى ولاء أو نَسب ، فإن الله تولى منكم السرائر ، ودَرَأ بالبينات والأيمان ، وإياك والغَلَق والضَّجر والتّأذّى بالخصوم ، والتنكُّر عند الخصومات ، فإنّ الحقَّ فى مواطِن الحقِّ يُعْظِمُ الله به الأجْرَ ، ويُحْسن به الذُّخرَ ، فمنْ صَحَّت نيَّته وأقبلَ على نفسه كفاهَ الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلَّق للناس بما يَعْلم الله أنَّه ليس من نفسه شَانَهُ الله ، فما ظَنُّك بثواب الله عزَّ وجل ، فى عاجل رزْقِه ، وخزائن رحمته ، والسلام » .

فالميل إلى التحبير والاحتفال ، واختيار جيد اللفظ ، ومحكم العبارة فى هذه الرسالة واضح لكل من رزق نعمة الذوق ، وحسن الفهم ، ومرن على تمييز وجوه الحسن فى الكلام .

وإننا واجدون فيها فوق ذلك من المعنى العميق ، واللفظ الجامع الرشيق ، ما جعل بعض عبارتها يجرى مجرى الأمثال ، ويجرى على الألسنة فى كل زمان !! ألسنا حتى اليوم نتمثل بقوله : « لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له » وقوله : « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » وقوله : « ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل » .. وغيرها من العبارات التى تجمع بين دقة المعنى ، وبلاغة اللفظ ، دون الاعتماد على المبالغة والتهويل والإطناب واقتناص المحسنات البديعية ، والحلى اللفظية !!

وما إن ينتهى عهد عمر ، ويستظل الناس بأخريات أيام عثمان ، حتى تندلع الفتنة التى أودت بحياة الخليفة ، وأوقعت الفرقة والشقاق بين المسلمين ، وخلفتهم وقد مزقهم الخلاف شيعاً وأحزاباً ، وكان من أثر ذلك كله أن غزت الكتابة ميادين الحزبية والخصومات وما نجم عنها من جدل واحتجاج ، وتبادل المطاعن ، أو إبراز المناقب ، فظهر التنميق والتأنق ، على صورة أوضح فى الرسائل المتداولة فى أواخر عهد عثمان ، ثم فى الرسائل المتبادلة بين على ومعاوية ، واكتسب فن الرسالة بعض الخصائص الأدبية ، التى لم تكن له من قبل ، والتى نستطيع أن نلاحظها فى النماذج التالية :

– كتب عثمان بن عفان إلى على بن أبى طالب رضى الله عنهما – حين أحيط به – (١) :

« أما بعدُ : فإنه قد جاوزَ الماءُ الزُّبى ، وبَلغَ الحِزامُ الطُّبْيينِ ، وتجاوَزَ الأمرُ بى قَدْره ، وطمِعَ فِيّ مَنْ لا يدفع عن نفسه .

فإنْ كُنْتُ مَأكُولاً فَكُنْ خير آكلى وإلاّ فَأدْرِكْنى وَلمّا أُمَزَّقِ

فالرسالة عبارة عن طائفة من الأمثال اختيرت بدقة ؛ لتعبر عن الموقف الشديد الذى كان يعانيه الخليفة عثمان ، ويكفى هذا دليلا على غلبة العنصر البيانى فيها ، وهو من أبرز دلائل تطور الرسالة فى هذا العهد ، والميل إلى تجويدها ، كما يلاحظ أن الرسالة قد ختمت ببيت من الشعر ، وهو اتجاه لم نعرفه فى فن الكتابة قبل هذه المرحلة (٢) .

– وكتب معاوية بن أبى سفيان إلى علىّ بن أبى طالب ، وقد وجه إليه رسولا ليأخذ البيعة له : (٣)

---

(١) الكامل للمبرد ١/١١ ، قال أبو العباس المبرد : وتمثله (يعنى عثمان) بالبيت يشاكل قول القائل :

فإن أك مقتولا فكن أنت قاتلى فبعض منايا القوم أكرم من بعض

الزبى : جمع زبية ، وهى حفرة يصاد فيها السبع ، ولا تكون إلا فى الأماكن العالية ، كقمم الجبال ، والروابى والهضاب ، وهذه العبارة كناية عن اشتداد الأمر ، والطبيان : تثنية طبى : وهو من السبع والخيل موضع الخلف من ذوى الظلف والخف ، والثدى من الإنسان ، وإذا بلغ حزام الدابة طبييها فقد انتهى فى المكروه ، لأن الحزام إنما يكون حينئذ عند صدر الدابة ، فالعبارة كناية عن خطورة الوقف . المغلب . الذى غلب كثيراً .

(٢) أعنى بالنسبة للمراحل التى تحدثنا عنها من قبل ، لا بالنسبة للعصر الجاهلى إن صحت الرسائل التى تروى عن بعض الأدباء فى البيئات الجاهلية المتحضرة فمنها ما يجمع بين النثر والشعر – انظر : بلاغة الكتاب فى العصر العباسى (نبيه حجاب) ٤٩

(٣) الكامل للمبرد ١/١٩١

« بسم الله الرحمن الرحيم

مِنْ مُعاوية بن صَخرٍ إلى علىٍّ بن أبى طالب .

أما بعد : لعَمرى لو بايَعكَ القومُ الذين بايعوك ، وأنتَ برىءٌ من دم عُثمانَ ، كُنتَ كأبى بكر وعمرَ وعثمانَ ، لكنك أغرَيْتَ بعثمان المهاجرين ، وخذَّلتَ عنه الأنصارَ ، فأطاعكَ الجاهلُ ، وقوِى بك الضعيف ، وقد أبى أهلُ الشام إلا قتالَك ، حتى تدفع إليهم قَتلةَ عثمان ؛ فإنْ فعلتَ كانت شُورى بين المسلمين ، ولعَمرِى ماحجتك علىّ كحَجتك على طلحة والزبير ؛ لأنهما بايَعاكَ ، ولمْ أبايعك ، وماحُجتك على أهل الشام ، كحُجتك على أهل البصرة ؛ لأن أهل البصرةِ أطاعوك ، ولم يُطعك أهلُ الشام ، وأما شَرفُك فى الإسلام ، وقرابتك من رسول الله ﷺ ؛ أومَوضِعُك من قريشٍ ، فَلَسْتُ أدفَعُه » .

– فرد عَلِىٌّ على هذه الرسالة برسالة قال فيها [١] :

« بسم الله الرحمن الرحيم

مِنْ علىٍّ بن أبى طالب ، إلى مُعاوية بن صَخر .

أما بعد : فإنه أتانى منك كتابُ امرىء ليس له بَصرٌ يهديه ، ولا قائدٌ يُرشِده ، دعَاهُ الهوى فأجابه ، وقاده فاتبَعَه .

زعمتَ أنَّك إنما أفسد عليك بَيعتى خطيئتِى فى حقّ عثمان ، ولَعمْرى ما كنتُ إلا رجلا من المهاجرين ، أورَدْتُ كما أورَدُوا ، وأصْدَرْتُ كما أصدَروا ، وَما كان الله ليجْمعُهم على ضلال ، ولا يَضربُهُم بالعَمَى .

---

(١) الكامل للمبرد ١٩٣/١

وبعد : فما أنْتّ وعثمان !! إنما أنت رجلٌ من بنى أمية ، وبنو عثمان أوْلى بمطُالبة دَمه ، فإن زعمت أنك أقوى على ذلك ، فادخل فيما دَخَل فيه المسلمون ، ثم حاكم القوْمَ إلىَّ .

وأما تميْيزك بينك وبَين طلحة والزُّبيْر ، وأهلِ الشام ووَأهلِ البصرة ، فَلعمْرى ما الأمْرُ فيما هنالِكَ إلا سواء ، لأنها بيعةٌ شاملةٌ ، لا يُستثنى فيها الخيارُ ، ولا يُستأنَفُ فيها النظرَ ، وأما شرَفى فى الإسلام ، وقرابَتى من رسول الله ﷺ ، وَموْضِعِى من قرايشٍ ، فَلعمرى لو استطعت فَعَهُ لدَفعْته » .

فهاتان الرسالتان من النماذج الدالة على تطور جديد لفن الرسالة فى هذا العهد ، وأبرز ملامح التطور فيهما اصطناع أسلوب الجدل والاحتجاج والبرهنة ؛ حيث يأخذ معاوية فى دفع حق على فى الخلافة ، ويتصيد الحجج فى الخروج عليه ، واعتزام قتاله ، ويبرهن على أنه لا حق له فى بيعته وبيعة أهل الشام ، فيرد عليه على مؤنباً ، دامغاً إياه بالميل عن الحق ، واتباع الهوى ، ثم يأخذ فى نقض حججه وبراهينه ، وبيان فسادها ؛ ليثبت حجته ، ويدحض باطل خصمه ، وتكاد البرهنة والاحتجاج يستغرقان الرسالتين من أولهما إلى آخرهما .

اما العناية بالأسلوب ؛ ودقة حبك العبارة ، وحسن تحليتها ، فأمر لا يحتاج إلى بيان ، فالرسالتان تمثلان قمة ما وصلت إليه الكتابة الفنية فى العصر الذى نتحدث عنه ، رتعبران فى الوقت نفسه عن نقلة جديدة فى هذا الفن استجابة لأحداث الصراع على الخلافة ، بعد مقتل عثمان ، وبهذه النقلة ، أو هذا التطور ، دلفت الكتابة الفنية إلى عصر بنى أمية ، فاتسعت آفاقها ، وتنوعت دواعيها وتعددت ، مما اقتضى أن يخصص لها ديوان ، عرف بديوان الرسائل ، وكان له أكبر الأثر فى إنضاجها ، وتقعيد قواعدها .

الملامح الفنية العامة فى عهد الراشدين :

أحرز فن الرسالة تقدما ملحوظا فى عهد الراشدين ؛ لاتساع مجالات الكتابة – إلى حد ما – وتوفر كثير من دواعيها ، مما أمدها بأفكار وموضوعات ومعان جديدة ، وألبسها ثوباً رشيقاً من اللفظ والعبارة جعلها أدخل فى باب فن الكلام ، ولم يحرمها من جمال البساطة ، فكان اتساع نطاقها ، وجنوحها الواضح إلى التعبير الفنى ، مدعاة إلى أن يعدها بعض الباحثين المحدثين ، أكبر تطور حدث فى العهد الراشدى [١] .

ومع أن الرسالة فى هذه الفترة لم تستوف دائماً منهجها فى بنائها العام الذى يقوم على مقدمة وعرض وخاتمة ، وأنها لم تختلف كثيراً عن عهد النبوة فى هذه الناحية ، وأيضاً فى الطابع العام للبدء والختام ، والخلو من ألفاظ التعظيم وعبارات التفخيم ، واقتصرت على ذكر اسمى المرسل والمرسل إليه ، مجردين إلا من الصفات اللازمة ، كالخلافة أو الإمارة وما إلى ذلك ، نقول : مع هذا التشابه بين فن الرسالة فى العهدين ، فثمة بعض الملامح الواضحة ، التى تكشف عن تطور غير قليل فى رسائل عهد الراشدين ، أبرزها :

١ – ظهور بوادر التأثر بالقرآن الكريم لفظاً ومعنى وأسلوبا ، ومن شواهده ، ماجاء فى رسالة أبى عبيدة ومعاذ إلى عمر ، كقولهما : « تعنو فيه الوجوه » فهو معنى مقتبس من قوله تعالى : ﴿ وعنت الوجوه للحى القيوم ﴾ [٢] وقولهما : « والخلق له داخرون » لوحظ فيه قوله تعالى : ﴿ كل أتوه داخرين ﴾ [٣] ، وما جاء فى عهد أبى بكر إلى عمر بالخلافة ،

---

(١) صدر الإسلام (جورج غريب) ١٤

(٢) سورة طه : ١١١

(٣) سورة النمل : ٨٧

كقوله : « لكل امرىء ما اكتسب » مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ لكل امرىء منهم ما اكتسب ﴾ [١] وغير ذلك كثير فى النماذج السابقة .

كما أخذ الاقتباس من عبارة القرآن ، والاستشهاد بآياته يظهر فى بعض رسائل الخلفاء والصحابة ، ومن ذلك قول أبى بكر فى عهده إلى عمر : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ [٢] ، وقول على بن أبى طالب فى رسالته إلى معاوية بعد موقعة الجمل : « .. وإن طلحة والزبير بايعانى ثم نقضا بيعتهما ، وكان نقضهما كردهما ، فجاهدتهما بعد ما أعذرت إليهما ، حتى جاء الحق ، وظهر أمر الله وهم كارهون » فعبارة ﴿ حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾ [٣] هى نص عبارة القرآن .

(٢) بروز عنصر الخيال فى التعبير والتصوير — نوعا ما — وإن اتسم بالوضوح ، والبعد عن الإغراق والتكلف ، كقول عمر فى رسالة القضاء : « وأجلى للعمى » فقد استعار العمى لاشتباه الأمر ، وعدم الاهتداء إلى الحق ، وقول عثمان فى رسالته إلى على : « فقد جاوز الماء الزبى ، وبلغ الحزام الطبيين » كناية عن اشتداد الأمر ، وخطورة الموقف ، وقول على فى رسالته إلى معاوية : « دعاه الهوى فأجابه ، وقاده فاتبعه » فيه من التعبير بالاستعارة ما لا يخفى ... إلى غير ذلك ، مما نجده مبثوثاً فى رسائل هذه الفترة .

غير أن عنصر الخيال فى هذه الرسائل لم يبلغ من الكثرة والتنوع ، والتناسق والتحليق ، ما بلغه فى أواخر العصر الأموى ، فقد خطا النثر فيه خطوة ملحوظة إلى ميدان الشعر ليزاحمه فى التخييل والتصوير .

---

(١) سورة النور : ١١/

(٢) سورة الشعراء : ٢٢٧

(٣) سورة التوبة : ٤٨

٣ - الاستشهاد بالشعر فى ثنايا الرسالة ، أو فى ختامها ، وقد مر بنا ذلك فى رسالة عثمان إلى على ، وكما نجد مثلا فى بعض رسائل معاوية إلى على ، ورد على عليها ، ورسائل الحسن بن على إلى معاوية ، ورده عليها [١] .

على أن الاستشهاد بالشعر فى الرسائل على عهد الراشدين ، لم يكن من الكثرة بحيث يعد ظاهره أسلوبية ، كما جاء فى العصر الأموى ، حيث استفاض الشعر فى الرسائل حتى جاءت بعض رسائله شعراً خالصاً [٢] .

٤ - ومن مميزات أسلوب الرسائل فى هذه الفترة ، القصد إلى الغرض دون إطالة ، أو تكلف ، فالمعانى يقتصر فيها على الحقائق - غالباً ، فى غير مبالغة ، أو تهويل ، والأغراض يقصد إلى الضرورى منها ، بلا زيادة أو تطويل ؛ ولذلك كانت بعض رسائلهم تطول فيها الجمل ، وتمتد العبارات ، ومع ذلك تعد موجزة ؛ لوفائها بالغرض دون تزيد .

على ضوء ما قدمنا يمكن القول : بأن الكتابة ، وإن خطت فى طريق التطور خطوات ليست هينة فى هذا العهد ، فقد وقف هذا التطور عند نهضة محدودة ؛ لكونه الخطوة الأولى فى ميدان الكتابة الفنية ، ولكون الثورات النثرية لا تحدث دفعة واحدة ، وإنما هى بحاجة إلى عامل الزمن ، وإلى الثقافة ؛ ليرقى التعبير على يديهما .

من هنا كانت الأقلام العالية فى العهد الراشدى معدودة ، وكان على ابن أبى طالب أبرز من هيأت له ثقافته ، ومداركه وبلاغته ، النهوض بأقواله ... إلى أرقى ما عرف العصر فى حقل الكتابة الفنية [٣] .

---

(١) انظر مثلا مقاتل الطالبيين (أبو الفرج الأصفهانى) ص ٥٣ (بتحقيق السيد أحمد صقر - الحلبى ١٩٤٩ م) .

(٢) انظر أدب السياسة (الحوفى) ص ٤٣٣

(٣) صدر الإسلام (جورج غريب) ١٧

وإذن ، فقد ظل فن الكتابة بعيداً – إلى حد ما – عن طابع الصناعة الفنية لما ذكرنا ، ولقرب العهد بالبداوة من ناحية ، وانعدام الكتابة الديوانية ، بالمعنى الاصطلاحى المعروف ، من ناحية أخرى ؛ إذ كانت الدواوين مازالت فى كل بلد بلغة أهله ، ومعلوم أن من أهم أسباب نهضة الكتابة الفنية فى العصر الأموى ، وبلوغها مرتبة عالية من النضج والتجويد فى العصر العباسى ، صيرورة الكتابة صناعة ، يختص بها طائفة من الكتاب ، توظفهم الدولة فى دواوينها ، وبخاصة ديوان الرسائل [١] ، الذى تخرج فيه طائفة من أئمة هذا الفن فى العصرين الأموى والعباسى .

* * *

(١) أنشىء ديوان الرسائل فى خلافة عبد الملك بن مروان : انظر : أدب السياسة (الحوفى) ٤٢٣

الفصل الثالث

الخطابة فى ظل الإسلام

تمهيد :

الخطابة قبل الإسلام :

كان عرب الجاهلية قوماً أعظم صناعتهم الكلام ، ولغلبة الأمية عليهم قامت ألسنتهم وحوافظهم مقام الأقلام والدفاتر ، فى تسجيل حياتهم ، والتعبير عما يضطرب فى عقولهم وقلوبهم ؛ ولذا كانت الفصاحة واللسن وقوة الذهن من أبرز مواهبهم ، وإذا صدر الكلام عن هذه المواهب فهو ضارب فى سماء الفن ، محلق فى عالم البلاغة .

لم يكن بد من أن يصطنع عرب الجاهلية فن القول ، وأن ينبغوا فيه ، وكان هذا الفن يتمثل عندهم – غالباً – فى شكلين أدبيين هما : الشعر والخطابة ، حتى قيل : كان الكلام الجاهلى خطابة وشعراً [١] .

على أن العرب الجاهليين كانوا أكثر احتفالا بالشعر ؛ ولذا قدموه على الخطابة ، وقدموا الشاعر على الخطيب ، وما ذلك إلا لأنه يمتاز بالإيقاعات الموسيقية الناشئة عن أوازنه وتفاعيله ، فهو بهذه القيمة أحلى وقعاً فى أسماعهم ، وأسهل حفظاً على حوافظهم ، وأسرع ظيراناً على ألسنتهم فى جنبات الصحراء .

وهم قوم كانوا يحرصون الحرص كله على تسجيل مفاخرهم ومآثرهم

---

(١) تاريخ الأدب (السباعى) ص ١٧٤

وإذاعتها بين القبائل ، كما كانوا يفخرون الفخر كله بقوتهم واقتدارهم على حماية أعراضهم وأحسابهم مما يدنسها ، وينال من علو منزلتها فى الشرف والمنعة ، والشعر بما هيىء له من أسباب الذيوع والانتشار ، أجدى وسائلهم فى تحقيق ما يحرصون عليه ، ويفخرون به ، فإذا أراد شاعر إذاعة مآثر قبيلته ، أو إرهاب عدوها ، أو تقييد فكرة عامة ، أو حدثاً هاماً ، أو حكمة سائرة ، انطلق لسانه بالأبيات أو القصيدة ، فلا تكاد تجاوز شفتيه حتى يتلقفها الرواة ويطيروا بها كل مطار ، فلا تلبث أن تذيع فى القبائل ، ويتغنى بها الركبان والحداة ، وتردد صداها دروب البوادى ومفاوزها .

وما كان للخطابة أن تنازع الشعر فى هذا المضمار « فلم تكن الخطابة تدوى فى القبائل كما يسير الشعر » (١) .

من أجل هذا كانت حفاوة الجاهليين بالشعر عظيمة ، بحيث « كانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد ، أو شاعر ينبغ فيهم ، أو فرس تنتج » (٢) .

على أن تقديم الجاهليين الشعر على الخطابة لا يعنى أن الخطابة كانت قليلة الخطر فى مجتمعهم ، أو هينة المكانة فى نفوسهم .

ففى أخبارهم ما يدل على شدة عنايتهم بهذا الفن ، وتقديرهم لخطره ، وأنه كان يتولاه من بينهم أهل السيادة والرياسة من شيوخ القبائل ، وزعمائها وقوادها ، وأهل البلاغة والكياسة فيها ، فارتبطت مكانة الخطيب بالشرف والرياسة والمهابة فى مجتمعهم ، واشرأبت إليها نفوسهم ، فكان من مظاهر عنايتهم بها أن جعلوا يدربون فتيانهم عليها فى حداثتهم (٣) .

---

(١) تاريخ الشعر السياسى (أحمد الشايب) ص ٢٩ (طبعة النهضة المصرية ١٩٤٥ م) .

(٢) العمدة ٣٧/١

(٣) البيان والتبيين ١٢٦/١

وليس من شك فى أن وراء هذه العناية بفن الخطابة ، وتقدير الجاهليين مكانتها ، ما حفلت به بيئتهم من دواع للخطابة تطلبها ، ومواقف تقتضيها كالتحريض على القتال ، والحض على الأخذ بالثأر ، والدعوة إلى إصلاح ذات البين ، والسفارة بين القبائل ، والوفادة على ملوك العرب وزعمائهم ، والتحكيم فى الخصومات ، والمفاخرة ، والمنافرة ، والمباهاة بقوة العصبية ، ومنعة الجانب ، وشرف النسب ، كل ذلك إلى جانب المناسبات الاجتماعية الهامة فى حياتهم ، كالزواج ، والتهانى ، والتعازى .. وما إلى ذلك ، فكانت الحاجة ماسة فى كل هذه الأغراض إلى تناول هذا الفن من القول ، الذى تفيض به قرائحهم بديهة وارتجالا ، لا يتحملون فيه عناء ، أو يتكلفون رهقاً .

نفهم من هذا أن الخطابة نهضت وازدهرت فى العصر الجاهلى ؛ لتوفر أدلتها ودواعيها ، ومن دلائل نهضة الخطابة وازدهارها آنذاك ، تفضيل الجاهليين نماذج منها ، واختصاصها بأسماء ، تبرزها وتنبه على مكانتها من نفوسهم ، فقد ذكروا من خطبهم : « العجوز » وهى خطبة لآل رقبة ، متى تكلموا فلا بد لهم منها أو من بعضها ، و« العذراء » وهى خطبة قيس بن خارجة ؛ لأنه كان أبا عذرتها ، و « الشوهاء » وهى خطبة سحبان بن وائل ، وقيل لها ذلك من حسنها (١) ، تماماً كما أفردوا بعض قصائدهم وخصوصا بالاستحسان وسموها « المعلقات » .

وتأثير الخطابة الشديد فى نفوس عرب الجاهلية شاهد على مكانتها وازدهارها ، ويكفى أن نشير فى هذا المجال إلى الأثر النفسى الذى تركته خطبة قس بن ساعدة فى النبى ﷺ ، وكان بين من استمع إليها فى سوق

---

(١) الخطابة فى صدر الإسلام (طاهر درويش) ١/٥٤ (دار المعارف بمصر ١٩٦٥ م) .

عكاظ قبل البعثة ، وقد ظل هذا الأثر ماثلا فى نفسه الشريفة بعد مبعثه ، يشهد بتقديره للخطيب ، وإعجابه بخطبته ، فما إن وفد عليه وفد إياد ، قبيلة قس بن ساعدة ، حتى سألهم عنه ، فلما قالوا : إنه هلك ، قال : « يرحمه الله ، كأنى أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أحمر ، وهو يقول : أيها الناس : اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، ليل داج ، ونهار ساج ... » (١) .

ويقوى هذه الدلائل ويعززها كثرة ما روى من أسماء خطبائهم ، وأغلبها أسماء لسادة القبائل وزعمائها وذوى المكانة فيها ، وليس لنا أن نعجب من كثرة خطبائهم ، مع قلة ما وصل إلينا من خطبهم ، إذا عرفنا أنه كان لكل قبيلة خطيب أو أكثر ، كما كان لها شاعر أو أكثر ، أما قلة خطبهم بين أيدينا فلذلك أسباب فنية وتاريخية ، ليس هنا مجال الكلام عنها ، ويسهل الوقوف عليها فى مظانها (٢) ، وإلى هذا يشير القلقشندى فى قوله (٣) : « واعلم أنه كان للعرب بالخطبة والنثر غاية الاعتناء ، حتى قال صاحب الريحان والريعان : إن ما تكلمت به العرب من أهل المدر والوبر من جيد المنثور ، ومزدوج الكلام ، أكثر مما تكلمت به من الموزون ، إلا أنه لم يحفظ من المنثور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره ؛ لأن الخطيب إنما كان يخطب فى المقام الذى يقوم فيه فى مشافهة الملوك ، أو الحمالات ، أو الإصلاح بين العشائر ، أو خطبة النكاح ، فإذا انقضى المقام حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه بخلاف الشعر فإنه لا يضيع منه بيت واحد » .

---

(١) مروج الذهب (المسعودى) ٢٩٤/١ (المطبعة البهية – القاهرة ١٣٤٦ هـ) .

(٢) انظر مثلا : الخطابة فى صدر الإسلام ٥٧/١ – ٦٦

(٣) صبح الأعشى ٢١٠/١ ، وانظر : العمدة ٥/١

ومن أشهر خطبائهم : قيس بن خارجة ، خطيب داحس والغبراء ، وقس بن ساعدة الإيادى ، خطيب عكاظ ، وسحبان بن وائل الباهلى ، وأكثم بن صيفى حكيم العرب ، وكبير قضاتها ، وزعيم خطبائها ، وحاجب ابن زرارة التميمى ، وعلقمة بن علاثة ، وعامر بن الطفيل العامريان ، والحارث ابن ظالم المرى ... وكثير غيرهم ، تطالعنا أسماؤهم فى المصادر العربية القديمة .

وإذا كان من الضرورى لدراسة تطور فن الخطابة فى صدر الإسلام ، أن نقف على الملامح الفنية للخطابة الجاهلية ، نرى من المناسب أن نقدم بعض نماذج من خطب الجاهليين ، تكون بمثابة شواهد على بعض ما نذكره لها من سمات فنية .

– خطب هانئُ بنُ قَبيصةُ الشَّيْبانى يحرِّض قومَه يَوْمَ ذِى قَارٍ (١) :

« يا مَعشَرَ بكرٍ ، هالكٌ معذورٌ ، خيرٌ من ناجٍ فَرُور ، إنَّ الحذَرُ لا يُنجِى من القدَر ، وإنَّ الصَّبرَ من أسبابِ الظَّفَر ، المَنِيَّةُ ولا الدَّنِيَّة ، يا مَعشَرَ بَكرٍ ، استقبالُ الموتِ خَيرٌ من استدْبارِه ، الطَّعنُ فى ثِغرِ النُّحور ، أكرَمُ منه فى الأعْجازِ والظهور ، يا آل بكر : قاتِلُوا فما لِلْمنايا من بُدٌّ » .

– وخطب مرثد الخير – أحد أقيال اليمن فى الجاهلية – فى الصلح بين قومين متشاحنين (٢) :

---

(١) هو من أيام العرب فى الجاهلية كان بين بنى شيبان والفرس : انظر أمالى القالى ١٦٩/١ (دار الكتب ١٩٣٦ م) .

(٢) أمالى القالى ٩٣/١ . لا تنشطوا : لا تحلوا . العون : جمع عوان وهى الثيب ، والمراد لا تشعلوا نار الحرب . أرث النار : زاد من اشتعالها . الجائحة : التى تجتاح كل شىء . الأليلة : الثكل . أبلاد الكلم : آثار الجرح . سبيع وميثم : حيان من أحياء العرب اليمنية .

« لا تُنشطوا عُقُلَ الشَّوارِدِ ، وتُلقِحوا عُونَ القَواعِد ، ولا تُؤرِّثوا نِيرانَ الأحقاد ، ففيها المُتلِفةُ المُستأصِلة ، والجائِحَةُ والأَلِيلَةُ ، وعَفُّوا بالحِلْم أبلَادَ الكَلْم ، وأنِيبوا إلى السبيل الأرشد ، والمنهج الأقصدِ ، فإنَّ الحربَ تقْبِلُ بزِبرِجِ الغُرور ، وتُدْبِرُ بالوَيلِ والثُّبور ، ثم قال :

أَلَا هل أتى الأقوامَ بَذْلِي نصيحةً ... حَبوتُ بها مِنِى سُبيعاً ومَـيثما

وقلتُ اعلَما أنَّ التَّدَابرَ غادرتْ ... عَواقِبُه للذُّلِّ والقلِّ جُرْهُما

ولا تَجْنيا حرْباً تَجُرُّ عليكُما ... عَوَاقِبُها يوماً من الشرِّ أشأما

— وخطب قس بن ساعدة بسوق عكاظ خطبته المشهورة ، فقال (١) :

« أيها الناسُ : اسمعُوا وعوا ، مَن عاشَ مَات ، ومَنْ ماتَ فاتَ ، وكلُّ ما هو آت آت ، لَيلٌ دَاجٍ ، ونهارٌ ساجٍ ، وسماءٌ ذاتُ أبرَاج ، ونجومٌ تزهر ، وبحارٌ تزخر ، وجبالٌ مرساة ، وأرضٌ مُدْحاة ، وأنهارٌ مُجرَاة ، إنَّ فى السماءِ لخَبراً ، وإنّ فى الأرض لَعبراً ، ما بالُ الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضُوا فأقاموا ؟ أم تُرِكُوا فناموا ؟؟ يُقسمُ قُسٌّ بالله قَسماً لا إثم فيه : إنَّ لله ديناً هو أرْضَى له ، وأفضل من دينكم الذى أنتم عليه ، إنَّكم لتأتون مِنَ الأمرِ مُنْكراً ، وأنْشأ يقول :

فى الذَّاهبنَ الأوَّلِينَ م ... مِنَ القُرُون لنا بَصائـر

لَمَّـــا رأيتُ مَوَارداً ... للموت ليس لها مَصادِر

ورأيتُ قومـى نحوهـا ... يَمضى الأكابرُ والأصاغرُ

لا يَرْجعُ الماضى إلَىَّ م ... ولا مِنَ البـاقين غابِـر

أيْقنتُ أنِّى لا محالةَ م ... حيثُ صارَ القومُ صائِر

---

(١) العقد الفريد ٢/٣٨٥ ومروج الذهب ١/٢٩٤ (البهية) .

(ب) أهم الملامح الفنية للخطابة فى الجاهلية :

(١) البديهة والارتجال : فقد كانت الفصاحة موهبة فيهم ، كما كانت ظروف البيئة البدوية لا تطلب منهم التأنق فى شأن من شئونهم ، وكثيراً ما كانت تفاجئهم بالمواقف والأحداث التى تستدعى الخطابة ، فينهض خطباؤهم بالقول ارتجالا ، تُمدهم قريحة حاضرة ، ولغة طيعة .

(٢) استمدت الخطابة موضوعاتها ومعانيها من أغراض حياتهم ، وطبيعة اجتماعهم وعلاقاتهم ، وهى على تعددها كانت محصورة فى نطاق هذه الحياة البدوية البسيطة ، وتمتاز معانيها أيضاً بقربها ووضوحها وبعدها عن التفلسف ؛ إذ كان خطباؤهم يستمدونها من بيئتهم الفطرية ، ومن شئون حياتهم الخالية من التعقيد .

(٣) قوة العبارة وفصاحتها ، واشتمالها على كثير من الألفاظ الغريبة الخشنة ، المستمدة من واقعهم اللغوى المتأثر بهذه المرحلة الحضارية من الحياة العربية .

ولقيام خطبتهم على البديهة والارتجال ، خلت عبارتها من المعاناة التى تظهر فى تكلف الصنعة ، كما قلت فيها ألوان الزخرف اللفظى – غالبا – عدا السجع الذى كان شائعاً فيها ، وبخاصة فى خطب المفاخرة والمناقب والتحريض على القتال ؛ إذ كان السجع محببا إلى نفوسهم ؛ لما فيه من نغم موسيقى ، يقربه من الشعر الذى كانوا يهيمون به ، ويستجيبون لتأثيره ، ومن ثم استعانوا بالسجع فى خطابتهم على التأثير فى نفوس السامعين ، ويأتى قصر العبارة وميلها إلى الازدواج فى المرتبة التالية للسجع شيوعا فى خطبهم .

(٤) الإكثار من استخدام الترادف المعنوى ، فيعبرون عن المعنى الواحد بعبارات شتى ، تأكيدا للمعنى ، وربما كان للارتجال أثر فى ذلك .

(٥) اعتمادها على لغة الحقيقة فى التعبير عن المعانى مع الاستعانة أحياناً بالتخييل والتصوير ، لاستثارة العاطفة ، وإيقاظ الوجدان .

(٦) اشتمالها على كثير من أمثالهم وحكمهم ، لما لها من أثر فى قوة المعنى ، والإقناع به ، وتهيئة النفوس لقبوله ، فهى تؤدى فى خطابتهم ما تؤديه الحجج والبراهين .

(٧) لم تخل خطابتهم من الشعر يطعمون به خطبهم من حين لآخر ، إذ كان كثير من خطبائهم يتمتعون بموهبة الشعر أيضاً ، كعامر بن الطفيل ، وحاتم الطائى ، وحاجب بن زرارة وغيرهم ، فالقول بخلو الخطب الجاهلية من الشعر فيه بعد عن الحقيقة [١] .

(٨) الإيجاز هو الأسلوب الغالب عليها ؛ إذ كان فى طبعهم ، ومناط البلاغة عندهم ، على أنهم كانوا يميلون إلى الإطناب فى أنواع خاصة من خطبهم يرونه أنسب لمناسبتها ، كخطب المفاخرة ، والصلح بين العشائر ، وكان الترادف المعنوى من أهم وسائلهم فى الإطناب ، كما قدمنا .

(٩) الاعتدال فى الخطب من حيث الطول والقصر ، فقلما بالغوا فى طول الطويل وقصر القصير منها .

(١٠) اضطرابها فى مراعاة العناصر الأساسية فى الخطابة ، وهى المقدمة والغرض والخاتمة ، فقلما اكتملت هذه الأجزاء فى خطبة من خطب الجاهليين التى وصلت إلينا .

على هذا النحو كانت الخطابة فى الجاهلية ، فإلى أى حد تأثرت بالإسلام ؟؟ :

– ١ –

ازدهار الخطابة فى ظل الإسلام :

يشهد التاريخ بأن الخطابة سارت منذ أقدم العصور فى ركاب

---

(١) ممن ذهب إلى ذلك الأستاذ السباعى بيومى فى : تاريخ الأدب العربى ص ١٧٨

الثورات والنهضات ، وأنها كانت سلاحاً ماضياً فى الدعوات ، والأحداث الكبار .

وقد مر بنا أن الإسلام كان بمثابة ثورة على الحياة العربية الجاهلية ، وأنه أحدث تحولا خطيراً ، ونهضة شاملة فى حياة العرب ، تخطت حدود البيئة والعصر ، ومن شأن هذا أن ينهض بالخطابة ، ويخلق الخطباء .

ففى ظل الإسلام ارتقت الخطابة مدارج نهضة كبرى ، قطعت بها شوطاً بعيداً إلى عصرها الذهبى ، فى أخريات عهد الراشدين ، وفى عصر بنى أمية ؛ وذلك لشدة حاجة الدعوة الإسلامية الجديدة إليها ؛ إذ كانت وسيلتها المباشرة الوحيدة لمخاطبة الجماعات وإقناعها والتأثير فيها ، ثم لاستنفارها لنشر مبادئها ، بالجهاد ، والغزو ، وتقويض حصون الكفر والشرك ، أو بالتبصير بتعاليمها ، وغزو العقول والقلوب بها ، متخذة الوجدانية والتثقيف سبيلا إلى الأسماع ، وعظاً ، وإرشاداً ، وهداية ، وترغيباً ، وترهيباً ، أو للرد على خصومها ، وتزييف باطلهم بالبراهين والحجج .

ومعنى هذا أن الإسلام أخذ بيد الخطابة ، فزاد من دواعيها ، وارتاد بها حقولا جديدة ، لم تكن تعهدها فى الجاهلية ؛ لأنه دين لم يقف عند المطالب الأخروية للإنسان ، بل جاوزها إلى أمور حياته الدنيا ، فاهتم بها وأولاها عناية شديدة ، ورفع أمور الاجتماع درجات ، حتى فى عباداته ، فلم يدع فرصة للاجتماع إلا حث عليها ، أو أوجبها ، وطلب فيها من القول ما هو ضرورى له ، كخطبة الجمعة والعيدين والوقوف بعرفات ... وغيرها ، ولم تكن الخطابة فى هذه المواقف تقتصر على الوعظ والإرشاد ، والترغيب ، والترهيب ، بل تعدت ذلك إلى ميادين السياسة والاجتماع .

كل ذلك ساعد على ازدهار الخطابة فى ظل الإسلام ، فانبرت

تشرح الدعوة وتؤيدها وتدافع عنها وتبين أهدافها ، وكان الطريق أمامها منفسحاً عريضاً ؛ لأنها أقدر على شرح الحقائق والدعوات والإقناع بها ، فهي – فى حقيقتها – فن هدفه التوجيه والاستمالة والإقناع ، فن يجمع بين البراهين والأقيسة الفكرية والعقلية من جهة ، والعاطفة والخيال ، وجمال البيان من جهة أخرى ؛ ولذا كان هذا الفن لسان الثورات والنهضات والدعوات – كما قلنا .

ثم إن الخطابة مجال تتسع له أفهام العامة والخاصة ، ولم يتعرض لها القرآن بما ينفر منها ، أو يزهد فيها ، فلم يقف منها موقفه من الشعر ، بل حث عليها ، حيث جعلها شعيرة من شعائره فى بعض المواقف الدينية .

كما أنها كانت عدة الرسول فى شتى الأمور ، من دعوة إلى الدين ، إلى بيان لأحكامه ، ومن وعظ وتذكير ، إلى وعيد وتهديد ... وغير ذلك من جلائل الأمور .

واقتدى بالرسول من بعده خلفاؤه ، فحادوا عن ألوان معينة من الشعر كما حاد ، وتناولوا فى خطبهم ماكان يتناول ، وزادوا على ذلك ، فاقتحموا بالخطابة ميادين جديدة ، هيأتها الظروف التى جدت بعد وفاة الرسول ، كالخلاف بين المهاجرين والأنصار على الخلافة ، وردة العرب عن الإسلام فى خلافة أبى بكر ، واتساع الفتوح فى خلافة عمر وعثمان ، وما اقتضاه ذلك من الحث على الجهاد ، وجمع الكلمة والقلوب ، ورسم السياسة لأمراء الجيوش ، والقواد والولاة والمجاهدين ، وتنظيم الجماعة الإسلامية ، والخروج بها من فوضى الجاهلية ، والتهانى بالنصر ، وشكر نعمة الله بالفتح ، إذكاء لروح الجهاد ، وإبرازاً لفضيلته ، بالتركيز على أنه سبيل المسلم إلى الجنة ، ورثاء الشهداء ، إكباراً للاستشهاد وتذكيراً بما أعده الله للشهداء من رفيع المنزلة يوم القيامة .

ولما اندلعت الفتنة بين جماعة المسلمين فى أخريات خلافة عثمان ، وطوال خلاقة على ، ودخل المسلمون من بابها إلى خلاف لم يأت بعده اتفاق ، فرق جمعهم ، وشتت كلمتهم ، وجعل منهم شيعاً وأحزاباً ، كثرت الخطب من دعاة الأحزاب ، كل يدعو لصاحبه ، ويحرض على القتال معه ، ويدافع عن حقه فى الخلافة ، أو يدفع حق الآخرين فيها ، وقام كل ذلك على سطوع الحجة ، ووضوح القصد من جهة ، وعلى حلاوة البلاغة وسحر البيان من جهة أخرى ، وليس هناك ما ينهض بهذه الأغراض نهوض الخطابة .

بهذه العوامل وغيرها تهيأت تربة صالحة ، جعلت من الخطابة شجرة مزدهرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، فقد رحب أفقها ، وتعددت مقاماتها ، وعظم شأنها ، وكثر رجالها ، وتولاها كل ذى مكانة .

وإذن ، فقد ازدهرت الخطابة فى صدر الإسلام ، واحتلت المقام الأول فى ميادين القول ، فزحزحت الشعر عن مكان الصدارة التى كانت له فى الجاهلية ؛ ليتقدم الخطيب على الشاعر .

ولم يقف أثر الإسلام عند هذا الحد فى تطوير الخطابة والنهوض بها ، وصبغها بصبغة تختلف إلى حد كبير عما كانت عليه قبل ظهوره ، فقد نستطيع أن نضيف إلى ذلك تحولات أخرى فى الأغراض ، وفى الطابع العام للخطابة أهمها :

١ - القضاء على بعض مجالات الخطابة الجاهلية ، كخطب المنافرات والمفاخرات ، والتعصب القبلى ، التى كانت تشعل نيران التباغض ، وتؤجج الأحقاد ، وتمزق وحدة الشعب العربى ، فقد جد الإسلام فى القضاء على بواعث هذه الألوان من الخطابة ، بتشديد النهى عن التفاخر بالأحساب والأنساب ، وبما شنه من حرب لا هوادة فيها على العصبية القبلية وبواعثها .

٢ - تحويل مواقف خطابية جاهلية إلى مواقف خطابية إسلامية ، كخطب الغزو والجهاد ، التى حلت محل خطب التحريض على الغارة ، والأخذ بالثأر ، وغيرها مما كان ينبعث عن الصراع القبلى .

٣ - اتخاذ كثير من الخطب فى الإسلام طابعاً دينياً لم يكن موجوداً فى الجاهلية ، كخطب الدعوة إلى الإسلام ، وشرح عقائده ، وخطب الوعظ والترغيب والترهيب ، ونحوها من الأمور الروحية ، التى تتصل بالعقائد والتشريع ، أو تحث على الفضائل ، مبشرة بخيرى الدنيا والآخرة .

ولا ينبغى أن نقارن هذه الخطب بما كان فى الجاهلية من خطب فى الوعظ أو الإرشاد الدينى ، أو التأمل الذهنى فى الكون ودلالته ، فهذا اللون من الخطابة الجاهلية - على ندرته فى كلامهم - إنما كان وليد خواطر وتأملات قلقة ساذجة ، لا ينبعث عن إيمان راسخ ، أو يقوم على عقيدة واضحة المعالم والأهداف .

٤ - ظهور ملامح الخطابة السياسية ، وتدرجها فى طريق النمو والتطور واكتمال العناصر ، حتى أصبحت قسما هاماً من الخطابة الإسلامية فى أواخر هذا العصر ، وفى العصر الأموى ، كالخطب التى دارت حول الخلافة ، وسياسة الرعية ، وكذلك خطب الجهاد والوقائع ؛ لأنها ، وإن كان باعثها دينى ، فإنها ارتدت ثياب السياسة ، حين أصبح من أهدافها أن تقيم للإسلام دولة ، تعلن مبادئه ، وتبسط سلطانه ، وتجمع الناس تحت لواء الطاعة لولى الأمر فى الإسلام .

على أن الخطبة السياسية فى صدر الإسلام لم تخلص تماماً للسياسة ، بل امتزجت فيها السياسة بالإرشاد الدينى ، بل والاجتماعى أحياناً ، على نحو ما سنرى فى دراسة نماذجها .

نعم كانت هناك خطابة فى الجاهلية حول النزاع القبلى ، والسفارة بين القبائل ، ونحوها ، ولكنها كانت فى الغالب ترتدى ثوب المفاخرة ،

وتتشح بالعصبة القبلية ، مما جعل الطابع السياسى فيها ضعيفاً ، لا يتمتع بوجود متميز ، أو ملامح بارزة .

يتضح مما تقدم أن الخطابة فى هذه الفترة التى نؤرخ لها ، قد تنوعت أغراضها وموضوعاتها ، فهى حيناً دينية ، تدعم الدعوة ، وتنبذ الكفر والشرك ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، أو سياسية تعالج أمور الدولة الناشئة ومشكلاتها ، وتوضح سياسة الحكم وترسى قواعده ، وتنظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، أو بين الدولة الإسلامية ومن دخل فى عهدها وذمتها من أهل الكتاب ... أو غير ذلك ، من شئون الحكم والسياسة فى الإسلام ، وقد علا نجم هذا اللون من الخطابة بعد وفاة الرسول ؛ لاختلاف الآراء حول مصير الخلافة ؛ ولمن تكون ، وقد تمتزج فيه العناصر السياسية والدينية ، كما ذكرنا ، وكما سنرى فى دراستنا نماذج من خطب هذا العصر .

وإلى جانب الخطب الإسلامية فى الدين والسياسة ، احتلت الخطابة الاجتماعية الإسلامية مكاناً مرموقاً ، ونهضت برسالتها فى دعم النظام الاجتماعى الإسلامى ، القائم على العدل والمساواة بين المسلمين ، وحمايته من الآفات التى كانت تشوب الحياة الاجتماعية قبل الإسلام .

هذا فضلا عن خطب المحافل والوفود ، فمن المعلوم أن وفوداً كثيرة كانت تفد على النبى وعلى خلفائه ، وفى طليعتهم الخطباء « يبايعون باسمهم ، أو يفاخرون ، أو يهنئون ، أو يعرضون مايشغلهم من كبريات الأمور » [(١)] .

وقد ازدهرت كل هذه الألوان من الخطب ، وبخاصة الدينية والسياسية منها ، وذلك استجابة لتيار الدعوة الجديدة ، واستجابة لأحداث العصر .

---

(١) صدر الإسلام (جورج غريب) ١٢٠ ، وانظر السيرة ق ٥٦٢/٢

ولعل فى مقدمة ما يميز الخطابة فى عهد النبوة والراشدين ، عن الخطابة الجاهلية ، ما امتازت به تلك الخطب من ظواهر معنوية وأسلوبية ، تعد صَدًى مباشراً لأثر القرآن الكريم فى نفوس المسلمين وعقولهم وألسنتهم ؛ إذ كان من الطبيعى أن يكون مجرى الدين الجديد هو المنبع الثر ، الذى تستقى منه الخطابة ، ومن ثم أقبل الخطباء ينهلون من بلاغة القرآن التى لا تنضب .

وقد ذكرنا آنفا ، كيف أحس العرب عند سماع القرآن بالروعة والدهشة ، وأوجزنا القول فى تفسير مناط هذا الإعجاب ، وسقنا بعض الشواهد التى تدل على تميز الأسلوب القرآنى وتفوقه وإعجازه ، وقلنا : إن المسلمين أقبلوا على القرآن ، وأصبح همهم حفظه وتلاوته وتدبره ، وتأمل إعجازه ، ثم انقلبوا ينهلون من معينه فى خطبهم ، فعالجوا موضوعاته ، وقلدوا أسلوبه ، ونهجوا نهجه فى البرهنة والاحتجاج والإقناع ، إلى حد جعل من آياته محجة لمعظم الخطباء ، فارتفعت بذلك كله معانيهم ، وتهذبت ألفاظهم ، وارتقت أساليبهم فى سماء الفصاحة درجات .

يضاف إلى هذا حرصهم فى خطبهم على الاستشهاد بآياته ، والاقتباس من عباراته ، والاستمداد من معانيه ، والاتجاه إلى أغراضه ، فكان القرآن هو المدرسة العظمى التى تخرجت فيها الخطابة الإسلامية ، مترسمة خطاه ، متتبعة هداه ، محاولة أن تبلغ بعض مداه ، ويتضح هذا فيما نورده ، من نماذج لخطب صدر الإسلام ، وتعليقنا عليها .

– ٢ –

دراسة نماذج من خطب العصر :

(ا)

– خطب رسول الله ﷺ الجمعة الأولى بالمدينة ، فقال [١] :

---

(١) الطبرى ٢/٢٥٥ ، أكفره : كفره وكفر به : جحده ، وهو معنى إسلامى =

« الحمدُ لله ، أحمَدهُ وأستَعينهُ : وأستغفره وأستهديه ، وأومِنُ به ولا أكفُرُه ، وأعادي من يَكفُرُهُ ، وَأشهد أن لا إله إلا الله ، وحدَه لا شريكَ له ، وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه ، أرسلَه بالهدى والنورِ والموعظةِ ، على فترةٍ من الرسل ، وقِلَّةٍ من العِلم ، وضلالةٍ من الناس ، وانقطاعٍ من الزمان ، ودُنُوٍّ من الساعة ، وَقُرْبٍ من الأجل ، مَنْ يُطِعِ اللهَ ورسولَه فقد رشد ، وَمَنْ يَعصِهِ فقد غَوى وفرَّط ، وضلَّ ضلالاً بعيداً [1] .

وَأوصيكُم بتقوَى الله ، فإنَّ خَيرَ ما أَوْصَى به المسلمُ المسلمَ أنْ يحُضَّه على الآخرة ، وأن يَأمُرَهُ بتقوى الله ، فاحذَرُوا ما حَذَّرَكُم اللهُ من نفسه [2] ، ولا أفضَلَ من ذلك نصيحةً ، ولا أفضَلَ من ذلك ذِكرا ، وَإنَّ تقوى اللهِ لِمَنْ عَمِلَ به [3] على وَجلٍ ومخافةٍ من ربِّه ، عونُ صدقٍ على ما تَبغُون من أمرِ الآخرة .

ومنْ يُصلِح الذى بينَه وبينَ الله من أمره فى السرِّ والعلانية ، لا يَنوِى بذلك إلَّا وجهَ الله [4] ، يَكُنْ له ذكْراً فى عاجِلِ أمرِهِ ، وذُخراً بعد الموت ، حين يفتقرُ المرءُ إلى ما قَدَّمَ ، وما كانَ مِنْ سِوى ذلك ، يَوَدُّ لو أنَّ بينَه وبيْنَه أمداً بعيدا ﴿ ويُحذرُكمُ اللهُ نَفسه ، واللهُ رءوفٌ بالعباد ﴾ [5] .

= أصله من كفر الشيء : غطاه ، كفرا (بالفتح) وكفرا بالضم . الفترة : مابين كل رسولين من رسل الله . انقطاع من الزمان : ذهاب أكثر الزمان ، وقرب انتهاء الحياة الدنيا . والذخر ، والذخيرة : ما ادخر لوقت الحاجة . الخلف : الاسم من الإخلاف (مصدر أخلف) وهو أن تعد عدة ولا تنجزها .

(١) جملة مقتبسة من قوله تعالى فى سورة النساء : ١١٦ : ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا ، وقوله فى السورة نفسها آية ١٣٦ : « ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً ﴾ .

(٢) عبارة مقتبسة من قوله تعالى فى سورة آل عمران : ٢٨ ، ٣٠ : ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ .

(٣) عمل به : أى بالأمر بالتقوى المفهوم من قوله السابق : وأن يأمره بتقوى الله .

(٤) وجه الله : أى الله ، والمقصود مرضاته ، وما يترتب عليها من ثواب .

(٥) اقتباس من قوله تعالى فى سورة آل عمران : ٣٠ : ﴿ يوم تجد كل =

والذى صَدَقَ قوله ، وأنجزَ وعْدَه : لا خُلفَ لذلك ؛ فإنه يقول عز وجَل : (١) ﴿ ما يُبدَّلُ القولُ لَدَىَّ وما أنا بِظلّامٍ لِلعبيد ﴾ .

فاتَّقُوا الله فى عاجِلِ أمركُم وآجِلِه ، فى السرِّ والعلانية ، فإنه من يَتّقِ الله يُكفِّرْ عنه سَيِّئاتِهِ ويُعظِمْ له أجرَه (٢) ، ومنْ يتّقِ اللهَ فقد فازَ فَوزاً عظيماً » (٣) . إلى أن يقول فى ختامها : « اللهُ أكبرُ ولا قُوَةَ إلاّ بالله العظيم » .

فالخطبة كما نرى تقوم على الوعظ والإرشاد الدينى ، حيث يوصى الرسول السامعين بتقوى الله ، والحرص على مرضاته ، والخوف من غضبه ، ويقرر أن هذه الوصية هى خير ما يوصى به المسلم المسلم ، ويعلل لذلك بما تحققه هذه النصيحة — لمن يعمل بها مخلصا — من عون صادق فى التزود للدار الآخرة ، والفوز بالنعيم الذى أعده الله لمن اتقاه .

كما يحرص الرسول على ربط قيمة هذه التقوى ، وقبولها عند الله ، وترتب الثواب عليها ، بالإخلاص فى النية ، والبراءة من الرياء ، بمطابقة السر العلانية .

وهذا الإخلاص فى التقوى يضمن للمسلم فوزاً عاجلا ، بما يناله من حسن الأحدوثة ، وخلود الذكر الطيب بين الناس ، وآخر آجلا ، يوم يقف المرء بين يدى ربه ، وليس له من زاد أفضل من التقوى .

= نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ، ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد ﴾ .

(١) سورة ق : ٢٩

(٢) اقتباس من قوله تعالى فى سورة الطلاق : ٥ : ﴿ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ، ويعظم له أجرا ﴾ .

(٣) أكثر ألفاظ هذه العبارة مقتبس من قوله تعالى فى سورة الأحزاب : ٧١ ﴿ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ .

وهكذا تتمتع هذه الخطبة بالوحدة الموضوعية ، فهى تدور من أولها إلى آخرها حول الوصية بتقوى الله ، وبيان حقيقة هذه التقوى ، وإبراز نتائجها .

وإذ كانت الخطبة دينية ، فإن الروح القرآنية تشيع فيها ، وتتضح فيما جنحت إليه الخطبة من كثرة الاستمداد من معانى القرآن ، واقتباس بعض آياته ، والاستشهاد بنصوص منه .

كما نلمح تأثير القرآن فى أسلوب الخطبة ، الذى يعتمد أساساً على تدعيم المضمون بالأدلة القرآنية ، وعلى سهولة اللفظ مع جزالته وقوته ، والميل إلى الترسل - غالباً - والازدواج والموازنة - أحياناً - والخلو من السجع تماما .

والخطبة بعد هذا تعتمد أسلوب التكرار لتأكيد المعانى ، فتعرضها فى معارض مختلفة من العبارة ، وهو ما يعرف بالترادف المعنوى ، فتعرضها فى لون من الإطناب ، ومع ذلك فهى - على طولها - تعد أميل إلى الإيجاز إذا قيست بما تكون عليه مثيلاتها من خطب الجمعة عادة .

ونلاحظ كذلك اشتمال الخطبة على كل المراحل الفنية للخطبة ، من مقدمة وعرض وخاتمة .

(٢)

- وخطب ﷺ بالمدينة فقال [١] :

« إنَّ الحمدَ لله ، أحمدُه وأستعينُه ، نعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا ، وسيئاتِ أعمالِنا ، مَنْ يَهدِ اللهُ فلا مُضلَّ لهُ ، ومَن يُضلِلْ فلا هادىَ له ، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

---

(١) السيرة لابن هشام ق ٥٠١/١

إنَّ أحسنَ الحديث كتابُ الله ، تبارك وتعالى ، وقد أفلحَ مَنْ زيَّنهُ اللهُ في قلبه ، وأدْخلَه في الإسلام بعدَ الكُفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس ، إنه أحسنُ الحديثِ وأبلَغهُ ، أَحِبُّوا ما أحبَّ اللهُ ، أحِبوا اللهَ مِنْ كُلِّ قلوبكم ، ولا تَمَلُّوا كَلامَ اللهِ وذِكرَه ، ولا تقْسُ عنه قلوبُكم ، فإنه مِنْ كُلِّ ما يَخلُقِ اللهُ يَختارُ ويصطفى ، قد سمّاه اللهُ خِيرتَه من الأعمال ، ومصطفاه من العباد ، والصالحُ من الحديث ، ومن كل ما أُوتى الناسُ الحلالَ والحرام .

فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، واتقوه حقَّ تقاتِه ، واصدُقُوا اللهَ صالِحَ ما تقولون بأفواهكم ، وتَحابُّوا بِروح الله بينكم ، إن الله يغضبُ أن يُنْكَثَ عهدُه ، والسلام عليكم » .

الخطبة دينية كسابقتها ، فهى تعالج موضوعاً دينياً ، هو حث المسلمين على الإقبال على كتاب الله ؛ وقراءته ، والتقرب بذلك إلى الله ، فهو يحب لعباده أن يحبوا ما أحب ، وقد آثر الله القرآن ، واصطفاه بحبه .

والرسول يبغى من وراء هذه العظة أن يتدبر المسلمون كتاب الله ، فيكون ذلك درعا لهم من الانتكاث فى الكفر بعد الإيمان ، وهدياً يرشدهم إلى تقوى الله ، والاستمساك بحبل دينه ، ونبراساً يتمثلونه فى سلوكهم قولا وعملا .

وهى كسابقتها أيضاً ، تستمد من مجرى القرآن ، وتقتبس من آياته ، كما نرى فى قوله ﷺ : « من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له » وهو معنى قرآنى اقتبس مع بعض عبارته من قوله تعالى [١] : ﴿ من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾ وقوله ﷺ : « إن أحسن الحديث كتاب الله » مستمد أيضاً من قوله تعالى [٢] : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً ... ﴾ .

---

(١) سورة الكهف : ١٧

(٢) سورة الزمر : ٢٣

ويلاحظ اتفاق الخطبتين فى المقدمة ، التى تدور حول حمد الله والثناء عليه ، واختلافهما فى الخاتمة ، فقد ختمت الأولى بعبارة (الله أكبر ولا قوة إلا بالله العظيم) بينما ختمت الأخرى بعبارة (والسلام عليكم) .

والطابع الغالب على العبارة فيهما هو الترسل ، واصطناع لغة الحقيقة فى الأداء .

(٣)

وخطب رسول الله فى حجة الوداع ، وهى آخر خطبة له : فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه [١] :

« أيها الناس : اسمعوا قولى ، فإنى لا أدرى لعلّى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا .

أيها الناس : إنَّ دماءَكم وأموالكم عليكم حرامٌ إلى أن تلقوا ربكم ، كحُرمَةِ يومِكم هذا ، وكحرمةِ شهرِكم هذا ، وإنّكم ستلقَوْن ربَّكم ، فَيسأَلُكمْ عن أعمالكم ، وقد بلَّغتُ ، فمنْ كانتْ عنده أمانة فليؤدِّها إلى مَنِ ائْتَمنهُ عليها ، وإنَّ كلَّ رِباً موضوع ، ولكنْ لكم رُءُوس أموالِكم ، لا تَظلِمون ولا تُظلَمون ، قضَى اللهُ أنه لا رِباً .

أما بعدُ ، أيها الناس : فإنَّ الشيطانَ قد يئسَ من أن يُعْبَد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه إنْ يُطَعْ فيما سوى ذلك فقد رضَى به مما تَحقِرُون من أعمالكم ، فاحذرُوهُ على دينكم .

أيها الناس : إنَّ النَّسيءَ زيادةٌ فى الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا ، يُحلُّونه عاماً ، ويحرِّمونه عاماً ، لِيواطِئوا عدَّةَ ما حرم اللهُ ، فيُحِلُّوا ما حرَّم اللهُ ، ويحرِّموا ما أحلَّ اللهُ ، وإن الزمانَ قد استدَارَ كهيئته يومَ خَلَقَ اللهُ

---

(١) السيرة لابن هشام ق ٦٠٢/١

السمواتِ والأرضَ ، وإن عدَّةَ الشُّهور عند الله اثنا عشر شهراً ، منها أربعةٌ حُرُمٌ ...

أما بعدُ ، أيها الناسُ : فإنَّ لكم على نسائكم حقاً ، ولهُنَّ عليكم حقاً ، لكمْ عليهنّ أن لا يوطِئنَ فُرُشَكم أحداً تكرهونه ، وعليهنّ أن لا يأتينَ بفاحشة مُبيِّنة ، فإنْ فعلْنَ فإنّ الله قد أذنَ لكم أنْ تهْجُروهن فى المضاجع ، وتَضربوهنّ ضرْباً غيرَ مُبرّح ، فإن انتهينَ فلهنّ رِزْقهنّ و كِسوتهنّ بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهنّ عندكم عوَانٍ (أسيرات) لا يَملكنَ لأنفسهنّ شيئا ، وإنّكم إنما أخذْتُموهنّ بأمانةِ الله ، واستحللتم فروجهنّ بكلماتِ الله .

فاعقلوا أيُّها الناسُ قوْلى ، فإنى قد بلّغتُ ، وقد تركتُ فيكم ما إن اعتصمتُم به فلن تَضلُّوا أبدا ، أمراً بيّناً ، كتاب الله وسنةَ نبيه .

أيُّها الناس اسمعوا قولى وَاعْقِلوه ، تعلمنّ أن كلّ مسلم أخٌ للمسلم ، وأن المسلمين إخوةٌ ، فلا يَحلُّ لامرىءٍ من أخيه إلّا ما أعطاه عن طِيبِ نفسٍ منه ، فلا تَظْلمنّ أنفسكم .

اللّهم هل بَلَّغْت ، اللّهم اشْهَدْ » .

وأول ما يلاحظ على هذه الخطبة تعدد موضوعاتها ، من وعظ دينى ، وإرشاد اجتماعى ، وتشريع أحكام .

— فقد ذكر الرسول الناس فيها بالموت والحساب ، وحذرهم من طاعة الشيطان ، وأكد حرمة الربا والنسىء فى الإسلام وأوصى بالمرأة خيرا ، وعالج جانباً من جوانب علاقتها بالرجل فى ظل العدل الإسلامى ، وأبان عن حرمة المال الخاص ، ونهى عن الاعتداء عليه ... إلى غير ذلك من أمور الدين والدنيا .

ولعل ظروف هذا الموقف الخطابى الخاص ، الذى يودع فيه الرسول أمته ، هى التى أملت على الخطبة هذا التعدد فى الموضوع ؛ لحرصه ﷺ على تأكيد هذه الأمور ، وتقريرها فى عقول المسلمين وضمائرهم قبل أن يفارقهم ، وتحديد المنهج الذى يلتزمونه ، ويسيرون على هديه من بعده ، وهو العمل بكتاب الله وسنة نبيه .

وكل هذه المواضيع مما عالجه القرآن ، فهى منه تستمد ، وعليه تعول ، وقد غلب لفظ القرآن على بعضها ، من ذلك ماذكره الرسول ﷺ عن النسىء ، فهو يكاد يكون نص القرآن فيه [(١)] ، وقوله : ﴿ لا تظلمون ولا تظلمون ﴾ وقوله : ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ﴾ وقوله : ﴿ أن لا يأتين بفاحشة مبينة ﴾ وكلها عبارات ومعان قرآنية .

وقد نلاحظ كذلك أن هذه الخطبة ختمت بعبارة : (اللهم هل بلغت اللهم اشهد) وهى تختلف فى ذلك عن سابقتها .

(٤)

– وخطب ثابت بن قيس بن الشماس ، بين يدى رسول الله ﷺ ، رداً على خطيب وفد بنى تميم ، فقال [(٢)] :

« الحمدُ لله الذى السمواتُ والأرضُ خَلْقُه ، قَضَى فيهنّ أمرَه ، ووسِعَ كُرْسِيُّه علمه ، ولمْ يكُ شيءٌ قطّ إلا من فضله ، ثمَّ كان مِنْ قُدرته أنْ جَعلنا مُلُوكاً ، واصطفى مِنْ خيرِ خَلْقِه رسولا ، أكرمَه نسباً ، وأصدَقَه حديثاً ، وأفضَله حَسَبًا ، فأنزَلَ عليه كتابه ، وائتمنَه على خلْقه ، فكان

---

(١) انظر : سورة التوبة : ٣٧

(٢) انظر قصة هذا الوفد ، ونص الخطبة فى : السيرة لابن هشام ق ٥٦/٢

خِيرَةَ اللهِ من العالمين ، ثمَّ دعا الناسَ إلى الإيمان به ، فآمن برسول الله المهاجرون مِنْ قومه ، وذَوِى رَحِمه ، أكرم الناسِ حَسباً ، وأحسن الناس وجوهاً ، وخير الناس فَعالاً .

ثمَّ كان أول الخلْق إجابةً ، واستجاب لله حين دعاه رسولُ الله ﷺ نحنُ ، فنحنُ أنصارُ اللهِ ووزراءُ رسوله ، نقاتلُ الناسَ حتى يُؤمنوا بالله ، فَمنْ آمن بالله ورسولِه ، مَنعَ مِنّا ماله ودَمَه ، ومن كفر جاهدناهُ فى الله أبداً ، وكان قتْلُه علينا يسيراً .

أقُولُ قَوْلِى هذا ، وأستغفرُ الله لى وللمؤمنين والمؤمنات والسَّلام عليكم » .

ولعل خير ما نعلق به على هذه الخطبة ، لنستبين روحها الإسلامية ، ومدى تأثرها بالهدى الإسلامى ، أن نورد خطبة وفد بنى تميم ، التى ألقاها - مفاخرا - عطارد بن حاجب بن زرارة التميمى ، أمام رسول الله ، قال عطارد [١] :

الحمدُ لله الذى له علينا الفضلُ والمَنُّ ، وهو أهلُه ، الذى جعلَنا ملوكا ، ووهبَ لنا أموالاً عِظاماً ، نفعلُ فيها المعروفَ ، وجعلنا أعزّ أهلِ المشْرِق ، وأكْثرهُ عدداً وأيسرَهُ عُدّةً ، فمنْ مِثْلُنا فى الناس ؟! .

ألسْنا بِرؤوسِ الناسِ ، وأولى فضْلِهم ؟ فَمنْ فاخرَنا فَلْيُعدّد مثل ما عدَّدْنا ، وإنا لو نشاء لأكثرْنا الكلام ، ولكنّنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا ، وإنا نُعرف بذلك ، أقول هذا لأن تأتُوا بمثل قولِنا ، وأمرٍ أفضلَ منْ أمرِنا » .

---

(١) المرجع نفسه .

ولقد فعل خطيب رسول الله ، فجاء بأفضل من أمرهم ، وقال أحسن من قولهم .

مجّد الله خالقا للسموات والأرض ، قادرا ، مدبرا أمر الكون كله ، عالما ، وسع كرسيه علمه ، واعتز برسول الله ، هادياً ورسولا ، وبالإيمان به ونصرته ، وقدم المهاجرين لسبقهم إلى الإسلام ، وجعل الإيمان بالله ورسوله – لا العصبية القبلية – مناط السلم والحرب بين المسلمين والمشركين ، فمن آمن عصم ماله ودمه ، ومن كفر قوتل فى الله أبدا ، وعبر عن ثقة المسلمين بدينهم ، وتحمسهم للجهاد فى سبيله ، وأن تلك الثقة ، وهذا التحمس ، تتضاءل أمامها قوة أهل الكفر مهما عظمت (وكان قتله علينا يسيرا) .

فشتان بين هذه المعانى والدوافع الإسلامية العليا ، والمعانى والدوافع التى أثارها ، وصدر عنها خطيب بنى تميم الجاهلى المشرك .

خطيب الإسلام يحلق فى سماء دعوة سامية عامة ، ويتكىء على مبادىء إنسانية راقية ، وخطيب الشرك يحبو على أرض العصبية القبلية الذميمة ، المحدودة الأفق ، فيعتز بكثرة المال والعدد ، ووفرة العدة ، ويربط السيادة والقوة بهذا ، ويفاخر به لا بغيره .

وهذا الفرق الذى ألمحنا إليه هو الذى أدهش القوم ، وحيرهم سره ، وعبروا عن هذه الحيرة بقولهم عن رسول الله ﷺ [١] : « إن هذا الرجل لمؤتى له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ... ولأصواتهم أحلى من أصواتنا » .

وما درى القوم فى دهشتهم وحيرتهم أن الأمر ليس أمر بلاغة أو حلاوة صوت ، وإنما السر كل السر يكمن فى هذه الروح الجديدة ، التى يستشعرونها لأول مرة بواجداناتهم ، ولا يحققونها بعقولهم ، وفى هذه المعانى التى لم يعهدوها من قبل ، ولم تجر على ألسنة خطبائهم .

---

(١) السيرة لابن هشام ق ٢/٥٦٧

(٥)

– وخطب أبو بكر الصديق عند وفاة الرسول ﷺ ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال [١] :

« أيُّها الناسُ : إنه منْ كان يَعبُد محمداً ، فإن محمداً قد مات ، ومَنْ كان يعبدُ الله فإنّ اللهَ حيٌّ لا يموتُ : ﴿ وما مُحمّدٌ إلا رسول قد خَلتْ مِنْ قَبلِه الرسُلُ ، أفإنْ ماتَ أوْ قُتِلَ انقلبتم على أعقابِكُم ؟! ومَنْ ينْقِلبْ على عَقِبيْه فلنْ يضُرّ اللهَ شيئاً ، وسيجزِى اللهُ الشاكرين ﴾ » [٢] .

فهذه الخطبة أوضح دليل على مدى تأثر الخطابة بالقرآن الكريم فى فترة مبكرة من صدر الإسلام ؛ حيث يقوم بناؤها على آية قرآنية ، تمثل أكثر عبارتها ، وتقوم فيها مقام الدليل والخاتمة معا .

وهى – على إيجازها الشديد – تمثل أسلوب القرآن فى البرهنة والإقناع ، وهو أسلوب يتجه إلى العقل ، فيبسط أمامه الحقائق المسلمة ، ومنها يصل إلى النتيجة التى لا يملك العقل إلا التسليم بها .

ولقد أحدثت هذه الخطبة – من هذه الناحية – التأثير المرجو ، والإقناع المطلوب ، فما إن سمعها عمر – رضى الله عنه – حتى قال [٣] : « والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ، حتى وقعت إلى الأرض ، ما تحملنى رجلاى ، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات » .

---

(١) المرجع السابق ق ٦٥٦/٢

(٢) مابين قوسين آية قرآنية مقتبسة بعبارتها كلها . انظر : سورة آل عمران ١٤٤

(٣) السيرة لابن هشام ق ٦٥٦/٢

وما ذاك من عمر إلا أنه اقتنع – حين سمع الآية الكريمة – بأن الرسول ليس معصوما من الموت ، وأن الكارثة قد وقعت بوفاته .

(٦)

– وخطب أبو بكر أيضا فى سقيفة بنى ساعدة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال [١] :

« أيُها الناسُ : نحنُ المهاجرون ، أولُ الناسِ إسلاماً ، وأكرمهمْ أحساباً ، وأوسطهم داراً ، وأحسنُهم وجُوهاً ، وأكثرُ الناس ولادَةً فى العرب ، وأمسُّهُمْ رَحِماً برسول الله ﷺ ، أسلمْنا قبلكم ، وقُدِّمنا فى القرن عليكم ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ والسابِقون الأولون مِن المهاجرينَ والأنصارِ ، والذين اتبعوهم بإحسان ﴾ [٢] .

فنحنُ المهاجرون ، وأنتمُ الأنصارُ ، إخواننا فى الدينِ ، وشُركاؤنا فى الفئْء ، وأنصارُنا على العدوِّ ، آوَيتمْ ونصرْتمْ ، فجزاكُم اللهُ خيراً ، فنحنُ الأمراءُ ، وأنتم الوزراءُ ، لا تدينُ العربُ إلا لهذا الحيّ من قريش ، فلا تنفُسُوا على إخوانكم ما مَنحهُمُ اللهُ منْ فضله » .

وأهم ما يلاحظ فى هذه الخطبة :

(أ) أنها تعالج موضوعا سياسيا ، وهو الخلاف بين المهاجرين والأنصار حول حق الخلافة ، ومن أولى به .

(ب) أن الخطيب يمزج بين الأدلة العقلية والنقلية فى البرهنة والاحتجاج .

---

(١) البيان والتبيين ١٨١/٣

(٢) سورة التوبة : ١٠٠

(جـ) قصر الجمل والتنويع فى الأسلوب ، من خبر وإنشاء ، وجمل إسمية وأخرى فعلية ، مع غلبة الازدواج والموازنة بين العبارات ، وندرة السجع .

(د) خلت الخطبة تماما من الخاتمة .

(٧)

وخطب أيضا حين جاءه مال من البحرين ففرقه على الناس بالسوية فغضب الأنصار ، وقالوا : فضِّلنا ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى ، ثم قال [(١)] :

« لقدْ صَدَقْتُم ، فإنْ أردتُم أنْ أفضّلكم صارَ ما عملتموه للدنيا وإنْ صبرْتم كان ذلك لله عزَّ وجلّ .

يا معشرَ الأنصار ، إنْ شئتم أن تقولوا : آويناكم فى ظلالنا ، وشاطرناكم فى أموالنا ، ونَصرْناكم بأنفسنا قُلتُم ، وإنّ لكم من الفضلِ مالا يحْصيه العدَدُ ، وإنْ طالَ به الأمدُ ، فنحن وأنتُم كما قال طفيلٌ الغنوى [(٢)] :

جَزَى اللهُ عنّا جعفراً حين أزْلقتْ ... بنا نَعْلنا فى الواطئين فَزلّتِ

أبَوْا أنْ يَملُّونا ولوْ أنّ أمّنا ... تُلَاقِى الذى يَلْقوْنَ منا لَملّتِ

هُمُ أسكنونا فى ظلالِ بيوتهم ... ظِلال بيوتٍ أدَفأتْ وأظلتِ [(٣)]

موضوع الخطبة يتصل بمبدأ من مبادىء العدالة الاجتماعية فى

---

(١) زهر الآداب (الحصرى) ٣٩/١ (طبعة الرحمانية – القاهرة ١٩٢٥ م) .

(٢) أزلقت : زلت . الواطئين : أهل القهر والمهانة – وطفيل الغنوى : من بنى غنى ابن أعصر بن سعد بن قيس عيلان ، شاعر جاهلى من شعراء قيس المعدودين ، قيل عنه : إنه أوصف العرب للخيل ، حتى كان يسمى عندهم طفيل الخيل ؛ لكثرة وصفه إياها .

(٣) أسكنونا فى ظلال بيوتهم : كناية عن العز والمنعة .

الإسلام ، التى تفرض المساواة بين المسلمين فى كل الحقوق ، ومنها توزيع الثروة .

والخطيب يسلك منهجا إرشاديا لإقناع الأنصار بالعدول عن موقفهم الخاطىء ؛ ولذا اتسم الأسلوب بالرفق واللين ، وقوة التأثير ، مستعينا ببعض الوسائل الفنية فى الأداء ، ومن ذلك بعض العناية بالسجع ، الذى يصدر من الخطيب عفو الخاطر ، دون تكلف له ، أو قصد إليه ، فإذا اقترن السجع بالموازنة ، اكتسبت العبارة مزيدا من الجمال والتأثير ، مثل : (آويناكم فى ظلالنا ، وشاطرناكم فى أموالنا) و (ما لا يحصيه العدد ، وإن طال به الأمد) ومن الوسائل الفنية فى النص المقابلة المعنوية . فى : (صار ما عملتموه للدنيا ، كان ذلك لله عز وجل) .

بهذه الوسائل وغيرها مما سنذكره بعد ، استطاع الخطيب أن يحدث التأثير المطلوب فى قلوب الأنصار وضمائرهم ، مما جعلهم يدركون خطأ موقفهم ، ويعتذرون للخليفة قائلين : « ما ابتغينا بعملنا إلا وجه الله » ، وينصرفون راضين .

والعناية بالناحية الجمالية واضحة فى النص ، وهى تدل على مدى التطور السريع الذى سارت فى طريقة الخطبة ، نحو الاهتمام بهذه الناحية فى أسلوبها .

وتمدنا هذه الخطبة باتجاه أسلوبى آخر ، يتمثل فيما استشهدت به من الشعر ، ويهمنا هذا الاستشهاد من ناحيتين :

أولاهما : براعة التمثيل – وهى شاهد يضاف إلى ما سبق على الاتجاه إلى التجويد والتنسيق – حتى لكأنما صنع هذا الشعر لهذا الموقف خاصة .

والأخرى : الرد على من زعم أن خطب صدر الإسلام قد خلت تماما

من الاستشهاد بالشعر ، فقد تصدى بعض الباحثين (١) لبيان خصائص الخطابة فى هذا العصر ، وعد فى مقدمتها ، عدم الاستشهاد بالأبيات الشعرية ، تمشيا مع الرسول الذى تنكر للشعر ، فما أجراه فى خطبه ، وفى ذلك خروج على الخطبة الجاهلية ، التى كانت – أحيانا – مزيجا من نثر وشعر » .

وخطأ هذا الادعاء واضح ، فما خلت خطب صدر الإسلام من الشعر ، ولا تنكر الرسول للشعر ، والخطبة التى بين أيدينا شاهد صدق على بطلان الزعم الأول ، كما أننا سنبرهن خلال دراستنا للشعر فى العهد النبوى على بطلان الزعم الآخر .

وليست هذه الخطبة نموذجا فريدا فى الاستشهاد بالشعر . فهناك نظائر لها فى هذا الاتجاه ، وبخاصة فى بعض خطب الإمام على كرم الله وجهه (٢) .

(٨)

– وخطب عمر بن الخطاب ، وهى أول خطبة له فى خلافته (٣) :

« إنما مثل العرب مثل جملٍ أنِفٍ ، اتبعَ قائدَهُ ، فلينظر قائدهُ حيثُ يقودُه ، وأما أنا ، فَوَرَبِّ الكعبةِ لأحملنكم على الطريق » .

هى خطبة سياسية ، يقرر فيها الخليفة موقف العرب من قادتهم ، وواجب القادة نحوهم ، ويحدد المنهج الذى اختاره فى سياستهم .

ثم إنها من الناحية الأسلوبية تمثل أقصى ما بلغت خطابة العصر فى ميلها إلى الإيجاز من ناحية ، كما تشهد بمدى تقدم هذه الخطابة فى ميدان

---

(١) هو الأستاذ جورج غريب فى كتابه : صدر الإسلام ١٢١

(٢) انظر مثلا خطبة الإمام على فى : تاريخ الطبرى ٤٣/٦

(٣) تاريخ الطبرى ٥٤/٤ . أنف : يشتكى وجعاً بأنفه من البرة – وهى حلقة فى أنف البعير – فهو ينقاد لصاحبه بسهولة .

العناية بالناحية الجمالية فى الأسلوب من ناحية أخرى ، إذ تكاد تقوم على هذا التشبيه التمثيلى ، فى قوله : (إنما مثل العرب ... حيث يقوده) والكناية ، فى قوله : (لأحملنكم على الطريق) .

وليس من المعقول أن يكون عمر قد أهمل تقديم هذه الخطبة بحمد الله والثناء عليه ، كما هو الشأن فى خطب العصر كلها ، وهو أمير المؤمنين ، المتأدب بأدب الإسلام ، والمعروف بشدته فى التمسك بتقاليده ، وغيرته عليها ، والمعقول أن تكون الرواية هى التى أسقطت مقدمتها ؛ لما كان مشهورا بين الناس أن حمد الله والثناء عليه كان بدءا لخطابة العصر كلها .

(٩)

– وخطب عمر أيضاً ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وذكر الناس بالله عز وجل ، واليوم الآخر ، ثم قال [١] :

« يأيُّها الناسُ : إنى وليتُ عليكم ، ولوْلا رجاءُ أنْ أكون خيرَكم لكم ، وأقوَاكم عليكم ، وأشدكم استطلاعاً بما ينوبُ منْ مُهم أموركم ، ما توليتُ ذلك منكم ، ولكفى عمرَ مُهِمًّا مُحزناً انتظارُ مُواقعةِ الحسابِ ، بِأخذ حقوقكم ، كيفَ آخذُها ؟ ووضعه ، أينَ أضَعها ، وبالسير فيكم ، كيف أسيرُ ، فربِّى المستعانُ ، فإنَّ عُمرَ أصبح لا يثقُ بقوةٍ ولا حيلةٍ ، إنْ لمْ يتداركه الله عز وجل برحمته ، وعونِه وتأييده » .

فى هذه الخطبة تمتزج العناصر الدينية بالعناصر السياسية ، وتبدو الملامح السياسية فيما عبر عنه عمر من أنه إنما قبل القيام بمسئولية الحكم ؛ لما توسمه فى نفسه من قدرة على إقامة العدل بين الناس ، وحسن رعايتهم ،

---

(١) تاريخ الطبرى ٣٥/٥

والجد فى تحقيق مصالحهم ، ثم فى اعترافه بثقل المسئولية الملقاة على عاتقه ، باعتباره حاكما مسلما ، مسئولا عن سياسة جماعة المسلمين ، فى أمورهم الدينية والدنيوية ؛ ولذا نراه يتجه إلى الله فيما يشبه الابتهال والتضرع الدينى ، مستعينا به ، مستنجداً برحمته وعونه وتأييده ، وكلها معان دينية .

ومع أن الخطبة تتحرك فى مجال يطول فيه القول ، فإنها تحتفظ بطابع خطب العصر – حتى عهد عمر – فى إيثار الإيجاز ، والقصد فى العبارة ، والاكتفاء منها بما يؤدى الغرض المنشود .

والخطبة بعد هذا تستمد من القرآن بعض معانيها (فربى المستعان) و (يتداركه الله برحمته) ، كما عنيت بالناحية الجمالية ، فزينت العبارة ببعض ألوان من الازدواج ، وتنوع الجمل والأساليب .

(١٢)

– وخطب الإمام على ، وهى – فيما يقال – أول خطبة له فى خلافته ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه (١) :

« إنَّ الله تعالى أنزلَ كتاباً هادياً ، بيَّنَ فيه الخيرَ والشرَّ ، فخُذُوا بالخير ، ودَعُوا الشرّ ، إن الله حرَّم حُرماً مجهولة ، وفضل حرمةَ المسلم على الحُرَم كلِّها ، وشد بالإخلاص والتوحيدِ حقوق المسلمين ، والمسلمُ من سلِم المسلمون من لسانه ويده (٢) ، إلا بالحق ، لا يحلُّ لمسلمٍ أذى مُسلمٍ إلا بما يجبُ .

---

(١) البداية والنهاية (ابن كثير) ٢٢٦/٧ (مطبعة السعادة – القاهرة ١٩٣٢ م) .

(٢) الجملة الأخيرة مقتبسة من حديث نبوى بلفظه . انظر : اللؤلؤ والمرجان ١٠/١

بادِرُوا أمر العامة ، وخاصة أحدكم الموت ، فإن الناس أمامكم ، وإنما خلفكم الساعةُ ، تَحدُو بكم ، فتخففوا تَلحقُوا ، فإنما يُنتظر بالناس أُخراهم .

اتقوا الله عباد الله فى عباده وبلاده ، فإنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم ، ثم أطيعوا الله ولا تعصوه ، وإذا رأيتم الخير فخذوا به ، وإذا رأيتم الشر فدعوه ، ﴿ واذْكُروا إذ أنتمْ قليلٌ مستضعفون فى الأرض ، تخافون أنْ يتخطفكمُ الناسُ ، فآواكم ، وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيباتِ ﴾ »[١] .

هذه خطبة من خطب الإمام على التى اشتهر بها فى الزهد والمواعظ ، والقارئ لهذه الخطبة وأمثالها فى هذا الباب ، يخيل إليه أن الإمام رجل لاحظ له فى غير الزهادة ، ولا شغل له بغير العبادة ، ويكاد ينسى أنه البطل المغوار ، الذى ما اقتحم معركة إلا عاد منها بسيف قد ارتوى من دماء الأعداء ، والشجاع الذى ضربت بشجاعته الأمثال ، وما ذلك إلا لأن معانيه فى الزهد والمواعظ تحلق فى سماء عالية ، وتطوف على النفوس العاصية ، والقلوب اللاهية فتوحى إليها الرشاد ، وتقوم منها المعوج ، وتبتعد بها عن مهاوى العصيان ، لتدنيها من مغانى الفضل والكمال .

وتكاد تكون خطبته الدينية هذه تفسيراً لتعاليم القرآن ، وتفصيلا لها ، ولا عجب ، فالإمام متشبع بإسلامه المبكر ، وبطول الصحبة لرسول الله والقرب منه .

وخطبته التى بين أيدينا تعكس هذه النواحى ، كما تعكس طابعه العام الذى لا يفصل بين الدين والسياسة والاجتماع فى خطبه ؛ إذ السياسة عنده وجه من وجوه الدين ، أو هى سياسة الدنيا بالدين .

---

(١) مابين القوسين مقتبس من آية قرآنية بلفظها . انظر : سورة الأنفال : ٢٦ .

وأسلوب الإمام على – كما يبدو فى الخطبة – يميل كثيراً إلى التحبير والتأنق فى صوغ العبارة وتزيينها ، فهو يستخدم الطباق (الخير والشر) و (أمامكم وخلفكم) والاستعارة (تخففوا تلحقوا) والصورة وسيلة هامة من وسائل الأداء فى أسلوب الإمام بعامة .

ويلاحظ أن الخطبة ختمت بآية قرآنية .

(١١)

وخطب أيضاً ، وقد انتهى إليه أن خيلا لمعاوية وردت الأنبار (١) فقتلوا عامله عليها حسان بن حسان البكرى ، ونهبوا الأموال ، وانتهكوا الحرمات ، فقام فى أهل العراق خطيباً ، يحثهم على الجهاد ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه (٢) :

« أما بعد : فإن الجهاد بابٌ من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبةً عنه ، ألبسه الله الذل ، وسِيمَ الخَسف (٣) ، ودُيِّث بالصَّغار (٤) .

وقد دعوتكم إلى حرب هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً ، وسِراً وإعلاناً ، وقلت لكم : اغزوهم من قبل أن يغزوكم ، فوالذى نفسى بيده ما غُزِى قوم قَطّ فى عُقْر (٥) دارهم إلا ذَلُّوا ، فتخاذلتُم ، وتواكلتُم ، وثَقُلَ عليكم قولى ، واتخذتموه وراءكم ظِهرِيًّا ، حتى شُنَّت عليكم الغاراتُ .

---

(١) خيلا وردت الأنبار : أراد فرسانا على خيل وهو مجاز ، الأنبار بلد بالعراق .

(٢) الكامل للمبرد ١٣/١ – ١٤ ديث : ذلل . أخو غامد : رجل مشهور من أصحاب معاوية من بنى غامد . الرعث : جمع رعثة ، وهى الشنوف (الحلقان) . القر والصر : شدة البرد . حمارة القيظ : وقت اشتداد الحر . طغام الأحلام : لا عقول لهم . ربات الحجال : النساء .

(٣) يقال : سام فلان فلانا الأمر . كلفه إياه ، وأكثر ما يستعمل فى الشر والعذاب مثل : سامه العصا والنار : أى عذبه بهما ، والخسف : الإذلال والحمل على ما يكره .

(٤) ديث : يقال : ديثه ، أى ذلله وقاده ، الصغار : المراد هنا الرضا بالذل .

(٥) عقر الدار (بالضم) : وسطها ، ويقال عقر الدار (بالفتح) أيضاً .

هذا أخو غامِد ، قد وردت خَيلُه الأنْبارَ ، وقَتلوا حسانَ بن حسان ، ورجالًا منهم كثيراً ونساءً ، والذى نفسى بيده ، لقد بلغنى أنه كان يدخُل على المرأة المسلمة والمُعاهَدة فتنزعُ أحْجالَهُما [١] ورَعُثهما [٢] ، ثم انصرفوا موْفورِين ، لم يُكْلم منهم أحدٌ كَلْماً ، فلوْ أنّ امرءاً مسلماً مات من دون هذا أسفاً ماكان عندى فيه مَلوماً ، بل كان به عندى جديراً .

يا عجباً كلّ العجب ، عجب يُميتُ القلْبَ ، ويَشغلُ الفهمَ ، ويُكْثِرُ الأحزان ، منْ تَضافُرِ هؤلاء القوم على باطلهم ، وفشلِكم عنْ حقِّكمْ ، حتى أصبحتم غرَضاً ، تُرْمَوْن ولا تَرْمُون ، ويُغارُ عليكم ولا تُغِيرون ، ويُعصَى الله عز وجل فيكم وتَرْضون .

إذا قلتُ لكم : اغزوهم فى الشتاء ، قلتُم : هذا أوان قُرٍّ وصِر [٣] ، وإن قلت لكم : اغزوهم فى الصّيف ، قلتُم : هذه حَمارَّة [٤] القيْظِ أنظِرْنا ، يَنصرِمْ الحرُّ عنّا ، وإذا كنتم من الحرِّ والبرد تفرُّون ، فأنتم والله من السيف أفَرُّ .

---

(١) الأحجال : جمع حجل (بفتح الحاء وكسرها) وحجل (بكسر الحاء والجيم) الخلخال .

(٢) الرعث : جمع رعث (بفتح الراء) وهى القرط ، والقرط : ما علق أسفل الأذن ، أما ما يعلق فى أعلى الأذن فهو الشنف (بفتح الشين وسكون النون) والجمع شنوف .

(٣) القر (بالضم) : البرد ، والقر (بالكسر) ما أصاب الإنسان منه ؛ والصر (بالكسر) : البرد ، أو شدته كالصرة (بالكسر) .

(٤) الحمارة . شدة الحر ، والقيظ : أصله صميم الصيف ، ويستعمل فى اشتداد الحر بعامة ، يقال قاظ يومُنا : إذا اشتد حره .

يا أشباه الرِّجال ولا رِجال ، ويا طَغامَ [١] الأحلام ، ويا عُقول ربَّات الحجَال ، والله لقد أفسدتم علىَّ رأيى بالعصيان ، ولقد ملأتُم جَوْفِى غَيْظاً ، حتى قالت قريشٌ : ابنُ أبى طالب رجلٌ شجاعٌ ، ولكن لا رَأىَ له فى الحرب ، للهِ دَرُّهُم !! ومنْ ذا يكونُ أعلمَ بها مِنِّى ، أو أشدَّ لها مِرَاساً ، فو الله لقد نهضتُ فيها وما بلغتُ العشرين ، ولقد نَيَّفتُ [٢] اليومَ على السِّتين ، ولكنْ لا رَأىَ لِمنْ لا يطاعُ !! لا رأى لمن لا يطاعُ !! لا رَأىَ لِمنْ لا يطاعُ !!

فقام إليه رجل ومعه أخوه ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، أنا وأخى هذا كما قال تعالى : ربِّ إنى لا أملِكُ إلا نفسى وأخِى ، فَمُرْنا بِأمْرك ، فوالله لَنَنْتَهِيَنَّ إليه ، ولو حالَ بيننا وبينَه جَمْرُ الغَضَى [٣] ، وشَوْكُ القَتَادِ [٤] ، فدعا لهما بخير ، ثم قال لهما : وأيْنَ تَقعانِ مما أريد ، ثم نزَل » .

لهذه الخطبة أهمية خاصة ، سواء من الناحية الزمنية ؛ حيث قيلت قبل نهاية عصر صدر الإسلام بفترة وجيزة ، أو من الناحية الفنية ؛ لأنها تمثل آخر مرحلة من مراحل تطور فن الخطابة فى هذا العصر ، وتمهد تمهيداً قوياً لمرحلة النضج التام لهذا الفن فى العصر التالى .

وتقتضينا هذه الأهمية أن نقف عندها وقفة أطول ، لنتتبع سمات التطور التى انتهت إليها الخطابة فى العصر الذى نؤرخ له .

---

(١) الطغام (بالفتح) : أوغاد الناس ، والحمقى ، والطغومة والطغومية (بضم الطاء) : الحمق والدناءة .

(٢) النيف : الزيادة : وكل مازاد على العقد فهو نيف إلى أن يبلغ العقد الذى يليه ، يقال : عشرة ونيف ، وعشرون ونيف ... الخ .

(٣) الغضى : شجر مفرده غضاة ، وجمره أشد ما يكون التهابا لجودة خشبه .

(٤) القتاد : شجر صلب له شوك قوى كالإبرة .

وأول إمارات هذا التطور ما يبدو واضحاً فى الخطبة من استيفاء يكاد يكون تاما لفنية البناء الخطابى (١) ، وقيامه بوظيفته خير قيام .

بدأت الخطبة بمقدمة ذات شقين :

أولهما : استهلال بحمد الله والثناء عليه ، والصلاة على رسوله ، وهى تجرى فى هذا على سنن الخطابة منذ أوائل هذا العصر .

والآخر : تمهيد لموضوع الخطبة بما هو شديد الصلة به ، تلميحاً إلى الغرض ، وتهيئة الأذهان له ، حيث ذكر الجهاد ، ورغب أتباعه فيه ؛ لتفتح لهم أبواب الجنة ، ثم لجأ إلى الترهيب ، فذكرهم بسوء المصير ، إن أعرضوا عن النهوض إلى أقدس الواجبات ؛ إذ يبوءون بغضب من الله ، يلبسهم ثوب الذل والمهانة .

والمقدمة بهذا تستوفى غرضها الفنى ، من حيث وثاقة الصلة بموضوع الخطبة والتمهيد له ، دون أن يعوزها فى ذلك وضوح ، أو تنقصها عناصر التشويق ، ولم تطل فتمل ، أو تبتسر فتخل .

وإذ أسلمت المقدمة إلى الغرض تصاعد الأسلوب ، فشف عن عنف فى تأنيب القوم على تخاذلهم عن الأخذ بنصيحة الخطيب ، وإهمال رأيه ، وتجاهل دعوته إلى مبادأة أعدائهم بالقتال ، قبل أن يعتدوا عليهم فى عقر دارهم ، فيذيقوهم ذل الهزيمة ، ومرارة الهوان ، ويتطرق الخطيب من ذلك إلى ذكر ما دعاه إلى القيام فيهم خطيبا ، يجدد الدعوة إلى الجهاد ، ويستنهض الهمم إليه ، ثم يعبر عن استيائه البالغ ، وعجبه الساخر الآسف ؛ لاجتماع الأعداء على باطلهم ، وتفرق أتباعه عن حقهم ، وفى ذلك من

---

(١) يقصد به استيفاء الخطبة لمراحلها الفنية الثلاثة وهى : المقدمة ، والعرض ويندرج تحته التدليل والتفنيد – والخاتمة .

الخزى والعار ما عبر عنه الإمام بقوله : « ترمون ولا ترمون ، ويغار عليكم ولا تغيرون ، ويعصى الله عز وجل فيكم وترضون » .

ومن خلال هذا العرض تتراءى أساليب الاستدلال والاحتجاج ، فالقوم يتمسكون بالأعذار الواهية للتخلف عن الجهاد ، يتعللون بالبرد إذا نادى فيهم بالجهاد شتاء ، وبالحر إذا دعاهم إليه صيفا ، والإمام يدحض هذه التعلات ، ويأخذ عليهم سبل الاعتذار ، فيقول : (فإذا كنتم من الحر والبرد تفرون ، فأنتم والله من السيف أفر) ، فيدمغهم بالجبن وخور العزيمة ، بهذا الدليل المنطقى القوى الصادق .

ولا يخلو العرض كذلك من عنصر تفنيد الدعاوى الكاذبة ، فالإمام يرد على دعوى قريش : (ابن أبى طالب رجل شجاع ، ولكن لا رأى له فى الحرب) فيدحضها ، ويقيم الدليل على زيفها وبطلانها ، بحجة ساطعة ، وعبارة قوية ، تنهض بها الأساليب الإنشائية المناسبة لمقام الانفعال بالغضب ، كالاستفهام الإنكارى (ومن ذا يكون أعلم بها منى ، أو أشد لها مراسا ؟) والتعجب (لله درهم !!) والقسم (فوالله لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين) ، والتوكيد (ولكن لا رأى لمن لا يطاع) يكررها ثلاثا .

ولعل موطن الضعف الوحيد فى البناء الفنى لهذه الخطبة الرائعة ، هو ختامها ، إن اعتبرنا الحوار الذى دار بين الإمام على والرجل الذى استجاب لدعوته ، تأثراً بكلامه ، ودعاء الإمام له ولأخيه الذى أيده ، خاتمة للخطبة ، وهى لعمرى حينئذ خاتمة لا نجد لها نظيرا فيما نعرف من خطب هذا العصر ، كما أنها لا تعكس شيئاً من فنية الخاتمة ، أو تؤدى وظيفتها فى تلخيص الموضوع ، وامتلاك عواطف السامعين ، قبل مغادرة الخطيب موقفه الخطابى ، وإذا لم نعد هذا الحوار خاتمة ، كانت الخطبة فاقدة أحد عناصرها ، ولكنها لا تعدم النظير فى هذا بين خطب عصرها .

ومن ملامح التطور البارزة فى الخطبة أيضاً ميلها إلى البسط والإطناب – نوعاً ما – على خلاف ما عهدنا فى خطب السابقين ، والإطناب أسلوب تميل إليه الخطابة عادة ؛ لأنه بسط القول ، والإلحاح على بعض المعانى ، يعرضها فى معارض شتى من العبارة ، من عوامل التأثير فى الموقف الخطابى .

ومن صور الإطناب فيها ، الترادف (فتخاذلتم وتواكلتم ، وثقل عليكم قولى ، واتخذتموه وراءكم ظهرياً) ومؤدى هذه العبارات واحد ، وأيضاً (ترمون ولا ترمون ، ويغار عليكم ولا تغيرون) والمعنى واحد فى العبارتين .

واعتماد البرهان الخطابى فى الإقناع والاستمالة ملمح آخر من ملامح التطور فى الخطبة ، وقد برع الإمام علىّ فى استخدامه ، وإعداد السامعين لتأثيره ، بهذه المقابلات التى تحرك نفوسهم ، وتثير انفعالهم : (تضافر هؤلاء القوم على باطلهم ، وفشلكم عن حقكم ، حتى أصبحتم غرضاً ، ترمون ولا ترمون ويغار عليكم ولا تغيرون) ، ثم يدلف إلى البرهان : (إذا قلت لكم : اغزوهم فى الشتاء قلتم : هذا أوان قر وصر ، وإن قلت لكم : اغزوهم فى الصيف ، قلتم : حمارة القيظ ، .. فإذا كنتم من الحر والبرد تفرون ، فأنتم والله من الصيف أفر) نتيجة منطقية لمقدمات واقعية مسلمة .

والخطبة حافلة بعناصر الإثارة وتحريك النفوس ، وإيقاظ الشعور ، ووسائلها فى ذلك عديدة ومتنوعة ، من عبارات التقريع والسخرية : (يا أشباه الرجال ولا رجال ، ويا طغام الأحلام ، ويا عقول ربات الحجال) وأيضاً : (يا عجباً كل العجب ، عجب يميت القلب ، ويشغل الفهم ، ويكثر الأحزان) ومنها : (لقد أفسدتم على رأيى بالعصيان ، ولقد ملأتم جوفى غيظاً) ... وغير ذلك كثير .

ومنها : الألفاظ الموحية ، التى تقوم على التصوير الشامل ، والتمثيل

الدقيق ، لا التقرير والسرد . من ذلك : (فتنتزع أحجالهما) والانتزاع يوحى بالعنف والوحشية ، وقوله : (ثم انصرفوا موفورين) فهى توحى بانعدام المقاومة ، وعجز المعتدى عليهم ، وحاجتهم الشديدة إلى النجدة والحماية ، هذا فضلا عن أساليب : القسم والاستفهام ، والتعجب والتكرار ، والنداء ، الحافلة بقوة الإيحاء والإثارة .

ومنها : الاعتماد على الوقع الموسيقى للعبارة ، كالازدواج فى (ليلا ونهاراً وسراً وإعلاناً) وفى (يميت القلب ، ويشغل الفهم ، ويكثر الأحزان) والموازنة فى (ترمون ولا ترمون ، ويغار عليكم ولا تغيرون ، ويعصى الله فيكم وترضون) واتساق المد فى أواخر بعض الجمل (ولا رجال ، طغام الأحلام ، ربات الحجال) .

وهكذا يعكس هذا النموذج من نماذج الخطابة فى أواخر عصر صدر الإسلام تطور الخطابة فى سيرها الصاعد ، من البساطة إلى الوعى الفنى ، ومن التلقائية إلى جودة الصنعة ، كما تتسع رحبتها للإشارات التاريخية ، والأحداث السياسية ، والنظريات الدينية ، والجوانب الاجتماعية ، والقيم الإنسانية والأخلاقية ، يلف ذلك كله سحر البلاغة ، وروعة البيان .

(٣)

حـ الملامح الفنية العامة للخطابة فى عهد النبوة والراشدين :

قلنا : إن الخطابة تطورت فى ظل الإسلام ، وبينا أسباب هذا التطور ومظاهره ، فى أنواعها ، وأغراضها ، واتجاهاتها ، ونريد هنا أن نشير — فى إيجاز — إلى ملامح تطورها فى ألفاظها ، ومعانيها وأساليبها .

١ — فمن حيث الألفاظ : كان للقرآن وأقوال الرسول والحضارة الإسلامية أثرها فى تهذيب الألفاظ ، والعناية باختيار السهل العذب المألوف

منها ، والبعد عن الغريب الخشن الذى لاحظناه فى الخطابة الجاهلية ، والتوسع فى دلالتها ، باستخدامها فى معان أخر . من ذلك – مثلا – ألفاظ : الصلاة ، الزكاة ، المؤمن ، الكافر ، الجنة ، النار ، الربا .. وغيرها مما خلع عليه الإسلام معانى شرعية خاصة إلى جانب معانيه اللغوية الوضعية .

٢ – من حيث المعانى : التوسع فى المعانى ، باستحداث كثير منها ، وغزو حقول جديد فيها لم تؤلف قبل الإسلام ، مع حسن تنظيمها وعرضها ، تبعاً للرقى الفكرى والثقافى ، الناشىء عن هدى القرآن ، مع التأثر بالمعانى القرآنية ، استمداداً ، واقتباساً ، واستشهاداً ، والميل أحياناً إلى التعبير عن المعانى تعبيراً تصويرياً ، يستعين بأساليب التخييل كالتشبيه والاستعارة والكناية ، وبخاصة فى أواخر العصر ، وقد مرت بنا أمثله لهذا فى النماذج السابقة .

٣ – ومن حيث الأساليب : يتجلى أثر القرآن فى الخطابة أكثر ما يتجلى فى الأسلوب ، حيث أكب الخطباء على القرآن ، وحاولوا محاكاة أساليبه ، والسير على دربه فى البيان ، وحسن الأداء ، فجعلوا القرآن قدوتهم ، عنه يأخذون ، وحثهم الإسلام على ذلك حين دعاهم ، بل دفعهم إلى الاستمداد منه فى خطب الجمع والعيدين وغيرها ، فتأنقوا فى صوغ الأساليب ، وتفننوا فى تنويعها ، وإحكام نظامها ، ووصولها فى البلاغة إلى درجة عالية ، والشواهد على ذلك كثيرة فى دراستنا السابقة لنماذج الخطابة فى هذا العصر .

كذلك كان من أثر الإسلام ، والحياة الإسلامية التى تميل إلى البساطة فى كل شيء ، أن لان أسلوب الخطابة ، فخلا – أو كاد – من السجع ، الذى حفلت به الخطابة الجاهلية ، اعتماداً على قوة الألفاظ ، وعذوبتها ، وإيثاراً لموسيقى الازدواج والموازنة ، وجاذبية الترسل ، كما ندرت

الحكم والأمثال فى نماذج خطب العصر ، فقد شغل الخطباء عنها بالقرآن ، والاستشهاد بآياته ، اللهم إلا فى النماذج المتأخرة من حياة العصر ، وفى خطب الإمام على بخاصة ، حيث احتلت الحكم والأمثال مكاناً بارزاً فيها .

من ذلك ما جاء فى خطبة الإمام بعد فشل التحكيم :

« أمّا بَعْد . فإنَّ مَعصِيةَ النّاصِحَ الشفِيق ، العالِمِ المُجرّبِ ، تُورِثُ الحسْرةَ ، وتُعقِبُ الندامَةِ ، وقد كنتُ أمرتُكم فى هذه الحكومة أمرِى ، ونخَلْتُ لكم مخْزُونَ رأيى ، لوْ كانُ يطاعُ لقصير أمرٌ ، فأَبَيْتُم عَلَىَّ إِبَاءَ المخالفين الجُفاة والمُنابذين العُصاة ، حتى ارتابَ الناصحُ بنصحه ، وضَنَّ الزَّنْدُ بِقدْحه ... » [١] .

فقد اقتبس الإمام فى هذه القطعة من الأمثال (لو كان يطاع لقصير أمر) و (وضن الزند بقدحه) .

ولم يعد الأسلوب وليد البديهة والارتجال – غالباً – كما كان فى الجاهلية ، إذ أخذ التجويد ، وإعداد الخطبة يظهر أثرهما فى خطب العهد الراشدى بخاصة ، وعلى الأخص فى المواقف الخطيرة ، ذات الشأن ، التى تتطلب كلاماً محسوب الأثر والعاقبة .

وقد صرح بعض خطباء هذه الفترة بأنهم كانوا يفكرون فيما يريدون قوله ، قبل أن يخطبوا ، ويعدون لذلك عدته قبل الخطبة ، فيروى أن عمر ابن الخطاب قال يوم السقيفة : « وقد زورت فى نفسى مقالة قد أعجبتنى ، أريد أن أقدمها بين يدى أبى بكر » [٢] .

فعمر كان يشعر فى بعض المواطن بحاجته إلى تحسين القول وإصلاحه وإعداده ، قبل أن يلقيه فى الموقف الخطابى .

---

(١) تاريخ الطبرى ٤٣/٦

(٢) السيرة لابن هشام ق ٦٥٩/٣

٤ – التميز بوحدة موضوعية – غالباً – عمادها الترابط والإحكام بين عناصر الموضوع ، والتلاحم بين الفقرات ، يضاف إلى ذلك الوضوح الذى يقوم على التقسيم المتدرج من جهة ، وشيوع الألفاظ وسهولتها من جهة أخرى .

٥ – الميل إلى الإيجاز القائم على السجية ، والمؤدى للفكرة من أقرب السبل : دون تعمد ، أو تكلف ، وبخاصة فى العهد النبوى ، وأوائل العهد الراشدى ، ويعبر عن هذا الميل قول أبى بكر ، يوصى يزيد بن أبى سفيان لما وجهه لفتح الشام : « وإذا وعظتهم فأوجز ، فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضا » [1] .

أما فى أخريات عهد الراشدين فنلاحظ ميل الخطيب إلى استخدام بعض أساليب الإطناب المناسب ؛ لما اضطربت الأحداث ، وكثرت الفتن ، واحتاج الخطيب إلى الإلحاح على الفكرة أو المعنى بقصد الإقناع ، وإحداث التأثير العقلى والانفعالى المطلوب .

٦ – اتخذت الخطابة فى المقدمة طريقة واحدة ، وهى البدء بحمد الله والثناء عليه وتعظيمه ، وقد تضاف إلى ذلك الصلاة على النبى .

أما الختام فلم يكن يأخذ طابعاً واحداً ، فأحياناً يكون بآية من القرآن (النموذج ٥، ١٠) وقد يكون بتعظيم الله وتمجيده (النموذج ١) أو بعبارة « السلام عليكم » (النموذج ٢ ، ٤) أو بيت أو أبيات من الشعر (النموذج ٧) أو بالدعاء ، أو الاستغفار ، ونحو ذلك ، وقد تخلو الخطبة تماماً من الخاتمة (النموذج ٦ ، ٩) .

---

(١) الكامل فى التاريخ (ابن الأثير) ١٩٦/٣ (طبعة الحلبى – القاهرة ١٣٠٣ هـ) .

وكان أبو بكر يكثر من قوله فى آخر خطبه : « اللهم اجعل خير زمانى آخره ، وخير عملى فواتحه ، وخير أيامى يوم لقائك » [١] .

أما عمر فكان يقول فى آخر خطبه – غالباً – : « اللهم لا تدعنى فى غمرة ، ولا تأخذنى على غرة ، ولا تجعلنى من الغافلين » [٢] .

من هذا يتبين لنا أن العناصر الأساسية فى الخطبة كانت أكثر تحققاً فى خطب هذا العصر ، منها فى خطب الجاهليين .

وجملة القول : أن الخطابة فى صدر الإسلام ، بحكم كونها خطابة عقيدة جديدة ، رحبة الأفق ، موجهة إلى كافة الخلق ، قد تضمنت روحاً تنظيمية وتشريعية ، وتهذيبية ، واتسمت ببلاغة القرآن ، وعمق المعانى والأفكار ، الذى يظهر فيما اصطنعت من أساليب البرهنة والاحتجاج والجدل فى كثير من مجالاتها .

هذا ، وخطباء هذا العصر لا يكادون يحصون كثرة ، وكان الرسول ﷺ أخطب خطبائه بلا منازع ، ثم من بعده خلفاؤه ، وقواد الإسلام ، وعماله ، وكثير من الصحابة ، رضى الله عنهم أجمعين .

* * *

(١) تاريخ الأدب العربى (السباعى) ١٧٨

(٢) المصدر السابق .

الفصل الرابع

الوصايا والعظات

(١)

الوصايا والعظات فى الجاهلية :

الوصايا لون من النثر الفنى قديم فى اللغة العربية ، عرفه عرب الجاهلية وتمرسوا به ، كما عرفوا الخطابة ومارسوها ، وتناولوا فيه بعض جوانب حياتهم الاجتماعية ، وضمنوه نظراتهم الحكمية ، وخطراتهم الذهنية ، فى الأخلاق والاجتماع ، ولم نر لهم منه شيئاً فى باب السياسة والاعتقاد .

ونقرأ الوصايا الجاهلية فلا نكاد نحس بفارق بينها وبين خطب الجاهليين ، من حيث الأداء الفنى ، فالنهج واحد فى اختيار الألفاظ ، وتركيب العبارات ، وإيثار السجع ، مع الموازنة أو الازدواج بين الجمل ، وقصر الجمل غالباً ، وكثرة الأمثال والحكم فى وصاياهم ، وغلبة الإيجاز عليها ، وتحليتها ببعض أساليب التخييل والتصوير ، القريبة المأخذ ، البريئة من الغموض والمبالغة ، المنبعثة عن فطره ، لا عن تكلف صنعة ، كما أن وصايا الجاهليين تنساب على ألسنتهم بديهة وارتجالا كخطبهم .

وهكذا تعكس الوصية الجاهلية الطابع الفنى العام للخطبة الجاهلية ، ولا تكاد تفارقها فى شىء ، اللهم إلا فى بعض مظاهر النمط الشكلى ؛ حيث تقوم الخطبة على مقدمة وموضوع وخاتمة ، ولا يلزم ذلك فى الوصية ، كما أن الوصية كلام يقال ، أو يكتب ، من رئيس أو زعيم أو سيد لقومه ، أو من أحد الأبوين لأبنائهما ، أو لأحدهم ... فى أمر من أمور

الدنيا ، ويكثر أن يكون هذا عند الإحساس بدنو الأجل ، أو العزم على الرحلة والفراق ... أو نحو ذلك .

أما الخطبة فهى كلام لا يكون إلا شفوياً ، يلقيه الخطيب على الجمع من الناس ، فى أمر من أمور الحياة العامة ، المتصلة بدينهم أو دنياهم ، بقصد التأثير فيهم ، وإثارة حماستهم أو إقناعهم بهذا الأمر [١] ، قبولا أو رفضاً .

الوصايا والعظات فى عهد النبوة والراشدين :

أولا : الوصايا :

قطعت الوصايا فى هذه الفترة الشوط نفسه الذى قطعته الخطابة ، فظهرت الوصية الدينية ، كما ظهرت الخطبة الدينية ، وتناولت من الموضوعات والمعانى ما تناولته الخطبة ، متأثرة بالإسلام والقرآن فيما تأثرت به الخطبة ، من الشكل والمضمون ، كما ظهرت الوصية السياسية الممتزجة بالعناصر الدينية ، وأشبهت مثيلتها من الخطب السياسية الدينية فى كل ما ذكرنا .

وهناك كثير من وصايا الرسول ﷺ وخلفائه وصحابته ، وأكثرها يغلب عليه الطابع الدينى ، ومن وصايا الخلفاء لمن بعدهم ما يتناول أموراً سياسية ، تتصل بنظام الحكم ، وحسن القيام على الرعية ، وتنظيم شئون الدولة ، بخاصة فى البلاد المفتوحة ، فى عهد عمر ومن بعده ، ومعظمها موجه إلى الولاة والجنود ، وإلى من سيضطلع بالحكم بعدهم .

على أن من الوصايا التى نؤرخ لها فى صدر الإسلام ، ما قيل

---

(١) النثر الفنى (بلبع) ص ٧٩

فى أغراض أخرى اجتماعية أو أخلاقية ، كوصية أبى الأسود الدؤلى ابنته ليلة زفافها (وستأتى) ووصية أمير المؤمنين على ابنه الحسن [١] ... وغيرهما .

وهذا النوع من وصايا صدر الإسلام ، لا يكاد يختلف فى شكله ومضمونه عن الوصايا الجاهلية ، اللهم إلا فيما نزع إليه الأسلوب الإنشائى بعامة فى هذا العصر من البساطة ، والبعد عن الألفاظ البدوية الخشنة ، والإقلال من السجع ، والبعد عن النزعات الجاهلية فى الموضوعات والمعانى التى جاء الإسلام بإبطالها ، أو التنفير منها .

ومن عرضنا لبعض نماذج الوصية فى صدر الإسلام يتضح ما ذكرنا :

– من الوصايا السياسية الممتزجة بعناصر دينية : وصية عمر بن الخطاب الخليفة من بعده : وصى عمر ابنه عبد الله قبيل وفاته فقال [٢] :

« أىْ بُنىَّ : إذا قام الخليفةُ بَعدى فائتِهِ ، فَقلْ له : إنَّ عمرَ بن الخطاب (رضى الله عنه) يُقرئكَ السلام ، ويوصيكَ بتقوى الله وحدَه ، لا شريك له ، ويوصيكَ بالمهاجرين والأنصار ، أنْ تَقبلَ من مُحْسنِهم ، وتتجاوزَ عن مُسيئهمْ ، ويوصيك ، بأهلِ الأمصار خيراً ، فإنَّهم غَيْظُ العدُوِّ ، وجُباةُ الفيءِ ، لا تحملْ فَيْئَهمْ إلا عن فضلٍ منهم ، ويُوصيك بأهلِ الباديةِ خيراً ، فإنَّهم أصلُ العربِ ، ومادةُ الإسلام ... » .

وعلى هذا النحو تمضى الوصية ما يقرب من سطرين آخرين .

فلو أن عمر – رضوان الله عليه – وقف خطيباً ، وألقى هذا الكلام

---

(١) انظرها فى : تاريخ الأدب العربى (الزيات) ص ٨١

(٢) المعمرون والوصايا (أبو حاتم السجستانى) ص ١٤٩ (طبعة ليدن ١٨٩٩ م) .

نفسه على النمط الشكلى للخطابة ، لما كان هناك فرق واضح بين الأسلوب فى الموقفين [١] .

— من الوصايا الدينية : وصية على بن أبى طالب — رضى الله عنه — ابنيه الحسن والحسين عند وفاته [٢] :

« أوصيكُما بتقوى الله ، ولا تَبغِيا الدنيا ، وإن بَغَتْكُما ، ولا تَبْكيا على شيءٍ منها زُوِىَ عنكما ، قُولا الحقَّ ، وارحَما اليتيمَ ، وأعِينا الضائعَ ، وأضيفا الجائعَ ، وكُونا للظالم خصماً ، وللمظلوم عوناً ، ولا تأخُذْكُم فى الله لومةُ لائِم » .

فالمعانى ، والعبارات ، والغرض ، والأسلوب ، تحمل كلها خصائص الخطبة الدينية المتأثرة بالإسلام فى هذا العصر .

— ومن الوصايا الاجتماعية : وصية أبى الأسود الدؤلى ابنته ليلة عرسها [٣] :

« يا بُنيَّة : كان النساءُ أحقُّ بأدَبِكِ مِنِّى ، ولكنْ لا بدَّ لى منه ، يابُنية : إن أطْيبَ الطيِّبِ الماءُ ، وأحْسنَ الحُسنِ الدُّهْنُ ، وأحْلَى الحلاوةِ الكُحْلُ ، يا بُنيَّة : لا تكثِرى مباشرةَ زوجِك فيمَلّك ، ولا تَباعدى عنه ، فيجفُوك ، ويعتلَّ عليك ، وكُونى كما قلت لأمِّكِ :

خُذِى العفوَ منِّى تَستديمى مَودَّتى ولا تَنطِقى فى سَوْرتى حينَ أغضَبُ

---

(١) وانظر نموذجاً آخر للوصية السياسية الدينية (من أبى بكر ليزيد بن أبى سفيان حين وجه لفتح الشام) فى : الكامل فى التاريخ (ابن الأثير) ١٩٦/٣ .

(٢) المعمرون والوصايا ١٥٠

(٣) المصدر السابق ص ١٤٧

فإنِّى رأيتُ الحُبّ فى الصدر والأذَى إذا اجْتَمَعا لم يَلبثِ الحُبُّ يذهبُ (١)

فهذه الوصية تشبه مثيلاتها فى العصر الجاهلى ، من حيث طابعها الاجتماعى ومضمونها المستمد من حياة العربى فى الجاهلية والإسلام ، وأسلوبها الذى ، يظهر فيه قصر الجمل ، مع ميلها إلى الموازنة ، وإن تخلصت من السجع ، الذى لا تكاد تخلو منه نظيرتها فى الجاهلية ، أما تحلية الوصية بالشعر ، فلا تخلو منها الوصية أيضاً فى العصر الجاهلى ؛ إذ كان الشعر هو النشاط الأدبى الشائع على ألسنة عرب الجاهلية — كما قدمنا .

وقد يكون من المفيد أن لا نخلى المقام هنا من نموذج — على الأقل — من نماذج الوصية الاجتماعية للجاهلية ، تفيد فى الكشف عن التشابه فى الأسلوب ، بين هذا النوع من الوصية فى العصرين .

— وصى أكثم بن صيفى بنيه ورهطه ، فقال (٢) :

« يابنِى تميم : الصبرُ على جَرَعِ الحِلم أعْذَبُ من جَنْيِ ثَمر الندامة ، ومَن جعل عرضه دون ماله استهدف للذمِّ ، وكَلْمُ اللسانِ أنْكى من كَلْم السِّنان ، والكلمةُ مرهونةٌ ما لم تَنجم من الفمِّ ، فإذا نَجَمتْ فهى أسدٌ مُحرَّبٌ ، أو نارٌ تلهَّب ، ورأىُ الناصح اللبيب دليلٌ لا يجورُ ، ونفاذُ الرأى فى الحرْب ، أجْدى من الطعن والضرْب » .

فهى مجموعة من الإرشادات الأخلاقية ، والمعانى الحكيمة ،

---

(١) قصة الوصية ، والبيتان ومعهما ثالث ، فى الأغانى ١٢٨/١٨ لأسماء بن خارجة الفزارى ، ونص أبو الفرج على أن نسبة الشعر لأبى الأسود الدؤلى غير صحيحة ، والذى يبدو أن أبا الأسود اقتبسهما للمناسبة .

(٢) شرح نهج البلاغة (ابن أبى الحديد) ١٥٥/٤ (طبعة الحلبى القاهرة ١٩٥٩ م) .

المستمدة من تجارب الحياة العربية البسيطة ، صيغت فى أسلوب يشبه من عدة وجوه أسلوب الوصية السابقة .

ثانيا : العظات :

أما العظات فهى شكل أدبى نثرى ، يمكن أن يدخل فى باب الخطب أيضاً ، « إلا أنه لا يتعلق بحال من أحوال الدنيا ، أو يتناول أمراً من أمورها ، إلا بقدر ما يرغب عنها ، ويزهد فيها ، وإنما هى عظات دينية خالصة ، قوامها التوجيه إلى الله ، والدعوة إليه ، والترغيب فى الآخرة ، والتنفير من الدنيا » (١) .

وإذا كان هذا هو الاتجاه الموضوعى للعظات ، فهى إن فن إسلامى خالص ، نجم عن الإسلام ، وتربى بين أحضانه .

ولا يحتج بما كان فى الجاهلية من بعض الخطرات التأملية ، والخواطر الإرهاصية القلقة ، التى تدور حول الكون ومظاهره ، ودلالته على ديانة أسمى من دياناتهم ، كما رأينا فى خطبة قس بن ساعدة – مثلا – فإنها فضلا عن سذاجتها ، لا تنبع من إيمان راسخ ، أو تستند إلى عقيدة واضحة المعالم والغايات ، كما ذكرنا من قبل .

وأسلوب العظات الدينية يشبه – إلى حد بعيد – أسلوب الخطابة الدينية ، فلا نطيل بإعادته هنا .

ولكى يتضح هذا التشابه بين العظة الدينية ، والخطبة الدينية ، نسوق من نماذجها ما يلى :

وعظ عمر بن الخطاب رجلا فقال (٢) :

---

(١) النثر الفنى (بلبع) ص ٨١

(٢) المرجع السابق .

« لا يُلْهينَّك الناسُ عن نفسك ، فإنَّ الأميرَ يَصلُ إليك دونهم ، ولا تَقْطعْ النهارَ سادِراً [١] ، فإنه محفوظٌ عليك ما عَمِلتَ ، وإذا أسأتَ فَأحسِنْ ، فإنِّى لمْ أرَ شيئاً أشدَّ طلباً ، ولا أسْرَعَ دَرَكاً من حَسنةٍ حديثةٍ لذنْبٍ قديم » .

فالعظة كالوصية الدينية تماماً ولولا أن الوصية خاصة بمواقف الإحساس بوفاة الموصى ، أو رحيله أو نحو ذلك ، وموجهة إلى أهل الموصى أو ولده ، لسميت العظات وصايا دينية أو سميت الوصايا الدينية عظات .

ووعظ على بن أبى طالب فقال [٢] :

« أوصيكم بخمسٍ لو ضُرِبتْ عليها آباطُ الإبلِ لكان قليلا ، لا يَرجُوَنَّ أحدُكم إلا ربَّه [٣] ، ولا يَخافَنَّ إلا ذَنْبَه [٤] ، ولا يَستحى إذا سُئِلَ عما لا يعلم أن يقول لا أعلمُ ، وإذا لم يَعْلم الشيءَ أن يتعلمهُ ، واعلمُوا أن الصَّبْرَ من الإيمان بمنزلة الرأسِ من الجسدِ ، فإذا قُطِعَ الرأسُ ذهبَ الجسدُ » .

* * *

وبعد : فهذه جولة موجزة ، حاولنا فيها أن نلم بحياة النثر فى صدر الإسلام ، وأن نتلمس أثر الإسلام بعامة ، والقرآن بخاصة ، فى ألوان هذا الفن ، ومدى تطوره فى ظلهما ، ورجونا أن ينفع الله بها ، إن شاء الله .

---

(١) سادرا : لاهيا .
(٢) النثر الفنى (بلبع) ص ٨١
(٣) المعنى مستمد من قوله ﷺ : « ... إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » .
(٤) المعنى متأثر بقوله تعالى : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ .

الباب الثانى

الشعر فى عهد النبوة والراشدين

- ١ -

تمهيد :

أثار الشعر فى صدر الإسلام خلافا بين كثير من مؤرخى الأدب العربى ، الذين تعرضوا للنظر فيه ، فى ثنايا ما تناولوه من قضايا الأدب بعامة .

ويتركز هذا الخلاف حول أثر الإسلام فى شعر هذا العصر ، ومدى ما أصابه من قوة أو ضعف ، وازدهار أو انكماش ، حتى أصبحت قضية ازدهار الشعر أو ضعفه فى هذا العصر ، من القضايا الأدبية الشائكة ، لكثرة أقوال المؤرخين والباحثين ، وتشعب أوجه الخلاف بينهم فيها .

وليس من همنا فى هذا التمهيد أن نتصدى لعرض الآراء المختلفة حول هذه القضية ، ومناقشتها ، وبيان أوجه الصواب أو الخطأ فيها ، فدراستنا الآتية للشعر فى عهد النبوة والراشدين ، سوف تتكفل ببيان حظ هذه الآراء من الدقة .

غير أنه من الممكن هنا ، أن نقدم تفسيراً معقولا لمدار الخلاف حول منزلة الشعر فى صدر الإسلام ، ومدى ماحظى به من ازدهار ، أو منى به من ضعف أو انكماش ، يتلخص فى أن هؤلاء النقاد والمؤرخين ، كانوا ينظرون إلى هذا الشعر من زوايا مختلفة .

فمنهم – مثلا – من وقف عند ملاحظة توفر كثير من العوامل التى جاء بها الإسلام ، والتى من شأنها أن تعمل على الحد من رواج الشعر

وازدهاره [١] ، فقال بضعف الشعر فى صدر الإسلام [٢] .

ومنهم من التفت إلى ما بعثه الصراع بين المسلمين فى المدينة ، والمشركين فى مكة ، خلال العهد النبوى ، من نشاط ملحوظ فى الشعر والشعراء ، ونظر فى أشعار شعراء البادية الذين نشأوا فى الجاهلية ، ولم يتأثروا كثيراً بالإسلام ، ولاحظ غزارة نتاجهم الشعرى ، وما يمتاز به من قوة ومتانة ، فحكم بازدهار الشعر ، وعلو منزلته فى العصر كله [٣] .

ولكى يتسنى لنا أن نصدر أحكاما صائبة – أو قريبة من الصواب – على حال الشعر فى هذا العصر ، ينبغى أن ننظر إليه فى مختلف بيئاته المكانية والزمانية ، التى تفاوت فيها بين القوة والضعف ، نظراً للظروف التى أحاطت به فى كل بيئة من هذه البيئات .

---

(١) يلخص وجهة نظر هؤلاء قول الأستاذ يحيى الجبورى : إن الإسلام حرم أكثر الأعمال التى يجود فيها الشعر ، وتنشط القرائح ، كذكر الخمر ، ومغازلة المرأة ، وإثارة الضغائن والأحقاد والثأر . وفضلا عن أن الحياة العامة ومثلها وقيمها قد تغيرت فى ظل الإسلام ، فتغيرت تبعا لذلك الدوافع التى بها ينشط الشعر ، ويتشجع الشعراء ، فالإكرام والتشجيع الذى كان يلقاه الشعراء من الملوك ، وأصحاب الثراء والسلطان ، قد حل محله زجر عمر بن الخطاب عن المديح الكاذب والقول الذى يثير الحفائظ ، ويمس أعراض الناس . انظر : الإسلام والشعر ٣١ – ٣٢ (مطبعة الإرشاد – بغداد ١٩٦٤ م) .

(٢) من هؤلاء مثلا : الدكتور محمد نجيب البهبيتى فى كتابه (تاريخ الشعر العربى حتى أواخر القرن الثالث الهجرى) ١١٣ وما بعدها (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م) والأستاذ السباعى بيومى فى كتابه (تاريخ الأدب العربى) ٢١٠ وما بعدها ، والأستاذ جورجى زيدان فى (تاريخ آداب اللغة) ١٨١/١ وما بعدها ، والأستاذ جورج غريب فى (صدر الإسلام) ١٥ ، ١٢٢

(٣) من هؤلاء : الدكتور أحمد الحوفى فى (الحياة العربية من الشعر الجاهلى) ١٦٨ – ١٦٩

نعم ، يجب أن نفرق بين حياة الشعر فى عهد النبوة ، وحياته فى عهد الراشدين ، وفى كل من حضر الجزيرة العربية وبواديها ، وندرس شعر كل بيئة زمانية أو مكانية على حدة ، ثم نحكم بمدى ازدهار الشعر أو ضعفه فى كل منها .

على أن من مقتضيات هذه الدراسة أن نقدم لها بموجز ، يساعدنا على تصور حال الشعر ومنزلته فى إطاره العام قبل الإسلام ، فإن ذلك يعيننا على تفسير بعض جوانب هذه الدراسة .

(٢)

- الشعر قبل الإسلام :

أشرنا عند الكلام على الخطابة فى العصر الجاهلى ، إلى أن عرب الجاهلية كانوا أكثر احتفالا بالشعر من الخطابة ، وأنهم كانوا يهتمون بإعداد شعرائهم ، وتكريمهم ، وتقديمهم ، واهتمامهم بإعداد قادتهم وفرسانهم ، فكان يقال : « قائد القبيلة فلان ، وفارسها فلان ، وشاعرها فلان » [(١)] .

وما ذاك إلا لما كان للشعر عندهم من منزلة خطيرة فى إثارة الحرب ، والإشادة بمفاخر القبيلة ، وهجاء أعدائها ، والحط من شأنهم .

فلا بدع إذا كان الشعر يغويهم ويرشدهم ، والبيت أو الأبيات منه تقيمهم وتقعدهم ، والأمثلة على ذلك كثيرة فى أشعارهم ، وهى شاهدة على ما كان للشعر فى نفوسهم من مكانة ، جعلتهم يرغبون فيه مشيداً بمحامدهم ، منوها بذكرهم ، ذاباً عن أعراضهم ، ويرتعدون فرقاً منه ، سالباً أمجادهم ، غاضاً من شأنهم ، طاعناً فى مروءتهم وشرفهم ، دامغاً إياهم بالخزى والعار .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية (زيدان) ٩٦/١

يقول ابن رشيق [١] : « وعظم الشعر ، وتهيب أهله ، خوفاً من بيت سائر ، تحدى به الإبل ، أو لفظه شاردة يضرب بها المثل ، ورجاء فى مثل ذلك ، فقد رفع كثيراً من الناس ما قيل فيهم من الشعر ، بعد الخمول والاطراح ، حتى افتخروا بما كانوا يعيرون به ، ووضع جماعة من أهل السوابق ، والأقدار الشريفة ، حتى عيروا بما كانوا يفتخرون به » .

لهذا ولغيره ، كان الشعر أبرز فن عند العرب فى الجاهلية ، يصول الشعراء فى ميدانه ويجولون ، ويقولون فى كل ما يريدون ، مما يدور فى خواطرهم ، أو تقتضيه ظروف معايشهم ، أو تهتز له عواطفهم ، متنقلين فى حرية تامة فوق صدر الصحراء ، متخذين من الأسواق المنتشرة فى أنحاء الجزيرة ميدانا للكلمة المنظومة الموقعة ، فيشيدون بمفاخرهم ، ومآثر قومهم حينا ، ويهجون أعداءهم حينا آخر ، وهم فى كل حال ينفخون فى نار العصبية القبلية ، ويلغون فى دماء الخصوم وأعراضهم ، ويرون ذلك واجباً يحتمه الولاء للقبيلة ، والوفاء بحقها عليهم ، ولا ينسون فى كل ذلك مغامراتهم العاطفية ، يرصعون بها صدور قصائدهم ، ويرضون بها شياطينهم ، وشياطين من يستمعون إليهم ، أو يروون أشعارهم .

وهكذا كان الشعر فى العصر الجاهلى ، وكأنه بضاعة العرب الوحيدة ، يغدقون عليها الأموال ، ويترعون من أجلها الكئوس ، ويرفعون لها المنارات ويقيمون لها المنابر ، فاشتد التنافس بين الشعراء ، وبين القبائل مفاخرة بهم ، وأدى هذا إلى أن يحتل هذا الفن قمة عالية من الجودة ، وإتقان الصناعة ، فأُمِّرَ شعراء فى دولة الشعر ، وعلقت قصائدهم ، وذُهِّبَت أخرى [٢] .

---

(١) العمدة ١/٢٤

(٢) تحدثنا عن الشعر والشعراء فى الجاهلية ، ومدى تقدير العرب لهذا الفن =

ومع ذلك لم يكن حظ الشعر من الازدهار فى هذا العصر متساوياً فى كل البيئات العربية ؛ إذ كان أكثر رواجاً ، وأعظم فنا فى البادية منه فى الحضر – بصفة عامة – لما كثر فى البادية من دواعى الحرب والخصومات ، ومن تغير ظروف الحياة المعيشية ، من خصب وجدب ، وحل وترحال ، وفراق ولقاء .. إلى غير ذلك مما يحرك المشاعر ، ويبعث على قول الشعر [1] ، على عكس الحضر ، الذى كان يتمتع أهله بنوع من الحياة المستقرة ، تجعلهم أقل استعداداً لقول الشعر من أهل البادية .

* * *

= وأهله ، حديثا أكثر تفصيلا فى مقدمة كتابنا : أمراء الشعر فى العصر الجاهلى ، فليرجع إليها من شاء .

(١) للاستزادة من تأثير الحياة فى البادية على ازدهار الشعر ، وكثرة الشعراء . انظر كتابنا : الشماخ بن ضرار الذبيانى ٤٨ – ٥١



الفصل الأول

الشعر فى عصر النبوة

(١) موقف الإسلام من الشعر والشعراء :

قبل أن نأخذ فى دراسة شعر البادية والحضر فى العهد النبوى ، نرى من المناسب أن نقدم لهذه الدراسة ، بما يوضح موقف الإسلام – ممثلا فى كتابه الكريم ، وفى رسوله وحامل لواء دعوته – من الشعر والشعراء .

ولنا من وراء هذا التقديم غايات ، تفرضها دراسة الشعر فى هذه الفترة ، وما تتطلبه هذه الدراسة من وجوب تفهم الظروف الجديدة التى جاء بها الإسلام ؛ ليغير وجه الحياة العربية ، والتى كان على الشعر أن يتخذ منها موقفاً ، وهو يواجه – لأول مرة – دعوة تريد أن تفرض عليه نوعاً من التنظيم والتوجيه والتهذيب ، بعد أن كان يتحرك فى أجواء من الحرية التى لا تحد ، والهوى الذى لا يعوقه عائق .

على أن لنا من وراء هذا التقديم فوق ذلك ، غاية هامة مباشرة ، فمن خلاله نحاول أن نقتلع من بعض الأذهان وهماً ، يطالعنا من حين لآخر فيما كتب عن حياة الشعر فى صدر الإسلام بعامة ، وفى العهد النبوى بخاصة ، مؤداه أن الإسلام ، قد أدار ظهره للشعر ، وأعرض عن الشعراء .

ويبدو أن هذا الوهم قد غزا بعض العقول قديماً ، واستقر فيها ، حتى ذهب أصحابها إلى القول بأن الإسلام يكره الشعر ، بل ويحرمه [١] ، وقد

---

(١) انظر العمدة ١ : ١١ – ١٢

ظلت هذه الفكرة تتراءى عبر العصور ، إلى أن وصلت إلى عصرنا الحديث ، فوجدنا من ينادى بأن الشعر إنما ضعف فى صدر الإسلام ؛ لأن الدعوة الجديدة ناصبته العداء ؛ ولأن رسولها تنكر له [١] .

والآن ، ما حقيقة موقف الإسلام من الشعر والشعراء فى عصره الأول ؟؟

يذهب بعض ممن تحدث عن الشعر فى صدر الإسلام إلى القول بضعف هذا الشعر ؛ لأن الإسلام هجنه ، كما أن القرآن بغضه إلى المسلمين ، والقائلون بهذا يستندون فى جملة ما يستندون إليه للاستدلال على صحة نظرهم ، وصدق رأيهم ، إلى أن القرآن الكريم صرح بتهجين الشعر ، وذم الشعراء [٢] ، فى قوله تعالى : ﴿ والشعراءُ يَتَّبِعُهمُ الغاوونَ * ألم تر أنهم فى كلِّ وَادٍ يَهيمونَ * وأنهم يقولون ما لا يفعلونَ * إلا الذين آمنوا وعمِلوا الصالحاتِ وذكروا الله كثيراً ، وانتصروا من بعد ما ظُلِمُوا ... ﴾ [٣] .

والحق أن الآية الكريمة لا تقصد إلى تهجين الشعر بعامة ، وذم الشعراء أجمعين ، فالاستدلال بها على ما ذكروا تعميم خاطىء ، وتأويل للآية على غير وجهها الصحيح ؛ ذلك أن أولى الأقوال بالصواب فى تأويلها ما ذهب إليه أهل التأويل من المفسرين ، من أن المراد بالشعراء المذمومين فى الآية الكريمة شعراء المشركين ، الذين يتبعهم غواة الناس أو سفهاؤهم .

وتعلل الآية لهذا الحكم بأن هؤلاء الشعراء ﴿ فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ ، أى أنهم يذهبون فى شعرهم على غير قصد ،

---

(١) انظر : صدر الإسلام (جورج غريب) ١٥ ، ١٢١

(٢) انظر مثلا : تاريخ الأدب العربى (السباعى) ٢١٣ ، وتاريخ آداب اللغة العربية (زيدان) ١/١٨١ .

(٣) سورة الشعراء : ٢٢٤ — ٢٢٧

بل يجورون عن الحق ، وطريق الرشاد ، وقصد السبيل ، وهذا « مثل ضربه الله لهم فى افتنانهم فى الوجوه ، التى يفتنون فيها بغير حق ، فيمدحون بالباطل قوماً ، ويهجون آخرين كذلك بالكذب والزور » (١) .

ومما يدل على أن المَعْنِىّ بالشعراء فى الآية شعراء المشركين خاصة ، قوله تعالى ، بعد هذا التعليل : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ ، وهو استثناء للمؤمنين ، من الشعراء بعامة ، قصد به شعراء رسوله الله بخاصة ، الذين نافحوا عنه وعن دعوته وأصحابه ضد شعراء المشركين ، بدليل قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ وانتصروا من بعد ما ظُلموا ﴾ ، أى انتصروا ممن هجاهم من شعراء المشركين ظلما ، بشعرهم وهجائهم إياهم ، وإجابتهم عما هجوهم به (٢) .

وعلى نحو من هذا فهم ابن رشيق الآية الكريمة على وجهها ، فقال فى مقام الرد على الطاعنين فى الشعر ، القائلين بكراهته أو تحريمه (٣) : « فأما احتجاج من لا يفهم وجه الكلام بقوله تعالى : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ... ﴾ الآية فهو غلط ، وسوء تأمل ؛ لأن المقصود بهذا النص شعراء المشركين ، الذين تناولوا رسول الله ﷺ بالهجاء ، ومسوه بالأذى ، فأما من سواهم من المؤمنين فغير داخل فى شيء من ذلك ، ألا تسمع كيف استثناهم الله عز وجل ، ونبه عليهم ، فقال : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيراً ، وانتصروا من بعد ما ظُلموا ﴾ يريد شعراء النبى ﷺ ، ينتصرون له ، ويجيبون المشركين عنه » .

ويعزز هذا الفهم للآية الكريمة ما روى من أنه لما نزلت هذه الآية ،

---

(١) تفسير الطبرى ٧٨/١٩ (طبعة الأميرية – بولاق ١٣٢٥ هـ) .

(٢) المرجع نفسه ٨٠/١٩

(٣) العمدة ١/١

جاء حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، إلى رسول الله ، وهم يبكون ، فقالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء ، فتلا النبى ﷺ : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. ﴾ (١) .

كذلك يستدل القائلون بضعف الشعر فى صدر الإسلام بعامة ، بقول الله تعالى ، رداً من زعم من المشركين أن محمداً شاعر ، وأن ما جاء به إنما هو شعر : ﴿ وما علَّمناهُ الشِّعرَ وما ينبغى له ﴾ (٢) ، استخلصوا من هذا أن القرآن يحط من قدر الشعر ، ويوحى بتنفير المسلمين منه ، وصرفهم عنه إنشاء وإنشادا واستماعا .

وليس الأمر كما زعموا ؛ لأن الله سبحانه إنما أراد أنه بعث رسوله أُميًّا غير شاعر ، إلى قوم يعلمون منه حقيقة ذلك ، حين استوت الفصاحة واشتهرت البلاغة ، آية للنبوة ، وحجة على الخلق ، وإعجازاً للمتعاطين من الشعراء وغيرهم (٣) .

وقد يكون ما عرف به الشعر من الميل إلى المبالغة والادعاء ، وما اشتهر به الشعراء من الجنوح إلى الخيال والتهويل ، من أسباب تنزيه الله رسوله عن أن يكون شاعراً (٤) .

وللعلماء قديما عدة تفاسير لنص الآية ، لا تحتمل تنفيراً من الشعر ، أو تهجيناً له ، من ذلك ما رواه يونس عن الزُّهْرى أنه قال فى تفسيره :

---

(١) تفسير الطبرى ٧٩/١٩ .

(٢) سورة يس : ٦٩

(٣) انظر : العمدة ٥/١ .

(٤) اقتصر على هذا التعليل الأستاذ يحيى الجبورى فى كتابه : الإسلام والشعر ٤٣/٤٢

« معناه : ما الذى علمناه شعراً ، وما ينبغى له أن يبلغ عنا شعراً » [١] ، وقال غيره : « أراد : وما ينبغى له أن يبلغ عنا ما لم نعلمه ، أى ليس هو ممن يفعل ذلك لأمانته ، ومشهور صدقه » [٢] .

ولابن رشيق حجة طيبة ، نستعيرها فى مقام الرد على من لم يفهم الآية على وجهها ، حيث يقول : « ولو أن كون النبى ﷺ غير شاعر غض من الشعر ، لكانت أميته غضاً من الكتابة ، وهذا أظهر من أن يخفى على أحد »[٣] .

وقد نستطيع أن نضيف إلى هذه الآراء فى فهم الآية ، أن الله سبحانه ينزه رسوله عن كونه شاعراً ، حين نسبت قريش فضيلة الرسول ، وحجته البالغة إلى تأثير الشعر ، لا إلى فضل الرسالة ، وزعمت أن ما يتلوه عليهم ليس وحيا من عند الله ، بل إلهاما من شيطان الشعر .

من كل هذا يتبين لنا أن القرآن الكريم لم ينفر من الشعر بعامة ، ولم يذم الشعراء أجمعين ، وإنما وقف موقف الإنكار من الشعر الظالم الذى يجور على الحق ، ويجافى العدل والخير ، ومن الشعراء الذين ينحون بشعرهم هذا المنحى .

وموقف الرسول ﷺ من الشعر يؤيد ما ذكرنا ، فقد كان صلوات الله عليه - وهو عربى خالص - يتذوق فن الكلام ويعرف للشعر قيمته وتأثيره ، وكثيرا ما استنشد رواة الشعر من صحابته ، أو استمع لما يروون منه ، والأدلة على ذلك مستفيضة فى المراجع العربية القديمة :

---

(١) العمدة ١/٦

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع نفسه .

حدث أبو الفرج الأصفهانى عن أنس بن مالك ، قال [١] :
« جلس رسول الله ﷺ فى مجلس ليس فيه إلا خزرجى ، ثم استنشدهم قصيدة قيس بن الخطيم (وهو شاعر الأوس) [٢] يعنى القصيدة التى مطلعها :

أتعرفُ رسماً كاطِّراد المذَاهِبِ ... لِعمْرة وحشاً غيْرَ مَوْقِفِ راكب

فأنشده بعضهم إياها ، حتى بلغ إلى قوله :

أجالِدُهُم يومَ الحدِيقةِ حاسراً ... كأنّ يِدى بالسّيف مخْراقُ لاعِبِ

فالتفت إليهم رسول الله ﷺ ، فقال : هل كان كما ذكر ؟ فشهد له ثابت بن قيس بن شماس ، وقال له : والذى بعثك بالحق يارسول الله لقد خرج إلينا يوم سابع عرسه ... فجالدنا كما ذكر » .

أكان الرسول يطلب سماع هذه القطعة الأدبية الممتازة ، ويسهم فى نقد بعض معانيها ، فيما يشبه أن يكون مجلساً أدبياً مع بعض أصحابه ، لو كان حقا يكره الشعر ، ويتنكر له ؟

وقد اشتهر عنه ﷺ أنه كان كثير الاستنشاد لبعض شعر أمية بن أبى الصلت ؛ لما فيه من معان حكمية ، ونظرات دينية صائبة ، وكان أمية « يذكر فى شعره خلق السموات والأرض ، ويذكر الملائكة ، ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء » [٣] .

من ذلك ما رواه أبو الفرج الأصفهانى ، أنه ﷺ طلب من عكرمة

---

(١) الأغانى ٣/٧ (طبعة دار الكتب) .

(٢) انظر : طبقات ابن سلام ٢١٥/١ (مطبعة المدنى – القاهرة ١٩٧٤ م)
والمخراق : منديل يلف ليضرب به ، وهو ما يعرف فى ريفنا الآن بالطرة .

(٣) المرجع نفسه ٢٦٢/١

ابن عباس أن ينشده شعراً لأمية بن أبى الصلت ، فأنشده قوله (١) :

الحمد لله مُمْسانا ومُصبحنا   بالخيْر صبَّحنا ربى ومسَّانا
رب الحنيفَةِ لم تَنفذْ خَزائِنُها   ممْلوءة طبَّق الآفاقَ سُلطانا
ألَا نَبيٌّ لنا مِنَّا فيخبرُنا   ما بعد غايَتِنا من رأسِ مَحْيانا
بَينَا يُرَبِّبُنا آباؤُنا هَلَكُوا   وبينما نَقتنى الأولادَ أفنانا
وقد عِلمنا لَوَ انَّ العلم ينفعُنا   أنْ سوف يلحقُ أُخرانا بأُولانا
وقدْ عجبتُ وما بالموتِ من عجَبٍ   ما بَالُ أحيائِنا يَبْكُونَ موتانا !!

وقد عبر الرسول عن إعجابه بهذا الشعر الصادق بقوله : (إن كاد أمية ليسلم) .

كذلك كان ﷺ يقبل على كل شعر يتضمن حكمة صادقة ، أو خلقاً كريماً ، أو رأيا صائباً فى الحياة أو الناس ، ألا تراه يقبل على أبى ليلي النابغة (٢) الجعدى ، حين أنشده قوله (٣) :

ولا خيْرَ فى حِلم إذا لم يكنْ له   بوادِرُ تحْمى صفْوهُ أنْ يُكدَّرا
ولا خيرَ فى جهل إذا لم يكنْ له   حليمٌ إذا ما أوْردَ الأمرَ أصدَرا

فيقول له : (أجدت لا يفضض الله فاك) . فعاش مائتين وعشرين سنه لم تنقض له ثنية ، أى لم تتحرك .

---

(١) الأغانى ١٨٣/٣ ، انظر : ديوان أمية ٤٦ (طبعة ليبزج ١٩٧١ م) .

(٢) قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة بن جعدة صحب النبى وروى عنه ومدحه سمط اللآلى ٢٤٧/١ عاش ثلاثة قرون والقرن ثمانون سنة وقال فى ذلك :

صبحت أناسا فأفحنيتهم   وأفنيت بعد أناس أناسا
ثلاثة أهلين أفنيتهم   وكان الإله هو المستآسا

وتحنف فى الجاهلية وهجر الأوثان والأزلام وكان يصوم ويستغفر ، قال :

الحمد لله لا شريك له   من لم يقلها فنفسه ظلما

(٣) الأغانى ١٣٠/٤ وسمط اللآلى ٢٤٧/١

وكثيراً ما كان الرسول يوجه الشعراء ، ويستحثهم على الاتجاه بأشعارهم نحو الحق والخير ، ويشجعهم على هذا الاتجاه إن لمحه فى أشعارهم ، ومن هنا أثنى على النابغة الجعدى لما سمع بيتيه السابقين ، وأعجبه ما فيهما من رأى صائب ، كما وجهه ، وأثنى عليه ، ودعا له حين أنشده قوله (١) :

بَلغنا السما مَجداً وجوداً وسُؤددا   وإنّا لَنرجوا فوقَ ذلك مَظهرا

فقال له النبى : إلى أين يا أبا ليلى ؟ فقال : إلى الجنة يا رسول الله !! قال : نعم ، إن شاء الله .

وها هو ذا يقول للعلاء بن الحصين ، وقد جاءه يوما : هل تروى من الشعر شيئاً ؟ فأنشده (٢) :

وَحيِّ ذَوى الأضغان تَسْبِ عُقولَهم   تحيتَك الحُسنى فقد ترفع النَّغَلْ
فإن دحسوا بالكُرهِ فاعْفُ تكرُّما   وإن حَبسوا عنك الحديثَ فلا تسَلْ
فإنَّ الذى يؤذيك منه سماعُه   وإن الذى قالوا وراءك لم يُقلْ

فلما سمع هذا الشعر قال قولته المشهورة : (إن من الشعر لحكمة) .

من هذا نرى أن الرسول كان مقبلا على الشعر ، راغباً فى سماعه ، يستنشده أصحابه ، ويسائلهم عنه ، ويستحسن منه ماحسن ، ويبدى إعجابه به ، ويرشد إلى مواطن الخير فيه .

---

(١) جمهرة أشعار العرب (أبو زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى) ٦١ (طبعة بولاق ١٣٠٨ هـ) .

(٢) العمدة ١٧/١ ، وانظر : جمهرة أشعار العرب ١٨ . دحسوا بالكره : أظهروه . النغل : الحقد والكراهية .

وكما رأينا الرسول يقبل على الشعر مستنشداً ، عرفناه يقبل عليه مستمعاً متأثراً ، مستجيباً ، منفعلا .

فكثيراً ما كان يتأثر بالشعر المعبر عن مشاعر إنسانية مهذبة ، وعواطف راقية سامية ؛ ولذا اشتهر عنه قوله للخنساء : (هيه ياخنساء) ، كلما أنشدته شعرا فى رثاء أخيها صخر [١] .

ولعل من أظهر ما يدل على أن الرسول ﷺ ، كان يهتز للشعر ، وينفعل له ، ويتذوقه ، ويتأثر به ، ما روى من أنه كان قد أهدر دم كعب بن زهير الشاعر ؛ لما بلغه قوله لأخيه بجير بن زهير حين أسلم [٢] :

مَنْ مبلغٌ عنّى بُجيراً رسالة ... فهلْ لك فيما قُلتُ بالخَيفِ هل لكَا ؟
شَربتَ مع المأمون كأساً رويَّةً [٣] ... فأنْهلكَ المأمونُ منها وعَلّكا
وخالفْتَ أسبابَ الهَدى واتّبعته ... على أىِّ شىء ويْبَ غيرِك دلَّكا ؟
على خُلُقٍ لم تُلفِ أماً ولا أبًا ... عليه ولم تُدرِكْ عليه أخًا لكا

فلما أنشده كعب قصيدته المشهورة (بانت سعاد) يعتذر فيها إليه ويمدحه عفا عنه ، وخلع عليه بردته الشريفة ، ثواباً له [٤] .

ولقد تعرضت له قُتَيْلة بنت النضر بن الحارث ، من بنى عبد الدار

---

(١) انظر : أنيس الجلساء فى ديوان الخنساء (أحد الآباء اليسوعيين) ص ٩ (المطبعة الكاثوليكية – بيروت ١٨٨٨ م) .

(٢) السيرة لابن هشام ق ٥٠٣/٢ . الخيف : أسفل الجبل ، والمراد هنا : خيف منى . الويب : بمعنى الويل . المأمون : يعنى الرسول ، وكانت قريش تسميه بالمأمون وبالأمين قبل النبوة .

(٣) وفى رواية : « سقاك أبو بكر بكأس روية ... » .

(٤) العمدة ٧/١ وطبقات ابن سلام ١٠٣/١

من قريش وهو يطوف بالكعبة ، فاستوقفته – وكان قد أمر عليا بن أبى طالب بقتل أبيها بعد أن أسر – وأنشدته قولها (١) :

يا راكباً إن الأثيلَ مَظِنَّةٌ ... مِنْ صبحِ خامسةٍ وأنت موفقُ
أبلغْ به ميْتاً بأن قصيدةً ... ما إن تزالُ بها الركائب تخْفِقُ
مِنِّى إليه وعبرةً مَسفوحةً ... جادتْ لِماتِحها وأخرى تخنُق
فليسمعنَّ النَّضرُ إن نادَيته ... أمْ كيف يسمع ميِّت لا ينطقُ
ظلت سيوفُ بنى أبيه تَنُوشُه ... لله أرحامٌ هناك تُشقَّقُ
قَسْراً يُقادُ إلى المَنيَّةِ مُتعَباً ... رسْف المُقيَّد وهْو عانٍ مُوثَقُ
أمحمدٌ ها أنتَ نَجلُ نَجيبةٍ ... من قوْمِها والفَحلُ فحلٌ مُعْرِق
ما كان ضرَّك لو مَننتَ وربما ... منَّ الفتى وهو المَغيظُ المحْنَقُ
والنَّضرُ أقربُ من قتلتَ وسيلةً ... وأحقُّهم إنْ كان عِتقٌ يُعتَقُ

فتأثر الرسول أيما تأثر بهذا العتاب الحزين الباكى ، وقال : (لو سمعت هذا قبل أن أقتله ما قتلته !!) .

وقد يكون الشعر وسيلة للاستنجاد بالرسول ، كما كان سبيلا إلى الاعتذار إليه ، أو معاتبته ، وهنا نجد الرسول يهب للنجدة ، منفعلا أشد الانفعال .

روى أن عمرو بن سالم الخزاعى قدم على الرسول – وكانت خزاعة فى حلفه فاعتدت عليها قريش – مستنصراً ، فقال (٢) :

---

(١) الأغانى ١/٩ والعمدة ١/٣٠

(٢) السيرة لابن هشام ق ٢/٣٩٤ ، وجمهرة أشعار العرب ١٦/١٧ الوتير : اسم ماء بأسفل مكة كان لخزاعة .

يارِبّ إنى ناشدٌ محمداً ... حِلْفَ أبينَا وأبيه الأتْلَدا
قد كنتُم ولداً وكنا والداً ... ثُمَّتَ أسلمنا فلم تَنْزِعْ يَدا
فانصرْ هداك الله نصراً أعتدا ... وادْعُ عبادَ الله يأتوا مَدَدا
فيهم رسولُ الله قد تَجرَّدا ... إن سِيمَ خَسْفاً وجههُ تَرَبَّدا
إنّ قريشاً أخْلَفوك المَوعدا ... ونقضوا ميثاقَك المُوكَّدا
وزعموا أنْ لستُ أدْعوا أحَدا ... وهم أذلُّ وأقلُّ عددا
هُمْ بَيَّتونا بالوتِيرِ هُجَّدا ... وقتلونا رُكعاً وسُجَّدا

فما إن سمع الرسول هذا الشعر حتى دمعت عيناه ، وقال : (نُصِرتَ يا عمرو بن سالم) .

وكيف يمكن أن يتجاهل تقدير الرسول الشعر ، وإدراكه تأثيره فى نفوس العرب ، وهو الذى قبل مفاخرة وفد بنى تميم فى ميدان الشعر ، فأذن لحسان بن ثابت فى الرد على شاعرهم ، فلما سمعوا قول حسان أعجبهم ، ورأوا فى تفوقه على شاعرهم وجهاً من وجوه التوفيق الإلهى للنبى ، فقالوا : (إن هذا الرجل لمؤتى له – أى ميسر له – لشاعره أشعر من شاعرنا ..) [١] .

ثم ، أليس من دلائل إعزاز الرسول الشعر ، واحتفائه به ، ما روته عائشة رضى الله عنها من أنه ﷺ بنى لحسان بن ثابت فى المسجد منبراً ينشد عليه الشعر ؟ [٢] وأنه حين دخل مكة معتمراً (عمرة القضاء ٧ هـ) قدم بين يديه عبد الله بن رواحة ، فأخذ بخطام ناقته ، مرتجزاً بأبيات منها [٣] :

خَلُّوا بنى الكفار عَنْ سبيله ... خَلُّوا فكلُّ الخيرِ معْ رسولِه
يارِبّ إنى مؤمنٌ بقيلِهِ ... أعْرِفُ حقَّ الله فى قَبولِه

---

(١) السيرة لابن هشام ق ٢/٥٦٠ – ٥٦٧ .
(٢) العمدة ١/٩
(٣) طبقات ابن سلام ١/٢٢٣ ، والسيرة لابن هشام ق ٢/٣٧١

وكل هذا الشعر الذى سمعه الرسول ، أو طلب سماعه ، من النماذج الفنية الجيدة ، ليس فيه معنى ضعيف أو لفظة ساقطة ، أو نسج مهلهل ، إن قسته بمقياس الفن أرضاك ، وإن قسته بمقياس الخلق أرضاك ، وإن قسته بمقياس العقل والحق أرضاك ؛ لأنه شعر صدر عن قائليه تعبيراً عن فطرة الخير فيهم ، أو عن تأملات واعية هدتهم إليها عقولهم ، أو عن مواقف إنسانية هيجت مشاعرهم ، فلم يتكلفه قائلوه تكلفاً ، أو يحملوا قرائحهم عليه حملا ، إرضاء للدعوة الجديدة ، أو إرضاء لرسولها ، وكيف !! وأكثره مما قيل قبل الدعوة الجديدة ، وقبل أن يرسل رسولها .

ويلخص موقف الرسول ﷺ من الشعر قوله : « إنما الشعر كلام مؤلف ، فما وافق الحق منه فهو حسن ، وما لم يوافق الحق منه ، فلا خير فيه » (١) .

فالرسول الذى عرفناه مقبلا على هذا الشعر الحسن ، هو نفسه الذى أعرض عن الطفيل بن عمرو السدوسى لما أتاه وأنشده قوله (٢) :

ولا وإلهِ الناس نَألَمُ حرْبَهم ... ولوْ حاربَتْنا مَنْهَبٌ وبنو فَهِمِ
ولمّا يكنْ يومٌ تزولُ نُجومُه ... تطيرُ به الركبانُ ذو نبإٍ ضَخمِ
أسَلْماً على خَسفٍ ولستُ بخالدٍ ... ومالِيَ من واقٍ إذا جاءنى حتمى
فلا سَلْم حتى تحفِز الناسَ خِيفةٌ ... ويصبح طيرٌ كانِساتٌ على لَحمِ

فأجابه النبى بأن قرأ سورة الإخلاص والمعوذتين ؛ وذلك لما فى هذا الشعر من روح جاهلية تمجد ما كان بين الجاهليين من نزاع قبلى ، وإلى

(١) العمدة ٩/١ ، وانظر : دلائل الإعجاز (الجرجانى) ١٣ - ٢٠ (مطبعة المنار - القاهر ١٣٦٦ هـ) .

(٢) الأغانى ٥١/١ . كانسات : عاكفات .

هذا الشعر وأمثاله التى تدور مواضيعها حول نهش الأعراض ، وإثارة الضغائن والأحقاد ، والمديح الكاذب ، والفخر المتعالى بالأحساب والأنساب – لا بالعمل الطيب – إلى هذا الضرب من الشعر ينصرف قوله ﷺ (١) « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه ، خير له من أن يمتلىء شعراً » .

ونكتفى بهذا القدر فى معرض الاستدلال على أن الرسول ﷺ لم يكن يرفض الشعر بعامة ، ويعرض عن الشعراء أجمعين ، فقد رأيناه يقبل على ما حسن ووافق الحق من الأشعار ، الجاهلية وغير الجاهلية ، ولم يتضمن ما ينافى روح الإسلام وتعاليمه وآدابه ، واشتمل على العظة والعبرة ، والتذكير والحض على الفضائل ... وغير ذلك مما يدخل تحت قوله ﷺ : « إن من الشعر لحكمة » .

من هذا العرض لموقف الرسول من الشعر ، يتضح لنا أنه عليه الصلاة والسلام ارتضى ما ارتضاه القرآن فى شأن الشعر والشعراء « وإذا كنا لا نجد فى القرآن الكريم تفصيلا لذكر الشعر والشعراء ، وإذا كان ذكر الشعر والشعراء جاء فى معرض التهوين والذم مستثنياً الصالحين منهم ، فإننا نجد فى حديث رسول الله تفصيلا وإيضاحاً ، وتطبيقاً عملياً لما يرضاه الدين أو ينهى عنه ، فالقرآن يغض من شأن الشعراء الهائمين فى كل واد ، وكذلك فعل الحديث ، والقرآن يستثنى المؤمنين الصالحين منهم ، وكذلك فعل الرسول ، فتعهد شعراء المؤمنين بالرعاية والتشجيع والتوجيه ، وجند مواهبهم فى سبيل خدمة الدعوة ونشرها » (٢) .

نخلص من هذا إلى أن الإسلام لم يصرف المسلمين عن الشعر كله ،

---

(١) المجازات النبوية ٩٠ ، والعمدة ١٢/١ . يريه : يفسده ويهيضه .

(٢) الإسلام والشعر (يحيى الجبورى) ٧٥

ولم يشغلهم عن إنشاء ما حسن منه ، أو إنشاده ، أو سماعه ، وأن الرواية الشعرية لم تتعطل كلها فى العهد النبوى ؛ لأن الإسلام – ممثلا فى القرآن وفى رسوله الكريم – لم يتخذ موقف الرفض التام للشعر والشعراء .

على أن هذا اللون من الشعر الحسن ، لم يكن يمثل شعر العهد النبوى كله ، فقد كان هناك شعر البادية ، الذى كان ما يزال يعبر عن حياتها ، بكل ما فيها من خير وشر ، بعيداً عن الإسلام .

كما كان هناك شعر آخر فى حواضر الحجاز – مكة والمدينة والطائف – لا يدخل تحت أبواب هذا الشعر الحسن ، وقد وقف الرسول إلى جانب طائفة من شعرائه ، يشجعهم ويحثهم على المزيد منه ، مدفوعاً إلى ذلك بظروف خاصة ، سيأتى ذكرها قريباً ، وكان لكل ذلك أثره فى حياة الشعر فى فترة النبوة ، مما نتناوله بشىء من التفصيل فيما يلى :

(ب) الشعر بين البادية والحضر فى العهد النبوى :

ما دمنا فى مقام دراسة تأثير الإسلام فى الشعر ، على أى نحو كان هذا التأثير ، فإن الحديث عن حياة الشعر فى البادية فى عهد النبوة لا يدخل فى نطاق هذه الدراسة ؛ إذ من المعلوم أن الإسلام ظل محصوراً فى المدينة وما حواليها فترة استغرقت أكثر حياة الرسول فى المدينة ، وظلت بوادى الجزيرة العربية الشاسعة ، فى نجد واليمامة ، وتخوم الشام والعراق وغيرها ، يلفها ظلام الجاهلية ، لم تغزها بعد تعاليم الإسلام ، ولم تشرق عليها شمس هدايته ، حتى إذا سقطت مكة عام الفتح (٨ هـ) ورأى العرب أن قريشاً زعيمة الوثنية ، وحاملة لوائها ، قد دخلت فى دين محمد ﷺ ، أخذت وفود قبائلهم تضرب أكباد الإبل صوب المدينة ؛ لتعلن إسلام قومهم فى شتى أنحاء الجزيرة العربية ، حتى سمى العام التاسع من الهجرة عام الوفود ، ولم يلبث الرسول ﷺ أن توفى بعد ذلك بقليل .

ونحن لا نجهل أن أفراداً من البادية قدموا على الرسول فأسلموا ، وأن غيرهم أسلم على يد مبعوثيه إلى بعض القبائل ، وأنه كان من بين هؤلاء نفر من الشعراء ، كأعشى تميم ، والحجاج بن علاط السلمى ، وناجية بن جندب الأسلمى ، وميمونة بنت عبد الله البلوية .. وغيرهم [١] ، غير أن هؤلاء انضموا إلى معسكر شعراء الرسول بالمدينة ، فى صراعهم مع شعراء مكة – كما سيأتى – فالمعركة بين مكة والمدينة جذبت الشعراء إلى كل منهما [٢] ، وشعر هؤلاء لا يمثل شعر البادية ، بقدر ما يمثل – مع شعراء الرسول بالمدينة – تلك النهضة الشعرية ، التى كان باعثها وملهبها الصراع بين المعسكرين .

وفوق هذا فإن هؤلاء الشعراء البدو كانوا قلة قليلة – إن صح هذا التعبير – بالنسبة للشعراء الذين كانت البوادى العربية تموج بهم ، وتردد أشعارهم ، وهذه الأشعار ، التى راجت طوال العهد النبوى تقريباً ، تعد امتداداً للشعر الجاهلى شكلا ومضموناً ومذهباً .

ولا يقلل من قيمة هذا الحكم ما جاء فى شعر بعض شعراء البادية ، ممن أسلموا مع قبائلهم فى العامين الأخيرين من حياة الرسول ، من بعض المعانى أو الألفاظ المتأثرة بالإسلام ، كالذى جاء فى شعر كعب بن زهير ، من أبيات فى مدح الرسول والمهاجرين يقول فيها [٣] :

---

(١) انظر : السيرة لابن هشام ق ٥٣/٢ ، ١٦٦ ، ٣٤٥ ، ٣٤٨ ومواضع أخرى متفرقة ، وانظر أيضاً : تاريخ الشعر السياسى (الشايب) ٧٠

(٢) انظر : تاريخ الشعر السياسى (الشايب) ٧٢

(٣) طبقات ابن سلام ٨٤ ، والسيرة لابن هشام ق ٥١٠/٢ – ٥١٣ . قال قائلهم : هو عمر بن الخطاب حين هاجر من مكة . زولوا : فارقوا مكة بالهجرة إلى المدينة . أنكاس : جمع نكس : الضعيف الهياب العاجز . كشف جمع أكشف : وهو الذى لا يثبت فى الحرب . معازيل : يعتزلون الحرب . عرد : فر وأعرض . التنابيل : القصار . التهليل : الجبن .

وقال كلُّ خليلٍ كنتُ آمله لا ألفينَّك إنى عنك مشغول
فقلتُ خَلُّوا سبيلى لا أبالَكُمُ فكلُّ ما وعدَ الرحمنُ مَفعولُ
نُبِّئْتُ أن رسولَ الله أوعدَنى والعفوُ عندَ رسولِ الله مأمول
مَهلاً هدكَ الذى أعطاك نافِلةَ الـ ـقرآن فيها مَواعِظٌ وتفصيـل
إنّ الرسول لسيفٌ يُستضاءُ به مُهنَّد من سيوف الله مَسلول
فى فتيةٍ من قريش قال قائلُهم ببِطْن مكةَ لمّا أسلموا : زُولُوا
زالُوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشُف يومَ اللقاءِ ولا ميلٌ مَعازيلُ
شمُّ العرانيـنِ أبطـالٌ لَبوسُهُـمُ منْ نَسْجِ داوُدَ فى الهيْجا سَرابيلُ
يمشون مَشْىَ الجمال الزُّهْر يَعصمُهم ضَرْبٌ إذا عَرَّد السُّود التنابيل
لا يقعُ الطَّعنُ إلا فى نُحُورِهُمُ وما بِهِمْ عن حياضِ الموتِ تهليلُ

فإن ما فى هذه الأبيات من معان وألفاظ يمكن أن تعد من أثر الإسلام ، يكاد يتوارى خلف هذا المديح الذى يجرى على منهج المديح الجاهلى ، وبخاصة فى الأبيات الأخيرة ، ولو لم تقل قصيدة كعب التى منها هذه الأبيات فى مدح الرسول ، لعددناها جاهلية ؛ لأن ملامح الإسلام فيها تكاد تكون معدومة .

ويمكن أن نقيس على هذا ما كان من شعر بعض شعراء البادية ، قبيل وفاة الرسول ، يتضمن معنى أو لفظاً إسلامياً .

وقد يكون هذا التأثير ضئيلا لا يكاد يلحظ ، كما نرى فى شعر المزرد ابن ضرار – أخى الشماخ الشاعر المشهور – وكان قد وفد على الرسول بعد فتح مكة ، فأسلم وأنشده شعراً يهجو فيه قومه لجورهم عليه ، وليس فيه من أثر للإسلام إلا الاعتراف للرسول بالرسالة ، يقول مزرد بين يدى الرسول [١] :

---

(١) ديوانه (جمع خليل إبراهيم العطية) ٦٣ (طبعة بغداد ١٩٦٢ م) .

تَعَلَّم رسولَ الله أنّا كأننا   أفأنا بأنمارٍ ثعالبَ ذِى غِسْلْ
تَعَلم رسولَ الله لمْ نَرَ مثلهم   أجَرّ على الأدْنى وأحرَمَ لِلفضْل

وهذه اللمحات الإسلامية لا تكاد تذكر بجانب شعرهم الآخر ذى الطابع الجاهلى الخالص ، وهذا أمر طبيعى ، فما كان للإسلام أن يحدث أثره فى ملكات هؤلاء الشعراء بمجرد دخولهم فيه ، وأن يهجروا مادربت عليه شاعريتهم فترة طويلة تحت تأثير حياتهم الجاهلية ، التى كانوا ما يزالون يعيشونها بكل مقوماتها وظروفها وتقاليدها ، وإن دخلوا فى الإسلام .

آية هذا كله ، أن شعر البادية فى العهد النبوى شعر جاهلى ، يجرى على ألسنة جاهلية ، ويفيض عن وجدانات جاهلية ، ويعبر عن حياة جاهلية ، ومن ثم يصدق عليه ما يصدق على الشعر الجاهلى الذى كان مزدهراً قبل الإسلام من خصائص الشكل والمضمون .

(جـ) ازدهار الشعر فى حضر الحجاز فى العهد النبوى :

كانت هجرة الرسول ﷺ ، وصحبه من أهل مكة إلى المدينة نقطة تحول هامة ، فى تاريخ الدعوة الإسلامية .

ففى المدينة التف حوله الأنصار والمهاجرون ، يؤازرونه ، وينصرون دعوته ، ورأت قريش أن دعوة محمد ﷺ تنمو وتشتد ، والأيام تتوالى ، ومكانتها الدينية تهتز بين العرب ، فلم يكن لها بد من أن تقف فى وجه محمد وصحبه ودعوته وقفة أشد عنفاً وضراوة ، وأن تجند لذلك سيوفها وألسنتها ، وأن تؤلب عليه من تستطيع تأليبهم من قبائل العرب وشعرائهم .

هب شعراء قريش يعلنونها حرباً شعواء على الرسول والإسلام والمسلمين ، وفى مقدمتهم ألمع شعرائها ، وأشدهم عداوة للمسلمين وهجاء

لهم ، وتحريضاً عليهم ، عبد الله بن الزِّبَعْرَى [١] ، يعينه ويؤيده أبو سفيان المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب (ابن عم الرسول) ، وضرار بن الخطاب الفهرى – فارس قريش وشاعرها – والحارث بن هشام (أخو أبى جهل) المخزومى ، وأبو عزة عمرو بن عبد الله بن عثمان الجمحى ، وهبيرة ابن أبى وهب المخزومى ، يؤازرهم من شعراء الطائف أمية بن أبى الصلت ، ومن شعراء اليهود بالمدينة وما حواليها كعب بن الأشرف ، والربيع بن أبى الحقيق ، ومن يدعى سماك اليهودى ، ومرحب اليهودى ، وجبل بن جوال الثعلبى .. وغيرهم .

هب هؤلاء يناضلون الرسول ودعوته وصحبه فى عنف وضراوة ، ومن ورائهم شواعر من قريش ، فتق الصراع شاعريتهن ، يثرن الحمية ، ويحرضن على قتال المسلمين ، ويثرن الأحقاد ، ويندبن القتلى من ذويهن ، أو يشتفين بقتلى المسلمين ، من أمثال هند بنتِ عتبة زوج أبى سفيان بن حرب ، وصفية بنت مسافر الأموية ، وقتيلة بنت النضر بن الحارث ... وغيرهن [٢] .

استنفرت قريش كل هؤلاء لمحاربة الدين الجديد ومعسكره بالمدينة ، فى محاولة مستميتة لإطفاء نوره ، والقضاء عليه ، فاستعرت هذه المعركة الكلامية ضد ثورة الإسلام ، واندفاعه لتحطيم مثل هؤلاء المناوئين ، وتقاليدهم العقيمة ، وعقيدتهم الفاسدة .

ويهمنا هنا أن ننبه إلى ما كان للإسلام من فضل أدبى هام ، إذ

---

(١) انظر فى مدى قوة شاعريته ، وعداوته للإسلام : الاستيعاب (ابن عبد البر) ٣٦٧/١ (طبعة حيدر آباد ١٣١٨ ، ١٣١٩ هـ) .

(٢) انظر فى هؤلاء الشعراء والشواعر : السيرة لابن هشام ٣٨/٢ – ٤٢ ، ٥٢ ، ٩١ – ٩٢ ، ١٩٨ ، ٢٧٢ ومواضع أخرى متفرقة ، وانظر أيضاً : العمدة ٧/١ وطبقات ابن سلام ٢٣٥/١ – ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٨١ – ٢٨٢ .

لولاه ، ولولا ماشنه على المشركين عامة ، ومشركى قريش خاصة ، من حرب عدائية سافرة صريحة ، لما نهضت الشاعرية القرشية ، ولا انبعثت قوية ، بعد أن كانت غير ذات خطر فى الجاهلية ، وإنما قلل من شأنها ، وأضعف نتاجها فى الجاهلية أن قبائل قريش لم تكن بينهم نائرة (حقد وعداوة تثير الشر) ولم يحاربوا ، كما يقول ابن سلام [١] ، أما وقد وجد النائرة والحرب فى العهد النبوى فقد ثارت عواطف القرشيين ، ونشطت شاعريتهم .

ووجه الرسول وصحبه – إلى جانب السيوف المشرعة – بألسنة محمومة ، تسعى إلى النيل منه ومن دعوته وأصحابه .

وقد أخذت هذه الحرب الشعرية اتجاهات عديدة ، وسلكت سبلا شتى لبلوغ أهدافها ، كالتحريض على قتال المسلمين ، وإشعال الحقد عليهم ، وإثارة الحمية فى النفوس ضدهم ، والتشفى بقتلاهم ، أو رثاء من سقطوا من صفوف المشركين صرعى فى معاركهم مع المسلمين ، والحض على الثأر لهم .

كل هذا مع تهجم على النبى وأصحابه ، بهجاء فيه عنف ، وفيه إقذاع وفحش ، ترتفع بهذا كله أصوات الشعراء والشواعر من قريش ومن والاها ، ولم يكن شعر النساء أقل خطراً فى هذه الحرب من شعر الرجال « ففيه الكثير من اتجاهات الشعر القرشى ، زيادة على ما فى شعر النساء من التفجع واللوعة فى بكاء القتلى » [٢] .

فمما انطلقت به ألسنة شعراء المشركين فى التحريض على قتال المسلمين ، قول أمية بن أبى الصلت ، فى قصيدته المشهورة فى رثاء قتلى بدر من قريش ، التى مطلعها :

---

(١) طبقات ابن سلام ق ٢٥٩/١

(٢) شعر المخضرمين (يحيى الجبورى) ١٧٠

ألّا بكيتَ على الكِرا ... م بَنِى الكرامِ أُولى المَمادِحْ

وفيها يقول محرضاً على معاودة قتال المسلمين (١) :

لله دَرُّ بنـــى عـ ... ـلىّ أيِّم منهم وناكِحْ
إنْ لم يُغيروا غارةً ... شعواءُ تُجْحِرُ كل نابحْ
بالمُقْربـــات المبعـــدا ... ت الطّامحاتِ مع الطوامح
مُرْداً على جُرْدٍ إلى ... أسْدٍ مَكالِبةٍ كوالـحْ
ويُــلاقِ قِرنٌ قرنَـــه ... مَشْىَ المُصافحْ للمصافحْ
بزُهـاء ألـفٍ ثم ألـــ ... ـفٍ بين ذى بَدَنٍ ورامحْ

فهذه دعوة للانتقام لقتلى بدر من المشركين ، تلت رثاء مهيجاً للمشاعر والأحقاد ، كان لها من الأثر فى تحميس قريش ماجعل الرسول ﷺ يحرم إنشادها (٢) .

ويهرع كعب بن الأشرف اليهودى إلى مكة بعد وقعة بدر ، مستغلا إحساس قريش بمصابها الفادح فى بدر ؛ ليزيد من التهاب مشاعر الحقد والكره عند القرشيين لمحمد وأتباعه ، بتحريض سافر على قتالهم ، وإنقاذ المدينة منهم ، خاصة وقد جاءت الأنباء إلى المدينة تحدث بأن الحارث بن هشام بن المغيرة يجمع الجموع ، ويعد العدة لحرب أخرى ضد المسلمين ، وفى هذا يقول كعب (٣) :

---

(١) السيرة لابن هشام ق ٢٢/٢ بنو على : يريد بنى العلا ، تجحر : تلجىء إلى الجحر .

(٢) انظر : تاريخ الأدب العربى (كارل بروكلمان ترجمة عبد الحليم النجار) ١١٣/١ (طبعة دار المعارف بمصر ١٩٤٩ م) .

(٣) السيرة لابن هشام ق ٥٢/٢

طحنَتْ رحَى بدْر لمهلك أهله ولمثل بَدْرٍ تَستهِلُّ وتدمعُ

قُتلت سَراةُ الناس حول حياضهم لا تَبعَدو إن الملوك تُصرّع

كم قد أصيب به مِنَ ابيض ماجدٍ ذى بهجة يأوى إليه الضُيع

ويقول أقوامٌ أسَرُّ بسخطهم إن ابنَ أشرف ظل كعباً يجزع

صدَقوا فليتَ الأرض ساعةَ قُتِّلوا ظلت تسوخُ بأهلها وتُصدّع

نُبئتُ أن بنى المُغيرةَ كلهم خَشعوا لقتل أبى الحكيم وجُدّعوا

نبئتُ أن الحارث بنَ هِشامِهم فى الناس يَبنى الصالحاتِ ويجْمع

لِيزُورَ يثربَ بالجموع وإنما يحمى على الحسبِ الكريمُ الأروعُ

وهذا الشعر يكشف عن عداوة دفينة للإسلام والمسلمين ، وبهذه العداوة اشتهر كعب ، فأخذ يهجو الرسول وأصحابه ، ولم تسلم أعراض المسلمين من أذاه ، فيقال إنه بعد أن رجع من رحلته هذه إلى مكة أخذ يشبب بنساء الصحابة ويشهر بأعراضهم (١) ؛ ولذا حرصت الرواية الإسلامية على تجاهل رواية هذا الشعر ، الذى يتعرض فيه كعب لهجاء المسلمين هجاء فاحشاً ، فكل ماقيل من هذا الضرب قد عفى عليه وطمس ، ولم تبق إلا الإشارة إليه ووصفه ، وما بقى له من شعر فى الصراع بين مكة والمدينة ، إنما هو مما لا يمس العرض أو الدين .

وقد أثارت أبيات كعب هذه مشاعر المسلمين ، فبرز بعض شعرائهم للرد عليه ، منهم حسان بن ثابت (٢) ، وميمونة بنت عبد الله البلوية ، التى أجابها كعب ، لما قالت :

تحنَّن هذا العبدُ كل تحنُّن يُبكِّى على قَتلى وليس بناصبِ

---

(١) انظر : السيرة لابن هشام ٢/٥٤

(٢) المرجع السابق ق ٢/٥٣

بقوله [١] :

أتشتُمُني أن كنت أبكي بِعبْرَةٍ   لقومٍ أتاني وُدُّهُم غَيرَ كاذِبِ

فإني لباكٍ ما بقيتُ وذاكرٌ   مآثرَ قومٍ مجدُهم بالجُباجِبِ

وليس هذا الود الذى جمع بين كعب وقريش ، إلا وليد العداوة التى تربط بين قلبه وقلوبهم ، والتى يعرف عنها قوله عن المسلمين (أقوام أسر بسخطهم) وجزعه الشديد حين سمع بما حدث لقريش ببدر (إن ابن أشرف كعباً ظل يجزع) وتمنيه أن تدك الأرض بمن عليها :

فليت الأرض ساعة قتلوا   ظلت تسوخ بأهلها وتصدع

وإصراره على بكاء قتلى قريش ما بقى على وجه الأرض (فإنى لباك ما بقيت) ، وقوله عقب بدر [٢] . « والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم ، لبطن الأرض خير من ظهرها » .

ولعله غنى عن البيان أن كعب بن الأشرف لم يكن بهذا الشعر معبراً عن مشاعره فحسب ، وإنما كان لسان اليهود كذلك فى التعبير عن عداوتهم للإسلام ورسوله وأتباعه ، فاليهود وإن كانوا أصحاب دين وتوحيد ، إلا أنهم يلتقون مع قريش فى عدائهم للإسلام والمسلمين ، « فقد جاهر اليهود منذ وقت مبكر بعدائهم للدين الإسلامى ، ورفعوا راية العدوان ضد المسلمين ، وانضموا إلى قريش فى حربهم يشاركونهم ويحرضونهم ... ثم شهروا بعد ذلك سيوفهم ليقاتلوا المسلمين » [٣] .

لما التقى المسلمون والمشركون يوم أُحد ، ودنا بعضهم من بعض ،

---

(١) المرجع نفسه ق ٥٤/٢ . الجباجب : منازل مكة .

(٢) المرجع نفسه ق ٥١/٢

(٣) شعر المخضرمين ١٩٣

قامت هند بنت عتبة ، فى النسوة اللاتى معها ، وأخذن الدفوف ، يضربن بها خلف الرجال ، ويحرضنهم على القتال ، فقالت هند [١] :

وَيْها بنى عَبْدُ الدّارْ وَيْهًا حُماةَ الأدْبارْ
ضَرْبا بكلِّ بتّارْ

وتمثلت قائله :

إن تقبلوا نُعانِقْ ونَفْرِش النّمارِقْ
أو تُدْبِروا نُفارِقْ فِراقَ غيرَ وامِقْ

وطلب صفوان بن أمية من أبى عزة الجمحى أن يعين قريشاً بلسانه فى تأليب العرب على المسلمين إعداداً ليوم أُحد ، فخرج أبو عزة فى تهامة يدعو بنى كنانة قائلاً [٢] :

يا بنى عبد مَناة الرُّزَّام أنتم حُماةٌ وأبوكم حَامْ
لا تَعدُونى نصرَكم بعد العامْ لا تُسْلمونى لا يحل إسلامْ

وخرج مسافع بن عبد مناف الجمحى يحرض بنى مالك بن كنانة ، ويدعوهم إلى حرب الرسول قبيل أُحد ، فقال [٣] :

يا مالِ مالِ الحسب المقدَّم أنشد ذا القُربى وذا التذمُّم
من كان ذا رُحْمٍ ومن لم يَرْحم الحِلفُ وسْط البلد المحرم
عند حطيم الكعبة المُعظَّم

---

(١) السيرة لابن هشام ق ٦٨/٢ ويها : كلمة للإغراء . الوامق : المحب . والرجز الثانى لهند بنت طارق بن بياضة الإيادية قالته فى حرب الفرس لإياد . انظر هامش السيرة .

(٢) طبقات ابن سلام ٢٥٤/١ والسيرة لابن هشام ق ٦١/٢ ، الرزام : الذين يثبتون فى الحرب ولا ينهزمون .

(٣) السيرة ق ٦١/٢

أما وقد انتهت موقعة أُحد ، وتصورت قريش أنها انتقمت لقتلاها فى بدر ، انطلق شعراؤها يفخرون بالنصر ، ويتمدحون بالبطولة ، ويتشفون بقتلى المسلمين ، وبخاصة مقتل سيد الشهداء حمزة عم الرسول .

فضرار بن الخطاب الفهرى يزهو ببطولته ، وبسالة فرسان قريش ، ويفخر بما أحرزوه من نصر ، وبما أصابوا من فرسان المسلمين ، فيقول (١) :

إنى وجدِّك لولا مقدمى فرسى ... إذْ جالتْ الخيلُ بين الجِزْع والقاعِ

مازال منكم بجنبِ الجزع من أحُدٍ ... أصواتُ هامٍ تزَاقَى أمرُها شاعِى

وفارس قد أصاب السيفُ مَفرِقه ... أفلَاقُ هامته كفرْوةِ الرّاعى

إنى وجدِّك لا أنفكُّ منتطقاً ... بصارمٍ مثلِ لون المِلْح قَطَّاع

على رِحالةِ مِلواحٍ مُثابرة ... نحو الصريخ إذا ما ثُوِّب الدَّاعى

ولا انتهيتُ إلى خُورٍ ولا كُشُفٍ ... ولا لئامٍ غداةَ البأس أوراع

بل ضاربين حَبيك البيْض إذ لحقوا ... شُمّ العرانين عند الموت لُذَّاع

شُمٌ بَّهالِيلُ مُسترخٍ حَمائلُهم ... يَسعونْ للموت سَعياً غيرَ دعْداعِ

وطابع الفروسية واضح فى هذا الشعر ، ولا غرو فضرار كان فارس قريش وشاعرها كما قلنا من قبل ، وشعره وشعر عبد الله بن الزبعرى أقوى ماقيل فى الصراع بين مكة والمدينة فى العهد النبوى ، كما أن ضراراً وابن الزبعرى كانا من أكثر شعراء قريش معارضة لشعراء المسلمين .

ولضرار شعر آخر فى يوم الخندق يفتخر بجيوش قريش والأحلاف ، وحسن عدتهم ، وشدتهم على المسلمين ، وتسلطهم عليهم ، ويهجو فرسان

---

(١) المرجع السابق ق ٢/١٤٥ الجزع : منعطف الوادى . القاع : الأرض المنخفضة . تزاق : تصيح . شاعى : شائع . أوراع : جبناء .

المدينة ، ويرميهم بالضلال ، ويتهددهم بأن الأحلاف سوف يعاودون الكرة عليهم ، فيقول (١) :

ومشفقةٍ تظنُّ بنا الظُّنونا   وقد قُدْنا عَرَنْدَسَةً طَحُونا
كأن زهاءها أُحُدُ إذا ما   ندت أركانه للناظرينا
ترى الأبدانَ فيها مُسبغاتٍ   على الأبطال واليَلبَ الحصينا
وجرْداً كالقداح مُسوَّماتٍ   نَؤمُّ بها الغُواة الخاطئينا
أناسٌ لا نرى فيهم رَشيداً   وقد قالوا : ألسنا راشدينا ؟؟
فأحجرناهُم شهراً كريتا   وكنَّا فوقهم كالقاهرينا ...
فلولا خندقٌ كانوا لديه   لدَمّرْنا عليهم أجمعينا
ولكنْ حالَ دونهم وكانوا   به من خوْفِنا مُتعوذينا

إلى أن يقول :

وسوفَ نزوركم عمَّا قريبٍ   كما زُرناكُم مُتوازِرينا
بجمعٍ مِنْ كِنانَة غير عُزْلٍ   كأسْدِ الغاب قد حَمتِ العرينا

والملاحظ أن أكثر ما جاءنا من هجاء شعراء قريش فى المسلمين ، يأخذ طابعاً شخصياً لا دينياً ، بمعنى أنه خلا – أو كاد – من تفنيد الدين الإسلامى ، ومجادلة المسلمين ، فأبو سفيان بن الحارث يهجو شاعر الرسول حسان بن ثابت ، هجاء شخصياً خالصاً ، ليس فيه إلا الوصف باللؤم وسوء الخلق ، وأصالة هذا الخلق فيه وفى آبائه ، فيقول (٢) :

أبوك أبو سوءٍ وخالُك مثله   ولستَ بخيرٍ من أبيك وخالِكا
وإنّ أحقّ الناسِ أن لا تلومه   على اللُّؤم من ألفى أباه كذلكا

---

(١) السيرة ق ١٥٤/٢ . عر ندسة : يريد كتيبة قوية شديدة ، الأبدان : الدروع . اليلب : الترسة .

(٢) طبقات ابن سلام ٢٥٠/١

وربما كان هجاء ضرار السابق من المعانى القليلة التى تحوم حول الهجاء الدينى ؛ حيث وصف المسلمين بالغواية والإثم والضلال فى قوله :

.... نؤم بها الغواة الخاطئينا

أناس لا نرى فيهم رشيداً وقد قالوا : ألسنا راشدينا

وفيما عدا هذه الإشارات الدينية القليلة ، فإن شعر قريش فى هجاء النبى وصحبه كان جاهلياً ، أو على مثال الهجاء الجاهلى .

وينبغى أن نلاحظ أيضاً أن الرواية الأدبية لم تحفظ لنا من هذا الهجاء - وبخاصة هجاء الرسول - شيئاً ذا بال ، مع أن المعقول أن يكون كم هذا الشعر كبيراً ؛ لأن النبى جاء بدين انهارت أمامه كثير من المثل القديمة ، والآراء التى عاش عليها العرب - لا سيما فى مكة زعيمة الوثنية .

والمعقول أيضاً أن يكون كم الشعر الذى هجا قريشاً دفاعاً عن الرسول ودعوته وصحابته كبيراً أيضاً ، بيد أن أكثر ما قيل فى الهجاء من الطرفين قد طواه الزمن فى زوايا النسيان ؛ لأنه كان مرغوباً فى تجاهله وتناسيه ، من الدولة الإسلامية فى العهد الراشدى ، فقد انتهت مبررات روايته بدخول المعسكر القرشى فى الإسلام ، ولم يعد يخدم الدعوة الإسلامية ، بل غدا خطراً يتهدد وحدة العرب المسلمين ؛ لأنه ينبش أحقاد الماضى القريب ، ويثير الحزازات الماضية ، يضاف إلى هذا كله إعراض أكثر الرواة المسلمين عن رواية الشعر الذى تعرض للرسول وأعراض المسلمين تأثماً .

ويلاحظ أننا لم نذكر من أسباب ضياع هذا الشعر الذى قيل فى الصراع بين مكة والمدينة فى العهد النبوى ، تشاغل المسلمين عنه بالفتح ، كما اعتاد الباحثون والدارسون أن يذكروا ، تأثراً بما ذكره ابن سلام تعليقاً على قول عمر [1] : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه » قال

---

(١) طبقات ابن سلام ١/٢٤ ، ٢٥

ابن سلام : فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته » ، نقول : لم نذكر هذا التشاغل فى ضمن أسباب ضياع شعر هذا الصراع ؛ لأننا نرى أن الفتوح الإسلامية لم تشغل العرب لا عن هذا الشعر ، ولا عن غيره ، كما سنرى عند دراستنا لأثر هذه الفتوح فى الشعر .

وابن هشام فى السيرة مثل للرواة المسلمين الذين أهملوا — عن عمد — رواية الشعر الذى هجى به الرسول وصحبه ، فكثيراً ما نجده يضرب عن رواية بيت أو بيتين أو أبيات من أشعار القرشيين ومن والاهم ؛ لأن فيها هجاء فاحشاً للرسول ؛ أو لأنها تسب أعراض المسلمين (١) .

وكما نهض الشعر القرشى للتحريض على المسلمين ، والتشفى بقتلاهم ، والفخر بالفروسية القرشية ، وهجاء الرسول وصحبه ، نهض كذلك لرثاء صرعى قريش فى معاركهم ، من المسلمين ، وكان لمصرع العدد الكبير من فرسان قريش فى بدر وغيرها أثره فى كثرة الشعر الذى قيل فى بكاء القتلى ، والحسرة عليهم ، والجزع على مصابهم ، وتعديد مآثرهم ، وجميل سجاياهم وبطولتهم .

قال عبد الله بن الزبعرى السهمى ، يبكى قتلى بدر ، ويذكر رءوسا منهم ، ويبين مصاب قريش فيها (٢) :

ماذا على بدْرٍ وماذا حَولَه ... مِن فتيةٍ بِيضِ الوجوه كرام

تركوا نَبيها خلفهم ومُنيِّها ... وابنىْ ربيعةً خير خصم فِئام

(١) انظر السيرة ق ٢/ ٢٠ ، ٣٢ ، ٥٤ ، ٩٢ ومواضع أخرى متفرقة ، وكذا فعل ابن سلام فلم يرو شيئاً من شعر كعب بن الأشرف فى التشبيب بنساء المسلمين انظر : طبقات ابن سلام ١/ ٢٨٢

(٢) السيرة ق ٢/ ١٥ . الفئام : جماعات من الناس . الأوصام : العيوب .

والحارث الفيَّاض يبرق وجهُه كالبدْر جَلَّى ليلةَ الإظلام
والعاصِىَ بنَ مُنبِّهٍ ذا مِرَّةٍ رُمْحا تَميماً غيرَ ذى أوصام
تَنمِى به أعراقُه وجدودهُ ومآثر الأخوال والأعمام
وإذا بكى باكٍ فأعْوَلَ شَجوهُ فَعَلَى الرئيس الماجد بن هشام
حيا الإلٰه أبا الوليد وَرهْطه ربّ الأنام وَخصَّهم بِسلام

ورثى الحارث بن هشام أخاه أبا جهل ، ولهف نفسه عليه ؛ لأنه أمسى وحيداً فى حفرة مهجورة قديمة ، كما يبكى فيه حسن رأيه ، وسداد عقله ، وأنه بموته قد فقد المعين الذى كان يستمد من عزه عزاً ، ومن عزمه عزما ، ومن رجاحة عقله معيناً على الحياة ، فمصيبته فيه قد جلت ، فهو فى هم مقيم لفقده (١) :

ألا يالهْفَ نفسى بعد عمرو وهل يُغنى التلهّفَ من قتيل
يخبِّرنى المخبِّر أن عمراً أمام القوم فى جَفْر مُحيل
فَقِدْماً كنتُ أحسب ذاكَ حقاً وأنت لما تقدَّم غير فيل
وكنتُ بنعمةٍ ما دمتَ حياً فقد خُلّفت فى دَرَجَ المَسِيل
كأنى حين أُمسى لا أراه ضعيفُ العَقْد ذو هَمّ طويل
على عمرو إذا أمسيتُ يوماً وطرف من تذكّره كليل

أما هند بنت عتبة فتندب أباها ملتاعة لفقده ، وتصور مصرعه تصويراً يعكس ثورة حزنها ، وعظيم شجوها ولوعتها فتقول (٢) :

أعينىّ جُودا بدمع سَرِبْ على خير خِنْدفَ لم ينقلبْ
تَدَاعَى له رَهْطُه غُدوةً بنو هاشم وبنُو المطلب

---

(١) السيرة ق ٢/٢٨ . الجفر : البئر القديمة ليس عليها بناء . غير فيل : غير فاسد الرأى . درج المسيل : يريد موطن الذل والقهر . العقد : هو هنا العزم والرأى .
(٢) السيرة ق ٢/٣٧ . جميل المراة : تريد جميل المرأى بهى الطلعة .

يذيقونه حَدّ أسيافهم يَعلونه بعد ما قد عُطِبْ
يجرونه وعفيرُ التراب على وجهه عارياً قد سُلِبْ
وكان لنا جَبلاً راسياً جميل المَرَاةِ كثير العُشُبْ

وشعر هند فى الرثاء عموماً يمتاز بحرارة العاطفة والتهابها ، فلقد عظمت مصيبتها فى حروب مكة مع المسلمين ، ويكفى أن نذكر أنها فقدت فى بدر وحدها ، أباها وعمها وأخاها وابنها ، ومع ذلك فهو قصير النفس ، لم يتجاوز المقطعات الصغيرة ، هذا فضلا عن قلة ما وصل إلينا منه ، مع أنها كانت من أبرز شواعر قريش ، ويبدو أن هذا هو السر فى تجاهل القدماء لفنها فى الرثاء ، فلم يعدها أحد منهم من أصحاب المراثى ، كالخنساء التى عاصرتها وقالت فى موضوعها .

وفى يوم الخندق ، اقتحم عمرو بن عبد ود الخندق – وكان من فرسان قريش المعدودين – قائلا : هل من مبارز ؟ فبرز له على بن أبى طالب وقتله ، فرثاه هبيرة بن أبى وهب المخزومى ، وبكى فيه إقدامه وفروسيته قائلا (١) :

لقد علمتْ عُلْيا لُؤَىّ بن غالبٍ لَفَارِسُها عمرو إذا نابَ نائب
لَفارِسُها عمرو إذا ما يسُومه عَلىٌّ وإن الليثَ لا بد طالبُ
عشيةَ يدعوه علىٌّ وإنه لفارسُها إذْ خام عنه الكتائب
فيالهفَ نفسى إنّ عمراً تركته بيثرب لا زالتْ هناك المصائبُ

بعد هذه الجولة القصيرة مع شعر المشركين ، ومن ناصرهم فى مكة والطائف ومستعمرات اليهود ، الذى كان يمثل المعارضة والخصومة للدين الإسلامى ، والمعسكر الذى يمثله فى المدينة ، يمكن أن نلاحظ على هذا

---

(١) السيرة ق ٢٦٨/٢ . خام : جبن ورجع .

الشعر دورانه حول الأمور العامة فى تهاجى الشعراء ، ووصف المعارك ، والتحدث عن نتائجها ورثاء الموتى ، والهجاء القبلى ، على نحو ما كان عليه نظيره فى الجاهلية .

من أجل هذا ضعفت النغمة الدينية فيه ، على الرغم من أنه شعر قيل فى صراع أساسه وباعثه الخلاف الدينى بين المعسكرين ، فقلما نجده يتعرض للدين الجديد بالنقد والتجريح ، والانتقاص والتفنيد ، أو يركز على هجاء الرسول عدو الشرك ، ومسفه آلهته ، وقد يكون للرواة المسلمين فى عصر التدوين دور فى إسقاط أكثر ما قيل فى هذه النواحى – كما قدمنا .

وشىء آخر يلفت النظر فى هذا الشعر ، هو أننا لا نجد فيه ما يرقى إلى شعر الفحول الجاهليين ، وإذا كان أمية بن أبى الصلت شاعر الطائف من الشعراء المجيدين البارزين ، فإن شعره فى هذا الصراع أقل جودة ، وأكثر ليونة ، وأدنى طبقة من شعره الآخر الذى اشتهر به ، فى الدين وذكر الآخرة ، والحكمة .

وقد نستطيع أن نعلل ضعف الشعر القرشى – بعامة – بما سبق أن أشرنا إليه ، من أن مكة لم تكن بيئة شعرية فى الجاهلية ؛ ولم ينبغ فيها شاعر واحد آنذاك ، وإنما تحركت شاعريتها فى ظل الإسلام ، وبفعل أحداث الصراع بينها وبين المدينة فى العهد النبوى ، فقدمها غير راسخة فى ميدان الشعر ؛ ولذا كثرت المقطعات فى الشعر القرشى ، وقلت القصائد ، التى يذهب بأكثرها شاعرا مكة المقدمان : عبد الله بن الزبعرى ، وضرار ابن الخطاب .

وجملة القول أن شعر المعسكر المكى المعادى للمعسكر المدنى فى عهد النبوة ، لم يكن أكثر من شعر مناسبة ، لم يتمرس فى الجاهلية بمثل هذا الصراع ، ولم يستمر بعد أن دخلت قريش وأتباعها فى الإسلام ، « أنه شعر

أظهرته الخصومة التى بدأت منذ البعثة ، وفى معركة بدر بخاصة ، وانتهت مهمته بفتح مكة ، والاعتذار لرسول الله ﷺ » [(١)] .

ويقابل هذا الشعر الذى يعبر عن الجانب القرشى فى الصراع ، شعر آخر يعكس النشاط الشعرى للمسلمين فى المدينة ، خلال نزاعهم مع المشركين فى مكة .

لقد شهر الشرك سلاح الشعر فى وجه الرسول ودعوته كما رأينا ، فلم يكن للرسول بد من أن ينتصر لنفسه ودينه وأتباعه بالسلاح نفسه ، وكان ﷺ يعرف تأثير الشعر فى ردع هذه الحملة المسعورة ، وأنه لا مندوحة من اصطناع الشعراء ليردوا كيد قريش وشعرائها إلى نحورهم .

وكان بدء ذلك أن جند حسان بن ثابت فى سبيل الدعوة ، ووجه مقدرته الفنية الهجائية لمناقضة الخصوم ، فقد جاءه حسان يوما وقال : يا رسول الله إن أبا سفيان بن الحارث هجاك ، وأعانه على ذلك الحارث بن هشام ، وكفار قريش ، أتأذن لى أهجوهم ؟؟ فقال النبى : فكيف تصنع بى ؟ فقال : أسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين ، قال : اهجهم وروح القدس معك [(٢)] ، ثم أخذ يشجعه على هجاء شعراء قريش ، وهجاء قومهم ، من جنس كلامهم ، ونستطيع أن نفهم نوع هذا الهجاء من قوله عليه السلام لحسان : « اذهب إلى أبى بكر فليحدثك حديث القوم ، وأيامهم ، وأحسابهم ، ثم اهجهم » [(٣)] ، فماذا يكون هذا الهجاء الذى يستمد مادته من المثالب والوقائع ، والأحساب والأنساب ؟؟ وهل كان الهجاء الجاهلى إلا كذلك ؟؟

---

(١) شعر المخضرمين ٢٠٩

(٢) جمهرة أشعار العرب (القرشى) ١٤

(٣) الأغانى ٤/٤

هذه الرواية تفهم أن حسانا هو الذى استأذن الرسول فى الرد على شعراء قريش فأذن له الرسول ، وهناك رواية أخرى تفيد أن الرسول هو الذى طلب من حسان وغيره من شعراء الأنصار أن يتصدوا لأعداء الدعوة وأعدائهم .

يروى أبو الفرج الأصفهانى : أنه كان يهجو الرسول ﷺ ثلاثة رهط من قريش : عبد الله بن الزبعرى ، وأبو سفيان بن الحارث ، وعمرو بن العاص ، فقال قائل لعلى بن أبى طالب : اهج عنا القوم الذين قد هجونا ، فقال على : إن أذن لى الرسول فعلت ، فقال رجل : يارسول الله ائذن لعلى كى يهجو عنا القوم الذين هجونا ، قال : على ليس هناك ، ثم قال للأنصار : ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ فقال حسان بن ثابت : أنا لها يارسول الله ، فكان يهجوهم من الأنصار حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة [(١)] ، وكلهم من الخزرج .

وسواء أصحت هذه الرواية أم تلك ، فمما لا شك فيه أن الرسول كان ملهما وموفقا فى اصطناع شعراء المدينة فى معركة الشعر ضد شعراء المشركين ؛ إذ كانت المدينة أشعر القرى العربية منذ الجاهلية ، كما يقول ابن سلام [(٢)] ، كما كان شعراؤها أرسخ قدما فى ميدان الشعر من شعراء مكة ، وما عليهم إلا أن يتحولوا عما كان بينهم وبين الأوس من مديح وفخر وهجاء فى سبيل السيادة والزعامة القبلية والمطالب المادية الدنيوية ، إلى مديح وفخر وهجاء بينهم وبين المشركين فى سبيل الدين الجديد ودولته .

---

(١) المرجع السابق ، وهؤلاء الثلاثة كانوا فى ضمن خمسة شعراءهم فحول شعراء المدينة فى الجاهلية وصدر الإسلام كما يذكر ابن سلام ، انظر الطبقات ٢١٥/١

(٢) انظر : الطبقات ٢١٥/١

يضاف إلى هذا أن شعر هؤلاء الشعراء – وكلهم من الأنصار – كان بمثابة مواثيق وعهود متجددة متكررة ، يقطعها الأنصار على أنفسهم بالتزام نصرة النبى ، والتضحية فى سبيل حماية دعوته ، وإعلاء شأنها ، ودحر أعدائها .

غير أن الأمر لم يقف عند حد هؤلاء الشعراء من الأنصار ، بل انضم إليهم وآزرهم طائفة من شعراء البادية القريبة من المدينة كالأعشى بن زرارة ابن النباش التميمى (١) ، ومعبد الخزاعى (٢) ، وشداد بن عارض الجشمى (٣) وغيرهم (٤) .

وأسهم عدة من شواعر المدينة المسلمات فى هذا الصراع ، منهن : صفية بنت عبد المطلب (عمة الرسول) ، ونعم بنت سعيد امرأة شماس بن عثمان ، وهند بنت أثاثة بن عبد المطلب (كانتا مع المسلمين يوم أُحد) ، وميمونة بنت عبد الله البلوية ... وغيرهن من الشواعر (٥) .

على أية حال فقد انبرى شعراء المدينة ومن آزرهم ، يدبجون القريض فى مدح الرسول ، والإشادة بدعوته ، وتمجيد أصحابه ، وهجاء أعداء الإسلام ، والرد عليهم ، وردعهم ، ورثاء الشهداء ، والترحم عليهم ، والتنويه بمنزلتهم عند الله ... إلى غير ذلك مما اقتضته ظروف الصراع العنيف بين المعسكرين الدينيين فى مكة والمدينة .

---

(١) انظر : السيرة ق ١٦٦/٢
(٢) انظر المرجع السابق ق ١٠٢/٢ ، ٢١٠
(٣) المرجع نفسه ق ١٨٢/٢
(٤) كالحجاج بن علاط السلمى . انظر السيرة ق ١٥١/٢
(٥) السيرة ق ٥٢/٢ ، ١٦٧ ومواضع أخرى متفرقة ، وانظر أيضاً : الطبقات الكبرى (ابن سعد) ٨ – ١٦٥ (طبعة ليدن ١٣٢٢ هـ) .

فها هو ذا حسان بن ثابت يعبر عن اعتزاز المسلمين بالنبى ، الذى جاءهم بالقرآن نورا هاديا ، يبين لهم الحلال من الحرام ، ويفخر بصحابة الرسول ، الذين أرسوا قواعد دينه ، وأعزوا نبى الله وكتابه ، كما يفخر بأن جبريل ينزل بالوحى بين ظهرانيهم ؛ ليبين فرائض دين الله وأحكامه ؛ ولذا فهم خيار الخلق كلهم ، ونظامهم ، وقادتهم [1] :

اللهُ أكرَمَنا بنصر نبيِّه ... وبِنا أقام دعائمَ الإسلام
وبِنا أعزَّ نبيَّه وكتابَه ... وأعزنا بالضّرب والإقدام
يَنْتابُنا جبريل فى أبياتنا ... بفرائِض الإسلام والأحكام
يتلُو علينا النّورَ فيها مُحكماً ... قِسْماً لَعمْرك ليس كالأقسام
فنكون أولَ مُستحلّ حلالِه ... ومحرِّم لله كلَّ حرام
نحنُ الخيارُ من البرية كلِّها ... ونظامُها وزمامُ كلّ زِمام

ثم يأخذ حسان فى الفخر بقومه فخرا يذكرنا بالفخر الجاهلى ، من حيث تناوله لقديم أيامهم ، وشرف أحسابهم ، وعظيم نكايتهم قديما فى أعدائهم ، وبسط سلطانهم عليهم ، ولا ينسى حسان فى كل ذلك أن يعتد بالتبابعة أجداده ، وأن يشهد أهل الأصنام والأزلام على مجد آبائه التليد ، فيقول :

سائلْ أبا كرْبٍ وسائلْ تُبعاً ... عنا وأهل العتر والأزلامِ
واسأل ذوى الألباب عن سَرَواتِهم ... يوم العُهين فحاجِرٍ فرُؤامِ
إنا لَنَمنَعُ مَن أردْنا منعَه ... ونجودُ بالمعروف للمُعتام

إلى أن يقول :

فلئِن فخرتُ بهم لمثْل قديمهم ... فَخَرَ اللبيبُ به على الأقوام

(١) ديوانه ٣٨٩ (نشرة البرقوقى – مطبعة السعادة بمصر بلا تاريخ) . القسم هنا : الحظ .

وهذا الفخر الأخير يحكى فن الشعر الجاهلى ، ففيه ما فى الشعر الجاهلى ، من جزالة اللفظ وفخامته وميله إلى الخشونة ، وفيه أيضاً المعانى الجاهلية ، والجنوح إلى المبالغة فيها ، بينما يتخلص حسان فى مديحه وفخره الإسلامى من هذا الطابع الجاهلى ، فيتجافى عن جفوة الأعراب وخشونة الجاهلية ، ويبتعد عن الغريب الحوشى ، وعن الغلو والإفراط والزخرف ، وما إلى ذلك من كل ما هو بسبيل من الكذب ، الذى عناه نقدة الشعر القدماء حين ذهبوا إلى أن الشعر يحسن بالكذب [١] .

ومن هنا وصف القدماء شعر حسان فى الإسلام باللين ، وفضلوا شعره الجاهلى عليه ، قال الأصمعى : « الشعر نكد بابه الشر ، فإذا دخل فى الخير ضعف ، وهذا حسان فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره » [٢] .

وما أنصف هؤلاء النقاد حسانا ، بل ما أنصف حسان نفسه حين أجاب من قال له يوماً : لان شعرك — أو هرم شعرك فى الإسلام — « فقال : يا ابن أخى إن الإسلام يحجب عن الكذب ، وإن الشعر يزينه الكذب » [٣] ، ذلك أن حسانا كان يعتقد ، كما اعتقد سائله ، أن الشعر يجود أو يسقط بمقدار قربه من أساليب الشعر الجاهلى ، أو بعده عنها .

ونحن نرى أن حسانا شاعر مطبوع فى شعره الإسلامى ، كما كان مطبوعاً فى شعره الجاهلى ، غاية الأمر أنه تأثر بالأسلوب القرآنى الناصع البيان ، المطرد السياق ، الواضح الطريقة ، السهل الممتنع ، كما تأثر ببشاشة

---

(١) انظر : العمدة ٦/١

(٢) الشعر والشعراء (طبعة ليدن) ١٧٠ وانظر : الموشح للمرزبانى ٦٤ ، ٦٥ (طبعة السلفية — القاهرة ١٩٢٩ م) .

(٣) الاستيعاب (ابن عبد البر) ٣٤٦/١ (طبعة البجاوى) .

الإسلام ، فلان جانبه ، ورقت حاشيته ، وسلست ملكته الفنية ، فانتهج فى شعره الإسلامى الأسلوب الذى أشرنا إليه ، وهو الأسلوب الذى يسميه الأصمعى وغير الأصمعى ليناً وضعفاً ، وما هو فى النظرة المنصفة كذلك ، وإنما يعجب الأصمعى وغيره غرابة الألفاظ ، وضخامة الأسلوب ، والمبالغة فى المعانى ، ويرون هذا – دون غيره – مقياس الجودة فى الشعر .

على هذا النحو سار شعر حسان فى مدح الرسول ﷺ ، مدحاً يبرز فيه النفس الإسلامى ، ولغة الدين ، فليس من معانى الجاهلية ، ولا من لغتها قوله فى الأبيات السابقة : (أعز نبيه وكتابه) وقوله : (ينتابنا جبريل فى أبياتنا بفرائض الإسلام ...) وقوله : (يتلو علينا النور) . إلخ .

ويبدو هذا التأثير الإسلامى ، والتأثر بالقرآن ، فى قوله أيضا يمدح الرسول ﷺ (١) :

أغرّ عليه للنبوة خاتمٌ ... من الله مشهود يلوح ويُشهد
وضمّ الإلٰهُ اسمَ النبى إلى اسمه ... إذْ قال فى الخمس المؤذنُ أشهد
وشق له من اسمه ليُجلّه ... فذو العرش محمودٌ وهذا محمدُ
نبىٌّ أتانا بعد يأس وفَتْـرة ... من الرُّسلِ والأوثانُ فى الأرض تُعبدُ
فأمسي سراجاً مستنيراً وهادياً ... يلوح كما لاح الصقيلُ المُهنّدُ
وأنذَرنا ناراً وبشَّر جنةً ... وعلمنا الإسلامَ فاللهَ نحمدُ

ثم يقول مُبتهلاً إلى الله :

وأنت إله الخلق ربى وخالقى ... بذلك ما عمرتُ فى الناس أشهدُ
تعاليتَ رب الناس عن قول من دعا ... سواك إلهاً أنت أعْلَى وأمجدُ
لك الخلق والنَّعْماء والأمْرُ كله ... فإياك نَستهدى وإيّاك نعبدُ

---

(١) ديوانه ٧٨

فأى لين أو ضعف فى هذا الشعر ، اللهم إلا أن يعد البعد عن الخشونة فى الأداء ، والسمو فى المعانى ضعفا ولينا !!

وكيف يوصف بالضعف واللين شعر يمتاح من ألفاظ القرآن ومعانيه ، (نبى أتانا بعد يأس وفترة – وأنذرنا ناراً وبشر جنة – فإياك نستهدى وإياك نعبد) ؟!

أما كعب بن مالك فإنه يمدح الرسول ﷺ بأنه مؤيد من قبل الله تعالى بالمعجزات ، فيشير إلى معجزة المعراج ، وتسبيح الحصى فى كفه ﷺ (١) :

فإن يكُ موسى كلَّم اللهَ جهرةً ... على جبل الطُّور المُنيف المُعظَّم

فقد كلم اللهُ النبىّ محمداً ... على الموضع الأعْلى الرفيع المُسوَّم

وإن تكُ نَمْلُ البَرِّ بالوَهَمِ كلمت ... سليمانَ ذا المُلك الذى ليس بالعمِى

فهذا نبىُّ اللهِ أحمد سبحت ... صغارُ الحصى فى كفِّه بالترنُّم

ففى البيت الأول والثالث ثقافة قرآنية ، تستمد من آيات القرآن (٢) .

ويمدح عبد الله بن رواحة الرسول ﷺ بأنه صاحب الشفاعة يوم القيامة ، وأن من يحرم شفاعته تسوء عاقبته ، ويدعو لدينه بالنصر والتأييد ، فيقول (٣) :

أنت النبى ومن يُحرَم شفاعته ... يومَ الحساب فقد أزْرى به القدَرُ

فثبّتَ اللهُ ما أعطاكَ من حَسنٍ ... تثبيث موسى ونصراً كالذى نُصروا

---

(١) ديوانه ٢٧٠ (مطبعة المعارف ببغداد ١٩٦٦ م) .

(٢) انظر : سورة النساء : ١٦٤ وسورة النمل ١٨

(٣) الأغانى ١٥/٢٨ والعمدة ١/١٤٠ وطبقات ابن سلام ١/٢٦٦ ، وأيضاً : الاستيعاب ١/٩٠ (طبعة البجاوى) .

وقد أثنى النبى ﷺ على عبد الله بن رواحة لما سمع منه هذا الشعر ، وقال له : « وإياك فثبت الله يا ابن رواحة » .

ومدائح الرسول فى شعر شعرائه بعامة ، تغلب عليها هذه النزعة الدينية ، وتعمرها روح إسلامية ، ويشيع فيها التأثر بالقرآن الكريم ، وهذا طبيعى ، لدورانها حول صاحب الدعوة ، وتناولها لمكانته وفضله فى الهداية ، وإشادتها بفضائله وأخلاقه التى هى من خلق القرآن .

فإذا ما انتقلنا إلى ميدان الدفاع عن الدعوة وصاحبها وصحبته ، وردع الأعداء عن النيل منها ومنهم ، وجدنا الشعر الإسلامى بالمدينة يضرب بسهم وافر فى هذا المجال .

فقد أخذ شعراء الرسول يحددون أسنة الشعر ، ويقذفون بها مشركى مكة وشعراءهم ، وقد اشتهر حسان بن ثابت وكعب بن مالك ، بأنهما كانا يهجوان المشركين بالوقائع والأيام ، ويعيرانهم بالمثالب ، كما اشتهر عبد الله بن رواحة بتعييرهم بالكفر ، فكان أشد القول عليهم قول حسان وكعب ، وأهونه قول ابن رواحة ، فما كانوا يبالونه ؛ إذ كان ذكراً لما هم عليهم ، وراضون به » (١) ، فلما استمع الرسول إلى هجاء حسان كفار قريش ، قال : « لهذا أشد عليهم من وقع النبل » (٢) .

من ذلك قول حسان يهجو أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان أبو سفيان قد هجا الرسول – كما مر – فاستأذنه حسان فى هجائه ، فأذن له فقال (٣) :

---

(١) تاريخ الشعر السياسى (الشايب) ٨٠

(٢) الأغانى ٤/٦

(٣) ديوانه ١٥٩ ، وانظر : جمهرة أشعار العرب (القرشى) ١٤ . ابن هاشم :=

لقد علم الأقوامُ أنَّ ابن هاشمٍ هو الغُصن ذو الأفنان لا الواحد الوَغدُ
ومالكَ فيهم محتدٌ يعرفونه فدُونك فالصقْ مثل ما لصق القُرْدُ
وإن سَنامَ المجد من آل هاشمٍ بنو بنتِ مخزومٍ ووالدُك العبْدُ
وما ولدتْ أفناءُ زُهرةَ منكم كريماً ولم يقرُبْ عجائزَك المجْدُ
ولستَ كعباسٍ ولا كابن أمِّه ولكن هجينٌ ليس يُورَى له زندُ
وأنت زَنيم نِيطَ فى آل هاشمٍ كما نِيط خَلفَ الراكبِ القدحُ الفردُ
وإنَّ امرأً كانت سُميةُ أمهُ وسمراءُ مغلوبٌ إذا بلغَ الجهدُ

وهذا هجاء بالنسب ، لا يعف عن ذكر الآباء والأمهات ، فيعير بالمثالب ، تعييراً كانت تعده العرب من الهجاء الفاحش ؛ ولذا لما بلغ هذا الهجاء أبا سفيان عرف أن أبا بكر هو الذي دل حسان على هذه المثالب ، فقال : « هذا شعر لم يغب عنه ابن أبى قحافة » (١) .

وقال يهجو أبا سفيان بن الحارث أيضا ، هجاء مرا ، ذكره فيه باسمه ، وأشار إلى تعرضه بالهجاء للرسول (٢) :

ألا أبلغْ أبا سفيان عنى فأنتَ مُجوَّف نخِبٌ هواءُ
بأن سُيوفنا تركتْك عبداً وعبدُ الدار سادَتُها الإماءُ
هجوتَ محمداً فأجبت عنه وعند الله فى ذاك الجزاءُ

= يعنى الرسول . الواحد الوغد : يعنى أبا سفيان . القرد : القراد . بنت مخزوم : هى فاطمة بنت عمرو المخزومية أم أبى طالب وعبد الله (والد الرسول) والزبير بنى عبد المطلب ، فهى أم الرسول بذلك ولم يقرب عجائزك المجد : أى لم يقرب المجد أمهاتك . الزنيم : المستلحق فى قوم وليس منهم . سمية : أم أبى سفيان وهى أم ولد ، وسمراء : هى أم أبيه وهى أم ولد أيضاً .

(١) انظر : ديوان حسان ١٦١

(٢) ديوان حسان ٧ ، وسمط اللآلى ٣٥٣/١ روى أن حساناً لما أنشد الرسول هذا الشعر قال له لما أنشد البيت الثالث : جزاؤك على الله الجنة وقال لما أنشد الرابع : وقاك الله حر النار فأما الخامس فهو أنصف بيت قالته العرب [سمط اللآلى] .

فإنَّ أبى ووالده وعِرضى ... لِعَرض محمدٍ منكم وِقاءُ
اتهجُوه ولست له بكُفءٍ ... فَشَرُّكما لخيركما الفِـداء
هَجوتَ مباركاً براً حنيفاً ... أمينَ الله شيعتُهُ الوفاءُ
فمنْ يهجو رسول الله منكم ... ويَمدَحُه وينصرُه سَواءُ ؟!

ويختلف هذا الهجاء عن سابقه بكثرة العناصر الإسلامية فيه ، ومرد ذلك إلى أن حسانا مزج بين هجاء أبى سفيان ومدح الرسول فى هذا ، وهذه الأبيات كان لها أبعد الأثر ، وأحسن الذكر عند المسلمين (١) .

ولحسان شعر يهجو قبائل قريش التى كانت تناصب الرسول العداء ، يتحدث فيه عن القبائل ومثالبها ، ويذكرها بأسمائها ، فيقول (٢) :

فلا والله ما تَدْرى مَعيصٌ ... أسَهْلٌ بطن مكة أم يَفاع
وكل مُحاربٍ وبنى نزار ... تبينِ فى مشافره الرَّضاع
وما جمح ولو ذُكرتْ بشئٍ ... ولا تَيْم فذلكم الرِّعاع
لأن اللوم فيهم مُستبين ... إذا كان الوقائع والمِصاع
ومخزوم هم وعدىٌّ كعبٍ ... لئامُ الناس ليس لهم دِفاع

فهو هنا يهجو هذه القبائل بأنها لا شرف لها ولا خطر ، سفلة رعاع ، لا يثبتون فى القتال ؛ ومن ثم كان إعراضهم عن الإسلام ، ورأيهم

---

(١) انظر : شعر المخضرمين ٦٩

(٢) ديوانه : ٢٦٦ . معيص بن عامر بن لؤى من قريش الظاهر ، وكان قد ولد حسلا ومعيصا ، فنزل بنو حسل مكة ، وصاروا من قريش البطاح ، ونزل بنو معيص خارج مكة وصاروا من قريش الظواهر ، وقريش البطاح أكرم وأشرف . محارب : قبيلة من فهر من قريش الظواهر . تبين فى مشافره الرضاع : أى صعاليك سفلة يرضعون الشياه ، وأثر الرضاع ظاهر على شفاههم ، التى يشبهها الشاعر بمشافر الإبل ، سخرية بهم . الرعاع : غوغاء الناس وسفلتهم . المصاع : القتال .

فى النبى ودعوته وأصحابه لا قيمة له ولا وزن ، وهو هجاء بالمثالب ، ونظيره كثير فى الهجاء الجاهلى .

أما هجاء حسان هندا بنت عتبة – زوج أبى سفيان بن حرب – يوم أحد ، فهو أشد من الهجاء الجاهلى إقذاعا وفحشاً ، يقول حسان [١] .

أشِرَتْ لَكاعِ وكان عادتها　　لؤمٌ إذا أشرت مع الكُفر

لعنَ الإله وزوجها معها　　هِندَ الهُنودِ طويلةَ البظْر

أخرَجتِ مُرقصةً إلى أُحُد　　فى القومُ مُعنقة على بَكر ؟!

وبعد أبيات من الفحش الذى لا يروى ، يقول :

أقبلتِ زائرةً مُبادرةً　　بأبيك وابنك يومَ ذى بَدْر

وبعمك المسلوب بِزّته　　وأخيك منعَفِرينِ فى الجفْر

ونسيتِ فاحشةً أتيتِ بها　　يا هندُ ويْحك سُبة الدّهر

زعمَ الولائدُ أنها ولدتْ　　ولداً صغيراً كان مِن العُهر

فلو لم يكن فى هذا الهجاء إلا القذف بالزنا والفجور لكفاه إقذاعا وفحشاً ، وما هو بعد ذلك إلا سباب خالص ، وادعاء باطل ، فهند التى يقول عنها حسان هذا الذى قال ، هى التى قالت للرسول ، لما سمعته ينهى النساء عن الزنا : أو تزنى الحرة يا رسول الله !!

ومن قول كعب بن مالك فى هجاء عبد الله بن الزبعرى ، ردا على هجائه الرسول [٢] :

---

(١) ديوانه ٢٢٩ . الأشر : أشد البطر . اللكاع : اللئيمة الدنيئة . العهر : الزنا والفجور .

(٢) ديوانه ٢٢٧ وانظر : السيرة ١٦١/٢ . الهجين : من كانت أمه أمة وأبوه عربياً ، وذلك مما يعاب به عند العرب . المنديات : المخزيات . تبجست : نطقت فأكثرت ، كما ينبجس الماء إذا انفجر . الجلف : الجافى الغليظ الطبع .

سألتُ بكَ ابنَ الزِّبَعرَى فلمْ   أنبَّأكَ فى القوم إلا هجينا
خبيثاً تُطيفُ بك المُنْدياتُ   مُقيماً على اللُّؤم حِيناً فحينا
تبجَّست تهجو رسولَ المليـ   ـك قاتَلك اللهُ جلفاً لَعينا
تقول الخَنا ثم ترْمِى به   نَقِىَّ الثيابِ تقيًّا أمينا

وليس فى هذا الشعر إلا الهجاء بالضعة ، والخبث ، وفساد الخلق ، واللؤم والسفاهة ، ولولا ما فيه من ذكر الرسول وصفته ، لما خالف الهجاء الجاهلى فى شىء .

وقال عبد الله بن الحارث [١] يهجو قريشاً لاضطهادها الرسول ودعوته ، ويتهددها [٢] :

وتلك قريشٌ تجحد الله حقه   كما جَحدت عادٌ ومَدْين والحجرُ
فإن أنا لم أبْرق فلا يسَعَنَّنى   من الأرض بَرٌّ ذو فضاء ولا بَحرُ
بأرض بها عبد الإله محمدٌ   أبين ما فى النفس إن بلغ النقر

وفى البيت الأول من التأثر بقصص القرآن ما لا يخفى .

ويسلك معبد الخزاعى مسلكا آخر فى خدمة الدعوة الإسلامية ، ونصرتها ، حيث راح يخذل أبا سفيان بن حرب عن الرجوع لقتال المسلمين وأهل المدينة ، بعد بدر ، ويصف خيل المسلمين الكثيرة ، وفرسانهم الصناديد ، الذين جمعهم الرسول غداة بدر لطلب العدو ، ويهول فى ذلك ليقذف الرعب فى قلوب المشركين ، ويثنيهم عن قتال المسلمين [٣] :

---

(١) هو عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدى السهمى . انظر : السيرة ق ١/٣٣٠

(٢) السيرة ق ١/٣٣١

(٣) المرجع نفسه ق ١٠٣/٢ . الجرد : الخيل العتاق . الأبابيل : الجماعات . تردى : تسرع . التنابلة : القصار . ميل : جميع أميل ، وهو من لا رمح له . معازيل : يتجنبون الحرب . تغطمطت : اهتزت . الجيل : الصنف من الناس . الوخش : سفلة الناس . القيل : القول .

كادت تُهدُّ من الأصوات راحلتى ... إذْ سالت الأرض بالجرد الأبابيل
تَرْدى بأسدٍ كرامٍ لا تنابلةٍ ... عند اللقاء ولا مِيلٍ معازيلِ
فَظلتُ عدْواً أظن الأرض مائلة ... لما سَموْا برئيس غير مخْذُول
فقلت: ويلُ ابنِ حرْبٍ من لقائكم ... إذا تَغطْمطتِ البطحاء بالجيل
من جيش أحمد لا وخْشٍ تنابلةٍ ... وليسَ يُوصف ما أنذرتُ بالقِيل

ولما توجه الرسول ﷺ لفتح الطائف ، أخذ شداد بن عارض الجشمى ، يخوف أهل الطائف من لقاء الرسول ، ويهددهم ، ويثبت فى روعهم أنهم لا قبل لهم بحرب المسلمين ، ويدعوهم إلى الإيمان ونبذ الشرك والوثنية ، فقال (١) :

لا تنصروا اللاتَ إن الله مُهلكها ... وكيف نصْرُكُمُ مَنْ ليس ينتصرُ
إن التى حُرِّقت بالنار فاشتعلتْ ... ولم يُقاتَل لدى أحجارِها هَدَرُ
إن الرسولَ متى ينْزِلْ بساحتكم ... يَظعنْ وليس بها من أهلها بَشرُ

ولحسان بن ثابت قصيدة طويلة فى يوم فتح مكة ، بدأها بتذكر أيامه الأولى عند الغساسنة بالشام ، وما كان له من لهو وشراب ؛ على مثل ما كانت عليه المطالع الجاهلية ، والجزء الإسلامى من القصيدة هو الذى سما بحسان سموًّا لم يلحقه شاعر إسلامى آخر ، ومنها قوله (٢) :

عدِمنا خيلَنا أنْ لم تروْها ... تُثير النقعَ موعدُها كَدَاءُ
يُنازعن الأعنة مُصْغيات ... على أكتافها الأسلُ الظِّماء

ويتهدد قريشاً إن وقفوا فى وجه الرسول وجيشه ، قائلا :

فإما تُعرضوا عنَّا اعتمرنا ... وكان الفتْح وانكشفَ الغطاءُ
وإلّا فاصبروا لجِلادِ يومٍ ... يُعين اللهُ فيه من يشاء

---

(١) الأصنام (ابن الكلبى) ١٧ ، والسيرة ق ٤٨١/٢
(٢) ديوانه ٤ وما بعدها ، وانظر السيرة ق ٤٢٢/٢

ثم يخاطب المشركين بلسان الدين :

وجبريلٌ رسول الله فينا ... وروح القُدسِ ليس له كِفاءُ
وقال الله قد أرسلتُ عبداً ... يقولُ الحقَّ إنْ نفع البلاءُ
شهدت به فقوموا صدِّقوهُ ... فقلتُم لا نقومُ ولا نشاءُ
وقال الله قد سيرتُ جنداً ... هم الأنصارُ عرضتها اللقاء

والنفس الإسلامى هنا واضح متميز ، فهو يعبر عما يجيش فى صدور المسلمين من إيمان بالله ، وتصديق برسوله ، واستعداد عظيم للجهاد فى سبيل دينه .

ولما أخذ هبيرة بن أبى وهب المخزومى يمجد انتصار قريش يوم أحد ، ويفاخر بفرسانها ويعير المسلمين بما أصابهم ، انبرى له كعب بن مالك يرد عليه ، ويشيد بصبر المسلمين عند اللقاء ، ويذكر المشركين بهزيمتهم المنكرة يوم بدر ، وبما أصاب المسلمون من فرسانهم ورؤسائهم ، ثم يعتذر عن المسلمين يوم أحد ، بأن ما حدث هو قضاء الله وقدره وابتلاؤه لعباده المؤمنين ، والقصيدة طويلة ، نجتزىء منها بقوله [١] :

فلوْ غيرنا كانت جميعاً تكيده الـ ... ـبرية قد أعطوْا يداً وتورَّعوا
نجالد لا تَبقَى علينا قبيلةٌ ... من الناس إلا أن يهابوا ويفزعوا
وفينا رسولُ الله نتْبع أمره ... إذا قال فينا القولَ لا نتطلعُ
تَدلى عليه الرُّوحُ من عند ربِّه ... ينزَّل من جوِّ السماء ويُرفع
وقال رسولُ الله لما بدَوْا لنا ... إذا ما اشتهى أنا نطيعُ ونسمعُ
وقال رسولُ الله لما بدوْا لنا ... ذَروا عنكمُ هولَ المنيات واطْمعوا
وكونوا كمنْ يَشرِى الحياة تقرُّبا ... إلى ملِك يحيا لديه ويُرجعُ
ولكنْ خذُوا أسيافكم وتوكّلوا ... على الله إن الأمرَ لله أجْمعُ

---

(١) ديوانه ٢٢٢ وما بعدها ، والسيرة ق ١٣٢/٢

يحدد كعب فى هذه الأبيات ويوضح آداب المسلمين مع رسول الله ، فهم يسارعون إلى طاعته ، ويبيعون أنفسهم رخيصة لوجه الله ، غير مبالين بهول المنيات ، طامعين فى رضوان الله وجناته ، والأمر من قبل ومن بعد لله جميعاً ، فأما إذا دارت الحرب ، واشتد أوارها ، وقدر الله أمراً ، فلا راد لقضاء الله وأمره .

وله شعر آخر يوم بدر ، يصدر عن هذه الروح الإسلامية ، منه قوله (١) :

لعمر أبيكما يا بنى لُؤَى ... على زَهوٍ لديكم وانتخاء

لما حامتْ فوارسكم ببدرٍ ... ولا صبروا به عند اللقاء

وردناه بنور الله يجلو ... دُجى الظلماء عَنا والغطاء

رسولُ الله يقْدُمنا بأمر ... مِن أمْر الله أحكم بالقضاء

فما ظفرتْ فوارسكم ببدْر ... وما رجعوا إليكم بالسواءِ

فلا تعجلْ أبا سفيان وارْقب ... جيادَ الخيلِ تطلع من كَدَاءِ

بنصرِ الله روح القدْسِ فيها ... ومِيكالٌ فياطيبَ المَلاءِ

فالمعانى والألفاظ يغلب عليها التأثر بالإسلام ، فى الفخر برسول الله والانتصار بالملائكة ، أما ما فيها من هجاء وتهديد ، فهو يدور حول وقعة حربية ، وكذا كانا فى الجاهلية .

ولما قتل عمرو بن وُدّ فارس قريش يوم الخندق على يد على بن أبى طالب قال حسان بن ثابت يفخر بقتله ، ويذكر المشركين بمصابهم فى بدر (٢) :

---

(١) ديوانه ١٦٩ ، والسيرة ق ٢/٢٥ . انتخاء : إعجاب وكبر . حامت : امتنعت . كداء : موضع بمكة . الملاء : أشراف الناس .

(٢) السيرة ق ٢/٢٦٨ ، وليست فى ديوانه .

بقيتكم عمرو أبحْناه لِلقنا　　　بيثرب تحمى والحُماة قليل
ونحن قتلنـاكم بكـل مهنّـد　　　ونحنُ ولاةُ الحرب حين نصولُ
ونحنُ قتلناكم ببدرٍ فأصبحتْ　　　معاشرُكم فى الهالكين تجولُ

فهذا الفخر لو لم يرد فيه ذكر (بدر) لظنناه فخراً لشاعر جاهلى بوقائع جاهلية ، ولحسان أيضاً فى بنى قريظة ، لما نقضوا عهد الرسول ، فحاصرهم حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ ، يذكر ما حل بهم من ذل وهوان ، جزاء وفاقاً لخيانتهم وغدرهم [١] :

لقد لقيتْ قريظة ما عَظاهَا　　　وحَلّ بحصنها ذُلٌّ ذليل
وسَعدٌ كان أنذرهم نصيحاً　　　بأنَّ إلههم رَب جليل
فما بَرِحوا بنقضِ العهد حتى　　　غزاهم فى دِيارِهُم الرسولُ
أحاط بحصنهم مِنا صفوفٌ　　　له من حَرٍّ وقعتها صليل
فصار المؤمنون بدار خُلدٍ　　　أقام لها بها ظلٌّ ظليل

وهكذا واكب الشعر الإسلامى هذه الأحداث الإسلامية ، يضرم نار الحماس فى الصدور ، ويرد على مزاعم المشركين ويفندها ، ويسجل الوقائع ويمضى معها جزءاً منها ، وسلاحاً من أسلحتها ، ونغمة الفخر عالية فى هذا الشعر ، فقد افتخر الشعراء – كما رأينا – بقوة المسلمين ، وإيمانهم ، وجهادهم فى سبيل الله ، واعتصامهم بالدين الحنيف ، كما افتخروا بأنفسهم وقومهم وبطون من قبائلهم ، ففخر شعراء المسلمين يمثل جانبين : جانب دينى يعتز بالإسلام وبرسول الله وجنوده ، وفيه يظهر التأثر بالإسلام والقرآن واضحاً ، وجانب شخصى ذاتى يفخر بالنفس والمال والعشيرة ، وهذا اللون من الفخر جاهلى شكلا ومضموناً .

---

(١) ديوانه ٣٣٢ . عظاها : ساءها .

ولم يتخلف فن الرثاء ، أو يغب عن الصراع ، فالمعارك بين المسلمين والمشركين كثيرة عنيفة ، والفرسان بين الفريقين ، يتساقطون فى كل معركة ، وقد رأينا كيف نهض شعر المعسكر القرشى برثاء قتلاه ، وهنا نرى كيف أدى شعر المسلمين رسالته فى بكاء شهداء المسلمين ، وتصوير هول المصاب بفقدهم ، وذكر بطولاتهم ، وإن اختلف شعر المسلمين فى الرثاء عن الرثاء القرشى بأن الشعراء كانوا يمزجون فيه رثاء القتلى بذكر ما أعد لهم من ثواب الآخرة ، والتنعم بجنان الخلد ، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، كما يمتاز هذا الرثاء بحرارة الإيمان ؛ لأنه صادر عن اعتقاده أن الشهادة فى سبيل الله أسمى غاية ، يسعى إليها المسلم ، فالروح المعنوية لدى المسلمين قوية ظاهرة فى رثائهم ، بينما لم تتح هذه الناحية للمشركين ، فأظهروا الجزع على قتلاهم ؛ إذ لم يجدوا مبرراً قوياً مقنعاً لقتل أصحابهم ، ولم يكن أمامهم الهدف السامى البعيد ، الذى ترتبط إليه نفوسهم .

وأول ما نقدمه من شعر المسلمين فى الرثاء ، ما قيل فى استشهاد حمزة بن عبد المطلب عم الرسول ، فقد كان لحمزة النصيب الأوفى من ذلك الرثاء .

فحينما سقط أسد الله وأسد رسوله حمزة شهيداً فى غزوة أُحد ، تبارى شعراء المسلمين فى رثائه ، وتعداد مناقبه العظمى .

فقال عبد الله بن رواحة – أو كعب بن مالك (١) – يبكى حمزة ، ويذكر أن قتله رزء للرسول وللمسلمين جميعاً ، وأنه آل إلى جنة لا يفنى نعيمها ، ثم يعزى الهاشميين فيه ، ويدعو لهم بالصبر الجميل على هذا المصاب الفادح ، ولهم فى صبر رسول الله قدوة حسنة ، ثم يلتفت إلى هند بنت عتبة التى شمتت بحمزة ، ويذكرها بمقتل آلها فى بدر ، فشماتتها إذن عز ذليل :

---

(١) انظر : ديوان كعب ٢٥٢ ؛ والسيرة ق ١٦٢/٢

بكت عيني وحُقّ لها بُكاها ... وما يُغنى البكاءُ ولا العويلُ
على أسد الإله غداةَ قالوا ... أحمزةُ ذاكمُ الرجلُ القتيل
أُصيبَ المسلمون به جميعا ... هناك وقد أُصيبَ به الرسولُ
أبا يَعْلى لك الأركان هُدّت ... وأنتَ الماجد البرُّ الوَصول
عليك سلامُ ربك فى جِنانٍ ... مُخالطها نعيمٌ لا يزول
أيا هاشم الأخيار صبراً ... فكلُّ فعالِكم حسنٌ جميل
رسولُ الله مُصطبرٌ كريمٌ ... بأمر الله يَنطقُ إذ يَقولُ

وبعد أن يذكر هند بنت عتبة بمقتل أبيها وعمها وأخيها وابنها فى بدر ، يخاطبها بقوله :

ألا يا هندُ فابْكى لا تملّي ... فأنتِ الواله العبْرى الهبول
ألا يا هندُ لا تُبدِى شَماتاً ... بِحمزةَ إنّ عِزّكم ذليلُ

كما رثته أخته صفية ، رثاء إسلامياً ، فقالت (١) :

دعاه إلهُ الحق ذو العرش دعوةً ... إلى جنةٍ يحْيا بها وسُرُورُ
فذلك ما كنا نُرجّي ونَرْتجى ... لحمزةَ يومَ الحشر خَير مصير
فو الله لا أنساك ما هبَّت الصَّبا ... بكاءً وحزنا مَحضري ومَسيرى
على أسدِ الله الذى كان مِدْرهاً ... يذُودُ عن الإسلام كُلَّ كفُورِ
أقولُ وقد أعْلى النّعىُّ عشيرتى ... جزَى الله خيراً من أخٍ ونَصيرِ

فهذا رثاء حزين متفجع ، ولكنه على ذلك صابر محتسب ، ويمتاز رثاء صفية بصدق الإيمان ، والتأثر بالقرآن ، ويتضح ذلك فى قولها :

دعاهُ إله الحق ذُو العرش دعوة ... إلى جنة يحيا بها وسرور

وقولها :

.... يذود عن الإسلام كل كفور

---

(١) السيرة ق ٢/١٦٧

على أن الرثاء فى شعر المسلمين ، لم يكن دائما مصبوغا بهذه الصبغة الإسلامية ، فقد نجده أحيانا لا يكاد يختلف عن الرثاء الجاهلى الذى يبكى فى القتيل شجاعته ، ونكايته فى العدو ، وواسع كرمه ، وحسن رأيه .

ومن ذلك رثاء نعم بنت سعيد زوج شماس بن عثمان ، فقد قالت تبكى زوجها لما استشهد يوم أحد [1] :

يا عينُ جودى بدمع غير إبساس على كريم من الفتيان أبّاس
صعبِ البديهة ميمون نقيبته حمال ألوية ركاب أفراس
أقول لما أتى الناعى له جزَعاً أوْدَى الجوادُ وأودى المُطعم الكاسى
وقلتُ لما خلتْ منه مجالسه لا يُبعدِ الله عنا قرْبَ شماسِ

فرثاء نعم هذا رثاء جاهلى غير محتسب ، أو هو رثاء والهة أذهلتها المصيبة فى زوجها عن كل تعزية فيه ، غير أن أخاها أبا الحكم بن سعيد تدارك ما فرط منها ، فعزاها عزاء إسلاميا ، يذكرها فيه بالصبر واحتساب الأجر عِند الله ؛ لأنه أودى فى طاعته ، وجهاداً فى سبيله ، وما زوجها إلا مسلم استشهد كغيره من المسلمين ، وليكن لها فى استشهاد حمزة ليث الله عزاء وتسلية :

أقْنِى حياءك فى سترٍ وفى كرم فإنما كان شماسٌ من الناس
لا تقتلى النفسَ أنْ حانت منيته فى طاعةِ الله يومَ الرَّوْعِ والباسِ
قد كان حمزة ليثَ الله فاصطبرى فذاقَ يومئذ من كأس شماس

ولما سقط زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة ، فى مؤتة ، رثاهم كعب بن مالك ، بقصيدة شجية ، صادقة

---

(١) السيرة ق ١٦٨/٢ . غير إبساس : تريد بلا تكلف . الأباس : الشديد الذى يغلب غيره .

الحزن ، يقولى فيها (١) :

نام العيون ودمع عينك يَهْمل ... سحًّا كما وكف الطّباب المخْضل
فى ليلة وردتْ علىَّ همومها ... طوراً أحِنُ وتارةً أتمَلْمَلُ
واعتادنى حزنٌ فبت كأننى ... ببنات نعْشٍ والسِّماك موكَّل
وكأنما بين الجوانح والحَشَى ... مما تأوبنى شهابٌ مدخل
وجْداً على النفر الذين تتابعوا ... يوما بمُؤْتة أسندوا لم يُنقلوا
صلى الإلهُ عليهم منْ فتية ... وسقى عظامهمُ الغمامُ المُسبَل
صبروا بمؤته للإله نفوسهم ... حذر الردى ومخافة أن ينكِلوا

يتضح من هذا الشعر الذى قدمناه لشعراء المسلمين فى الأغراض السابقة أنه يجمع بين معان جاهلية وأخرى إسلامية ، كما أن الألفاظ الإسلامية بارزة فيه – إلى حد ما – وبعضها مستمد من القرآن الكريم ، مثل (روح القدس – ميكال – أمر الله – نور الله – طاعة الله – إياك نعبد – يوم الحساب – نصر الله – دار الخلد) وغير ذلك كثير فيما مر بنا من نماذج .

وكذلك بعض المعانى مستمد من القرآن ، مثل (فإن يك موسى كلم الله) مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾ (٢) وأيضا ، (وإن تلك نمل البر بالوهم كلمت) مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ، لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون * فتبسم ضاحكا من قولها .. ﴾ (٣)

---

(١) ديوانه ٢٦٠ ، والسيرة ق ٣٨٥/٢ . وكف : قطر . الطباب : سير بين خرزتين فى القربة فإذا كان غير محكم وكف منه الماء .

(٢) سورة النساء : ١٦٤

(٣) سورة النمل : ١٨ ، ١٩

ولا شك أن التأثر بالإسلام فى أشعار هؤلاء الصحابة مرده تأثر هؤلاء الشعراء بصحبة الرسول ، والقرب منه ، ومشاهدة أحواله ، إلى جانب أنهم كانوا بمنزل الوحى ، يتلون آيات الله المنزلة صباح ومساء .

ومع ذلك فإن هؤلاء الشعراء بعامة ، لم يوفقوا التوفيق كله فى استيعاب المثل والمعانى الدينية وعرضها فى شعرهم ، وإن استطاعوا أن يرددوا بعضاً من معانى الآيات القرآنية ، ويحاجوا المشركين ، ويباهوهم بفضل الدين ، وهدى رسول الله ﷺ .

ولعل السبب فى تقصير الشعراء المسلمين – فى هذه الفترة المبكرة من الإسلام – فى تمثيل المعنى الدينى بشكل واضح غلاب ، أنهم كانوا آنذاك موزعين بين عاملين كل منهما يجتذب مواهبهم الفنية ، ويحاول صبغها بصبغته ، فالعامل الموروث يجذبهم إلى التعبير عن الحاجات الجاهلية ، التى نشأوا عليها ، وألفوها واستجابوا لها فترة طويلة من حياتهم ، حتى صارت جزءاً من تكوينهم الفكرى والخلقى والفنى ، والعامل المحدث يجذبهم إلى حاجات الإسلام الجديدة ، التى غدت هى الأخرى جزءا من حياتهم الجديدة ، وضرورة تمليها عليهم تعاليم الإسلام .

ولم يكن لهؤلاء الشعراء المخضرمين بد من أن يحاولوا التوفيق بين هاتين الحاجتين ؛ لأنهم لن يستطيعوا أن ينزعوا عنهم موروثات الجاهلية القريبة وآثارها ، حتى لو أرادوا ، ومن هنا نستطيع أن نفهم هذا التذبذب بين القديم والحديث فى شعر حسان وغير حسان من شعراء هذه الفترة ، فالرواسب الجاهلية فى شاعريتهم ، تعيش جنباً إلى جنب مع النزعات الإسلامية فى نفوسهم ووجداناتهم ، وهذا أمر طبيعى فى هذه المرحلة ؛ لأن كل هؤلاء الشعراء قد تخرجوا فى مدرسة الشعر الجاهلى .

على أن هناك لوناً آخر من الفن الشعرى ، يغلب عليه – بعامة –

الطابع الجاهلى ، ويخضع لتأثير الصراع الذى دار بين شعراء المسلمين وشعراء قريش ، وهو ما كان على شكل مساجلات ، أو نقائض شعرية ، دارت – غالباً – حول الوقائع والحروب التى اشتعلت بين المسلمين وقريش ، وأنصار كل منهما ، وهذه النقائض تعد امتداداً للنقائض الجاهلية ، من حيث أصولها الفنية ، وغلبة المعانى الجاهلية فى شعر الجانبين ، واقتصارها على الأغراض الجاهلية ، وأهمها : الهجاء ، والفخر ، والرثاء ، ودورانها حول الحروب والأيام .

ويحسن قبل أن نأخذ فى دراسة شعر النقائض الإسلامية فى عهد النبوة ، أن نلم إلماماً موجزاً ، بماهية هذا الفن ، وطبيعة أصوله الفنية ، وأن نلقى بعض الضوء على نشأته وتطوره فى العصر الجاهلى ؛ لنكون على بينة من ملامح التطور التى أصابها فى ظل الإسلام ، ومن خلال معاركه مع عصبة الشرك فى الفترة التى نتحدث عنها .

النقائض : جمع نقيضة ؛ ويقصد بها فى الشعر ، أن ينشىء شاعر قصيدة فى غرض من الأغراض ، الموجهة لبعض خصومه ، فينبرى شاعر الخصوم للرد عليه بقصيدة ينقض فيها معانيه ، كأن يقلب فخر خصمه هجاء عليه ، وينسب الفخر لنفسه أو قبيلته ، ملتزماً الوزن الذى اختاره الشاعر الأول ، وكذا القافية التى بنى عليها قصيدته ، فتسمى القصيدة الأولى نقيضه بمعنى منقوضة ، والثانية نقيضة بمعنى ناقضة .

والنقائض بهذا المعنى ليست فناً جديداً كل الجدة فى العهد النبوى ، لم تضرب جذور نشأته وتطوره إلى ما قبل هذا العصر .

فقد اقتضى الخلاف بين القبائل فى الجاهلية أن يتعصب الشعراء لقبائلهم ، وكثيراً ما نجد شاعرا ينتصر لقومه أو أحلافهم ، فيرد عليه شاعر من القبيلة المعادية وينقض معانيه ، معتمدين على الفخر أو الهجاء أو عليهما معاً .

ولم تكن هذه الأشعار فى أول أمرها تأخذ صورة النقائض بكل أصولها وعناصرها وشرائطها الفنية ، فذلك ما تأباه سنة النشوء والتطور ، بل نجد منها ما يأخذ صورة الرد الذى لا يتقيد بأصول المناقضة ، كقول امرىء القيس متوعدا بنى أسد لقتلهم أباه حجرا (١) :

والله لا يذهبُ شَيخى باطلا حتى أبيرَ مالكاً وكاهلا
القاتلينَ الملكَ الحُلاحِلا خيرَ مَعدّ حسباً ونائِلَا
يالهفَ هند إذْ خَطِئْن كاهلا نحن جلبْنا القُرَّح القوافلا
يحمِلنْنا والأَسَلَ النّواهِلا مُستفرِمات بالحصى جوافلا
تَستَثِفر الأواخرُ الأوائلا فصرتُ فيهم غانماً وقاتلا

فرد عليه عبيد بن الأبرص شاعر بنى أسد بقوله (٢) :

ياذا المُخوّفنا بقتـ ـل أبيه إذلالا وحيناً
أزعمتَ أنك قد قتلـ ـتَ سَرَاتَنا كَذِباً ومَيْنا
لَوْمَا على حُجْر بن أمّ م قَطَامِ تَبْكِى لا علينا

فهذا رد ساذج لا يلتزم العناصر الفنية للمناقضة .

ثم يتطور هذا الفن قليلا فتحقق فيه بعض أصول المناقضة دون بعض ، من ذلك ما كان بين عامر بن الطفيل وزيد الخيل ، فقد خرج رجل من طيىء (قوم زيد) اسمه دؤاب إلى صهر له فى هوازن فأصيب ، فأغار زيد على بنى عامر ، ثم رجع إلى قومه ولم يشتف ، فقالوا : ما صنعت ؟ فقال ما أصبت بثأر دؤاب ولا ينوء به إلا عامر بن مالك ملاعب الأسنة ، فأما ابن الطفيل فلا يبوء بِه ، وأنشأ يقول (٣) :

---

(١) ديوانه ١٣٤ - ١٣٥ (دار المعارف بمصر ١٩٦٥ م) الحلاحل : السيد الشريف . القرح : الخيل المسنة . القوافل : الضوامر ، مستفرمات : تسرع فى السير فيصل الحصى إلى فروجها ، وكذا تستثفر .

(٢) ديوانه ١٣٦ (حسين نصار - الحلبى - القاهرة ١٩٥٧ م) .

(٣) الأغانى ٥٢/١٦

لا أرى أنّ بالقتيل قتيلا عامِريا يَفِى بقتل ذُؤاب
عامرٌ ليس عامرُ بن طُفيل لكن العُمرَ رَأس حيٍّ كلابِ
ذاك إن أَلْقَه أنال به الوتـ ـر وقرّت به عيونُ الصِّحابِ

فرد عليه عامر بقوله :

قل لزيدٍ قد كنتَ تُؤْثَر بالحِيلـ ـم إذا سُفّهت حلومُ الرجال
ليس هذا القتيلُ من سَلف الحَـ ـيِّ كُلاع ويحصُب وكُلال
أو بنى آكل المُرارِ ولا صيـ ـدِ بنى جَفْنَة الملوك الطوال
إن فى قتلِ عامرِ بن طفيل لبـواءٌ لِطيِّـىء الأجيـالِ

فقد نقض عامر معانى زيد ، بالحط من شأن القتيل ، وعظم نفسه بأن وضعها بإزاء طيىء كلها ، والتزم وحدة البحر (بحر الخفيف) ، وأهمل وحدة القافية .

ولا ينقضى العصر الجاهلى حتى تصل النقائض إلى صورتها الكاملة ، التى تتحقق فيها كل الأصول والشروط اللازمة لفن المناقضة ، ونضرب مثلا لهذه ، الصورة المتطورة ، قول عبيد بن ناقد الأوسى فى « يوم البقيع » وكان للأوس على الخزرج [١] :

لما رأيتُ بنى عوف وجمعهم جاءوا وجمعُ بنى النجار قد حفِلوا
دعوتُ قومى وسهَّلتُ الطريق لهم إلى المكان الذى أصحابُه حلِلُوا
جادتْ بأنفسها من مالك عُصبٌ يوم اللقاء فلا خافوا ولا فشلُوا
وعاورُوكُم كئوسَ الموتِ إذْ برزوا شطْرَ النهار وحتى أدْبرَ الأصُلُ

فرد عليه عبد الله بن رواحة الخزرجى بقوله :

---

(١) تاريخ النقائض فى الشعر العربى (الشايب) ٧٧ (مطبعة الاعتماد – القاهرة ١٩٤٦ م) .

لما رأيت بنى عوف وإخوتهم كعباً وجمع بنى النجار قد حفلوا
قوما أباحوا حماهم بالسيوف ولم يفعل بكم أحد مثل الذى فعلوا

فالموضوع واحد وهو يوم البقيع وما كان فيه ، والثانى ينقض فخر الأول بقومه ، ويثبت الفخر لقومه فى هذا اليوم ، مع وحدة البحر (بحر البسيط) والقافية وحركة القافية أيضاً .

وعلى ضوء هذه النماذج وغيرها مما هو مبثوث فى ثنايا المصادر ، التى تتحدث عن أيام العرب فى الجاهلية ، وأخبارها وأشعارها ، نستطيع أن نلخص الملامح الفنية لمرحلة نشأة النقائض وتطورها فى العصر الجاهلى على النحو التالى :

(١) قامت أولا على نقض المعانى ، مع عدم التزام وحدة البحر والقافية ، ثم تطورت فقامت على الاتحاد الموضوعى والمعنوى والموسيقى ، فتمت بذلك قواعدها المعروفة .

(٢) أهم فنونها الفخر والهجاء ، ومادتها تدور حول مقومات الحياة الجاهلية ، كالأيام ، والأنساب والأحساب ، والاعتراف بالظلم والعدوان . والفضائل الاجتماعية ، التى أقرتها هذه الحياة ، كالفخر بالكرم ، والشجاعة والنجدة وكثرة العدد ، والسيادة ، والمروءة ، والهجاء بضد ذلك ، كل ذلك فى إطار العصبية القبلية ، وفى سبيل القبيلة ؛ ولذا لم تختلف فنيا عن غيرها من الشعر القبلى ، إلا من حيث أخذها بالأصول المقررة لفن المناقضات .

(٣) بعدها عن الإسفاف والفحش وتناول الأعراض فى الهجاء ، فهى تقف غالبًا عند صفات الجبن والبخل والفرار ، وتعف عن ذكر العورات ، والكلمات النابية المكشوفة .

(٤) لم يشغل الجاهليون كثيرا بهذا اللون من الشكل الشعرى ، ولم يلتزموه فى منازعاتهم الشعرية القبلية ، بل كانوا يقبلون عليه من حين إلى

آخر ، وفى الفترة بعد الفترة ، فلم يكن التباعد بين القبائل والشعراء ليتيح الفرصة لانتظام هذا الفن بين شعرائهم ، ومن هنا ، لا نعثر بهذا اللون من الشعر إلا قليلا ، وعقب الأيام والحروب ، فوراء كل يوم وكل حرب نجد قطعا متبادلة (قصيرة غالباً) بين الفئتين المتقاتلتين ، ثم تُزَمُّ الألسنة ، كما تزم السيوف ، وكأن شيئاً لم يحدث » (١) .

وجاء الإسلام ، فوجد هذا الفن كامل الأداة ، فاعتمد عليه شعراؤه ، وبخاصة فيما جاء من نزاع بين شعراء المدينة وشعراء مكة فى عهد النبى ﷺ ، وعلى الرغم من أن النقائض أيام الرسول تعد امتدادا للنقائض الجاهلية – كما ذكرنا – فإن تغيرا غير يسير قد أصابها فى عهد النبوة ، على ألسنة شعراء المسلمين ؛ خاصة من حيث الغاية ، والأسلوب ، وبعض المعانى والألفاظ .

فمن حيث الغاية : كانت النقائض الإسلامية لعهد الرسول دفاعا عن عقيدة عامة ، ومبادىء إنسانية ، ونهضة شاملة من جانب شعراء المسلمين ، بعد أن كانت تعبيرا عن أغراض قبلية ضيقة الأفق فى الشعر الجاهلى .

ومن حيث المعانى : تسربت بعض المعانى والألفاظ الإسلامية إلى نماذج منها ، تدور حول الكفر والإسلام والهدى والضلال ، والبعث والثواب والجنة والنار وغيرها ، ونجد هذه المعانى والألفاظ بارزة فى نقائض عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك خاصة ، كما ظلت المعانى جاهلية خالصة فى نقائض شعراء قريش ومن والاهم وظهرت المعانى الجاهلية فى نقائض الإسلاميين أيضا ، خالية من الفحش (٢) .

---

(١) التطور والتجديد فى الشعر الأموى (شوقى ضيف) ١٧٨ (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة ١٩٥٢ م) .

(٢) انظر : تاريخ النقائض (الشايب) ١٥٥/١٥٦

ومن حيث الأسلوب : لم تكن هذه النقائض على مستوى واحد من الجودة فى الأساليب ، فمنها ما يتمتع بأسلوب قوى جزل يحكى أسلوب الشعر الجاهلى فى اللفظ والعبارة والتركيب ، ومنها ما يتسم أسلوبه بالضعف والاضطراب ؛ إذ كانت الشاعرية القرشية حديثة -- كما ذكرنا من قبل – كما أن شعراء الفريقين كانوا يقتحمون مجالا جديدا ، بالانتصار لدعوة جديدة ، أو مناهضتها ، مما يحوجهم إلى دربة ومران طويلين .

كانت الحروب الدائرة بين جبهة الإيمان فى المدينة ، وجبهة الشرك فى مكة عنيفة ضارية ، وكان الشعر قد نزل إلى الميدان سلاحا قوياً فى حرب كلامية ، تتطاير سهامها من الجانبين ، وحرص الرسول من جانبه على توجيه شعراء المسلمين ليبلوا بلاءهم فى هذه الحرب ، وليردوا على دعاوى قريش ويزيفوها ، كما حرصت قريش هى الأخرى على هجاء المسلمين ، والنيل من تماسك جبهتهم ، ومن روحهم المعنوية العالية ، وبالتركيز على وصفهم بالضعف ، وقلة العدد ، وفساد الرأى .

فى مثل هذه الأجواء يزدهر فن النقائض الشعرية ، ويقبل عليه الشعراء ؛ إذ كان من شأن النقائض أن تزدهر فى ظل الحروب الشديدة الدامية ، ومن ثم أخذ شعراء الجهتين يترادون بقصائدهم طوال عشر سنوات تقريباً ، أى منذ هاجر الرسول إلى المدينة حتى أواخر العهد النبوى .

وما دام المسلمون ينظرون للحرب على أنها جهاد فى سبيل الله ، ووسيلة لنشر الدين ، ودحر لقوى الضلال والشرك ، وما دام المشركون ينظرون إليها على أنها صراع فى سبيل الزعامة والرئاسة والسيطرة القبلية ، والدفاع عن عقائدهم الجاهلية الموروثة ، فقد كان طبيعياً أن تبرز – إلى حد ما – العناصر الإسلامية فى نقائض المسلمين ، وأن تصطبغ النقائض القرشية بصبغة جاهلية خالصة .

وتأييدا لكل ما ذكرنا عن فن النقائض الشعرية فى العهد النبوى ، نسوق طائفة من نماذجه ، يظهر فيها طابع النقائض القرشية والإسلامية ، كما ندرك على ضوئها ما حقق هذا الفن من تطور فى المضمون والأسلوب ، والغاية .

قال ضرار بن الخطاب الفهرى يوم بدر من قصيدة (١) : (طويل)

عجبتُ لفخرِ الأوسِ والحيْن دائرٌ   عليهم غداً والدهرُ فيه بصائرُ
وفخر بنى النجار أن كان معشرٌ   أصيبوا ببدْر كلُّهم ثَمّ صابرُ
فإن تَكُ قتلى غُودرتْ من رجالنا   فإنَّا رجال بعدهم سنُغادر
وترْدِى بنا الجُرْدُ العناجيج وسطَكُم   بنى الأوس حتى يشفى النفسَ ثائرُ
ووسطَ بنى النجار سوف نَكرُّها   لها بالقنا والـدَّارعين زوافـرُ
فنترك صرْعى تعصبُ الطيرُ حولَهم   وليس لهم إلا الأمانِّى ناصر
وتبكيهم من أهل يَثرِبَ نسوةٌ   لَهنَّ بها لَيْلٌ عن النَّوم ساهِرُ
فإن تظفروا فى يوم بدر فإنما   بأحمد أمسى جَدُّكم وهو ظاهر

فأجابه كعب بن مالك بقصيدة منها (٢) : (طويل)

عجبتُ لأمرِ الله والله قادرٌ   على ما أراد ليس لله قاهر
قضى يومَ بدْر أن نُلاقى معشراً   بَغوْا وسبيلُ البغيِ بالناس جائرُ
وقد حشدوا واستنفروا من يليهمُ   من النَاس حتى جمْعُهُم مُتكاثرُ
وسارتْ إلينا لا تحاول غَيرَنا   بأجمعها كعبٌ جميعاً وعامرُ

---

(١) السيرة ق ١٣/٢ . العناجيج : الطوال السراع . الثائر : الطالب بثأره .

(٢) ديوانه ٢٠٠ والسيرة ق ١٤/٢ . الماذى : الدروع البيض اللينة . أقبلوا : يريد دعا قريشاً إلى الإسلام .

وفينا رسولُ اللهِ والأوسُ حوله   له مَعْقِل منهم عزيزٌ وناصرُ
وجمعُ بنى النجار تحتَ لوائه   يُمشُّون فى الماذىِّ والنقْعُ ثائر
فلما لَقِيناهُـم وكـلٌّ مجاهـدٌ   لأصحابه مستبسل النفسِ صابرُ
شهدنا بأنَّ اللهَ لا ربَّ غيره   وأن رسولَ اللهِ بالحقّ ظاهرُ

إلى أن يقول :

وكا رسولُ الله قد قال أقبِلوا   فولَّوْا وقالوا إنما أنت ساحِر
لأمرٍ أراد الله أن يهلكوا به   وليس لأمرٍ حَمَّه الله زاجر

فضرار بن الخطاب صرف همه إلى إبراز نواحى القوة وشدة البأس فى قومه ، والتهوين من فخر الأوس وبنى النجّار فى هذا اليوم ، وتوعدهم بثأر قريب قادم .

أما كعب فقد حول الفخر الجاهلى إلى إيمان بقدر الله وقضائه الذى لا يرد ، ووصف أعداء المسلمين بالبغى والعدوان والتأليب على الشر ، كما وصف المسلمين بالصبر على الجهاد ، والاستبسال فى سبيل الله ، وأن رسول الله بينهم عزيز منتصر بقوة إيمانهم ، وحسن بلائهم ، ثم هو يشهد شهادة الإسلام بوحدانية الله ، ورسالة رسوله الظاهر بالحق ، لا بالحظ كما قال ضرار فى البيت الأخير .

وقال حسان بن ثابت فى بدر الآخرة (٤ هـ) [١] : (طويل)

دَعُوا فَلجات الشام قد حال دونها   جلاد كأفواه المخاضِ الأوارِكِ
بأَيْدِى رجالٍ هاجروا نحو ربهم   وأنصارُه حقاً وأيدى الملائك

---

(١) ديوانه ٢٩٤ ، والسيرة ق ٢١١/١٢ . الفلجات : الأودية ، أو الأنهار الصغيرة . الأوارك : التى ترعى الأراك . وهن هالك : أى يهلك جبناً وضعفاً . فرات بن حيان : هو دليل عير قريش إلى الشام . قيس : هو قيس بن امرىء القيس العجلى كان يجير عير قريش .

إذا سلكت للغَوْر من رَمْلِ عالِجٍ ... فقُولا لها ليس الطريقُ هنالك
فإنْ نَلْقَ فى تطوافنا والتماسنا ... فُرَاتَ بن حيّان يكن وهْنَ هالك
وإن نلقَ قيسَ بن امرىء القيس بعدَه ... نَزِدْ فى سواد وجهه لونَ حالك
فأبلغ أبا سفيان عنّى رسالةً ... فإنّك من شرِّ الرجال الصعالِك

فأجابه أبو سفيان بن الحارث [١] : (طويل)

أحسانُ إنا يا ابن آكلةِ الفَغا ... وجدُّك نغتال الخروق كذلك
إذا ما انبعثنا من مُناخٍ حسبتَه ... مُدَمَّن أهل المْوسم المتعارك
أقمت على الرأسِ النزيعِ تريدُنا ... وتتركنا فى النخل عند المدارك
حسبتُم جِلاد القومِ عند قبابهم ... كمأخذكم بالعين أرطال آنك
فلا تبعثِ الخيلَ الجِيادَ وقلْ لها ... على نحو قول المعصم المتماسك
شقيتُم بها وغيركُم كان أهلَها ... فوارس من أبناء فِهْرِ بنِ مالك
فإنك لا فى هجرةٍ إن ذكرتَها ... ولا حرمات الدّين أنت بناسِك

فقد تتبع الحارث دعاوى حسان بالنقض ، كما نرى فى رده على قول حسان :

(رجال هاجروا نحو ربهم) ، إذ يقول : (فإنك لا فى هجرة إن ذكرتها) ، يعنى أنك لست من المهاجرين ، فليس لك فضل الهجرة ، وزاد بأنه نفى عنه ادعاء التقوى ، ولما افتخر حسان بمقدرة جيش المسلمين على اغتنام عير قريش عنوة ؛ ودحر حراسها والضامنين لها من العرب ، نقض أبو سفيان هذا المعنى وادعى أن من دون ذلك أهوال ، ونصح المسلمين بألا يغامروا هذه المغامرة ؛ لأنها سيئة العاقبة ، وألا يبعثوا الخيل لاعتراض عير قريش ، وإلا كانوا كمن يشقى نفسه فى الغرس ثم يأتى غيره فيجنى الثمر .

ومما قيل حول غزوة أُحد ، التى انتصرت فيها قريش ، وقتل حمزة عم النبى ، قول أبى سفيان بن حرب قائد المشركين ، مشتفياً بمن قتل من المسلمين [٢] :

---

(١) السيرة ق ٢١٢/٢ . الفغا : غبرة تعلو التمر قبل أن ينضج .

(٢) السيرة ق ٧٦/٢ . الجلابيب : المسلمون وكان المشركون يلقبونهم بذلك =

وسلى الذى قد كان فى النفس أننى قتلتُ من النجار كلّ نجيب
ومن هاشم قرْماً كريماً ومُصعباً وكان لدى الهيْجاء غيرَ هَيُوب
ولو أننى لم أشْفِ نفسىَ منهمُ لكان شَجاً فى القلب ذات ندوب
فآبوا وقد أوْدى الجَلابيبُ منهمُ بهمَ خَدبٌ مِنْ معطَبٍ وكئيب
أصاب بهم مَنْ لمْ يكنْ لدمائهم كِفاءً ولا فى خطةٍ بضريب

فأجابه حسان بن ثابت ، قائلا [١] :

ذكرتَ القُروم الصِّيدَ من آل هاشمٍ ولستَ لِزُورٍ قلتَــه بمصيب
أتعجبُ أن أقصدْتَ حَمزةَ منهمُ نجيباً وقد سَمَّيته بنجيب
ألم يقتلوا عَمْراً وعُتبةَ وابنَه وشيْبة والحجاجَ وابنَ حبيب
غداةَ دعا العاصى عليّا فَرَاعهُ بضربةِ عَضْبٍ بلَّه بخضيب

فأبو سفيان يفخر بأنه انتقم من بنى هاشم ، ومن بنى النجار أخوال الرسول من الخزرج ، ويعير المسلمين بهزيمتهم ، وغلبة معسكر مكة إياهم ، وقد رد عليه حسان بأن حمزة لم يضع دمه هدراً ؛ فقد سبق أن قتل المسلمون فى بدر جماعة من عظماء قريش ، والشاعران يتحدثان بمعان جاهلية .

وقال عمرو بن العاص – قبل إسلامه – فى يوم أُحد [٢] :

= قالوا كان المنافقون يسمون المهاجرين : الجلابيب ، فلما قال حسان :

أمسى الجلابيب قد عزوا وقد كثروا وابن الفُريعة أمسى بيضه البلد

اعترضه صفوان بن المعطل فضربه بالسيف ، قال ابن الأنبارى هم العبيد ويقال السفلة ، وقال السهيلى : الغرباء (سمط اللآلى ١/٥٤٩) . الخدب : الطعن النافذ . المعطب : الذى يسيل دمه . الكئيب : الحزين . والنقيضتان من الطويل .

(١) ديوانه ٦٦ ، والسيرة ق ٢/٧٦ . أقصدت : أصبت . الخضيب : الدم الطرى .

(٢) السيرة ق ٢/١٤٣ . الفيفا : القفر . الحبيك : الذى فيه طرائق . سلع : جبل فى ظاهر المدينة . الكراديس : جماعات الخيل . تمرق : تخرج . البروق : نبات له أصول تشبه أصول البصل ، والنقيضتان من الطويل .

خرجنا من الفَيْفا عليهم كأننا ... مع الصبح من رضوى الحَبيكُ المُنطقُ
تمنتْ بنو النجّار جهلاً لقاءَنا ... لدى جنْب سَلْعٍ والأمانىّ تصدق
فما راعهم بالشرّ إلاّ فجاءة ... كَراديس خيل فى الأزقة تمرق
أرادوا لكيما يستبيحوا قبابنا ... ودون القِباب اليوم ضربٌ مُحرِّق
كأن رءوسَ الخزرجيِّين غدوةً ... وأيمانهم بالمشرفيـــــــة بَرْوَق

فأجابه كعب بن مالك [1] :

ألا أبلغَا فِهراً على نأى دارها ... وعندهم من عِلمنا اليومَ مَصدَق
بأنا غداة السفْح من بَطنِ يثربٍ ... صبرنا ورايـات المنيـةِ تخفـقُ
صَبَرْنا لهم والصبر منا سَجيَّةٌ ... إذا صارتِ الأبْرام نَسمو ونرْتق
على عادةٍ تلكم جَرَيْنا بصبرنا ... وقدماً لدى الغايات نجرى فنسبق
لنا حومة لا تستطاع يقودها ... نبىٌّ أتى بالحق عَف مصدَّق
ألا هل أتى أفناءَ فهرِ بن مالكٍ ... مقطّع أطرافٍ وهام مفَلق

فإذا استثنينا قول كعب : (نبى أتى بالحق عف مصدق) كان شعره وشعر عمرو جاهلى الشكل والمضمون .

فعمرو يصور خروج قومه للقتال فى جيوش متراصة ، ويسخر من سفاهة بنى النجار فى تمنى لقائهم ، ومن عجز المسلمين دون النصر ، وكان نقض كعب يصور صبر المسلمين ، ويذكر عادة الأنصار فى السبق ، ويذكر المشركين بما فعل بهم المسلمون فى وقعة سابقة .

ولم يكن فن النقائض قاصراً على الشعراء فى هذه المعارك بل أسهمت فيه الشواعر من الفريقين أيضاً ، فها هى ذى هند بنت عتبة بعد أن مثلت

---

(١) ديوانه ٢٤٢ ، والسيرة ق ١٤٤/٢ . فهر : قريش . أفناء القبائل : المختلط منها . الأبرام : اللئام .

بجثمان حمزة بعد وقعة أحد ، تصعد على صخرة مشرفة ، وتصرخ بأعلا صوتها ، تشفياً بحمزة [١] :

نحنُ جزيناكم بيوم بَدْرِ   والحربُ بعد الحرب ذاتُ سُعْر
ما كان عن عُتْبة لى من صَبْر   ولا أخى وعمه وبَكْرِى
شفيتُ نفسى وقضيتُ نذْرى   شفيتَ وحشىُّ غليلَ صدرى
فشكْرُ وحشىّ علىَّ عمرى   حتى ترمَّ أعظمى فى قبرى

فانبرت لها من شواعر المسلمين هند بنت أثاثة بن عبّاد ، فقالت [٢] :

خزِيتِ فى بدر وبعد بدْر   يابنت وقّاع عظيم الكفر
صبحك الله غداةَ الفجر   مِلْهاشميين الطوال الزُّهر
بكل قطاع حُسام يَفْرى   حمزةُ ليْثى وعلىٌّ صقْرى
إذ رام شيبٌ وأبوك غدرى   فخضبا منه ضواحى النّحْر
ونذرك السوء فشر نَذْر

أما هند بنت عتبة ، فتبدى فرحتها بقتل حمزة ، وترى فيه شفاء لصدرها مما أصابها يوم بدر ، وأنها ما كانت تصبر على لذعات الألم طويلا حتى يؤخذ لها بالثأر ، وقد ثأر لها وحشى – الذى نذرت له مكافأة سخية إن قتل حمزة – وأنها لن تنسى هذا الجميل لوحشى ما عاشت ، وستفى له بما نذرت .

وأما هند بنت أثاثة ، فتدعو لها بالخزى فى كل معارك قومها مع المسلمين ، وتسب أباها هذا الذى تفخر بأخذ ثأره ، فما كان إلا شيخاً هالكا ، وكافراً عنيداً ، ولن يسكت الهاشميون على مصابهم فى حمزة ، فلتتوقع هند قدومهم عما قريب للأخذ بثأره ، والانتقام له ؛ لأن عمها شيبة وأباها

---

(١) السيرة ق ٢/٩١

(٢) المرجع نفسه . شيب : تريد شيبة عم هند .

عتبة كانا غادرين ، قتلا لغدرهما ، أما حمزة فكان أسدا شجاعا ، ظاهره على قتل الغادرين علىٌّ صقر بنى هاشم ، واللمحات الإسلامية واضحة فى أبيات الشاعرة المسلمة ، وإن كانت قليلة ، لا ترتفع إلى مستوى الحدث .

وقد كثرت النقائض التى تدور حول حرب أُحد ؛ إذ أثلج نصر قريش فيها صدور شعرائها ، وعدوها انتقاماً شافياً لهزيمتهم ببدر ، فراحوا يرسلون القوافى فى التغنى بهذا النصر ، والشماتة بالمسلمين ، وكان شعراء المدينة لهم بالمرصاد ، فأجابوهم ونقضوا شعرهم ، وحاولوا تبرير الهزيمة ، مؤكدين أنها لن تنال من قوتهم وإصرارهم على دحر الشرك ؛ ومن ذلك قول عبد الله بن الزعبرى يخاطب حساناً (١) : (خفيف)

يا غرابَ البَيْن أسمعتَ فقُلْ	إنما تنطق شيئاً قد فعل
إن للخير وللشر مدًى	وكلا ذلك وجه وقبل
أبْلِغَنْ حسان عنى آيةً	فَقَريضُ الشعر يشفى ذا الغُلَل
كم ترى بالجرّ من جمجمة	وأكفٍّ قد أتِرّت وَرِجِل
وسرَابيــل حِسانٍ سُرِيَتْ	من كماةٍ أهتِكوا فى المنتزل
كم قتلنا من كريم سيِّد	ماجد الجَدَّيْنِ مقدام بطل
صادق النجدة قرم بارع	غير مُلتاثٍ لَدَى وقع الأسَل
ليت أشْياخى ببدْر شَهِدُوا	جَزَع الخزرج من وقع الأسلْ
حين حكتْ بقبُاءٍ برْكَها	واستحرَّ القتلُ فى عبد الأشَلْ
فقتلنا الضعف من أشرافهم	وعدلنا مَيْل بدْر فاعتدلْ

(١) السيرة ق ١٣٦/٢ . الجر : أصل الجبل . أترت : قطعت . السرابيل هنا : الدروع . سريت : جردت . المنتزل : موضع النزال . البرك : الصدر . عبد الأشل : يريد عبد الأشهل .

فرد عليه حسان بن ثابت بقصيدة منها (١) :

ذهبت بابن الزِّبَعْرَى وقعةٌ كان منا الفضلُ فيها لو عَدَلْ
ولقد نلتُم ونلنا منكـمُ وكذاكَ الحربُ أحياناً دُوَلْ
نضع الأسيافَ فى أكتافكم حيث تَهْوِى عَللا بعد نَهلْ
إذْ تولُّون على أعقابكم هُرَّباً فى الشعب أشباه الرَّسَلْ
إذ شددنا شدة صادقة فاجأناكم إلى سفح الجبلْ
ضاق عنا الشعب إذ نجزعه وملأنا الفرْط منه والرَّجَلْ
برجال لستُمُ أمثالهم أيدوا جبريل نصراً فنزل
وعلونا يوم بدر بالتقى طاعة الله وتصديق الرسل
وتركنا فى قريش عوْرة يوم بدْر وأحاديث المَثَلْ
ورسولُ الله حقاً شاهدٌ يوم بدر والتنابيل الهبل

فابن الزبعرى يذكر بقتلى المسلمين فى أحد ، وكثرة ما أصيب من كبارهم ، ويتشفى بذلك ؛ لأنه يرضى أشياخه الذين قتلوا ببدر .

ويرد حسان بأن ابن الزبعرى غير منصف فى هذا الزهو ؛ لأن النصر لم يكن خالصاً لجبهته ، فقد أبلى فيها المسلمون بلاء حسناً ، وألجئوا قومه إلى الفرار ، والانحياز إلى الجبل ، كما يفخر حسان بكثرة جند المسلمين ، وبنصر المسلمين ببدر ؛ ويرد هذا النصر إلى أن المسلمين خرجوا يومئذ طاعة لله وتصديقاً لرسوله ، وقد ترك المسلمون قريشاً فى بدر يضرب بها المثل فى الخذلان والعار ، والأبيات الأخيرة لحسان إسلامية يمتاز بها حسان عن صاحبه ، أما أبياته الأولى فلا تكاد تفترق فى شىء عن شعر ابن الزبعرى الجاهلى .

---

(١) ديوانه ٣٠٢ ، والسيرة ق ١٣٧/٢ . الرسل : الإبل المرسلة بعضها فى إثر بعض . نجزعه : نقطعه عرضا . الفرط : ماعلا من الأرض ، والرجل : ما انخفض منها . التنابيل : القصار الجبناء . الهبل : الكثيرو اللحم .

ولابن الزبعرى نقائض كثيرة مع حسان وكعب ، منها هذه النقيضة التى قالها يوم الخندق [1] :

حَيِّ الديارَ محا معارفَ رسمها	طُولُ البِلا وتراوُحُ الأحقاب
فكأنما كتبَ اليهودُ رسومَها	إلا الكَنِيفَ ومعْقد الأطناب
قفراً كأنك لم تكن تلْهُو بها	فى نعمةٍ بأوانس أتْراب
فاتْرك تذكُّرَ ما مضى من عيشة	ومَحِلَّة خَلقِ المُقامِ يَباب
واذكر بلاء معاشر واشكرهمُ	ساروا بأجمعهم من الأنصاب
أنصاب مكة عامدين ليثربٍ	فى ذى غَياطِل جَحفل جَبْجاب
جيش عيينة قاصد بلوائه	فيه وصخْرٌ قائد الأحزاب
حتى إذا وردُوا المدينة وارتدَوْا	للموت كلَّ مُجرّب قَضّاب
شهرا وعشرا قاهريـن محمـداً	وصحابُهُ فى الحرب خيرُ صُحاب
نادَوْا برحلتهم صبيحةَ قلتم	كدنا نكون بها مع الخُيَّاب
لولا الخنادقُ غادروا من جمعهم	قتلى لطير سُغَّب وذئاب

فابن الزبعرى يقص خروج قريش وأحلافها من مكة ، فى جيش كثيف على رأسه قائدان عظيمان : عيينة بن حصن الفزارى على رأس الأحلاف ، وأبو سفيان بن حرب القائد الأعلى للأحزاب ، وكيف حاصرت الأحزاب المدينة أربعين يوماً ، وأنزلت الرعب فى قلوب أهلها ؛ وأنه لولا الخندق لألحقوا الهزيمة الكاملة بالمسلمين .

---

(١) السيرة ق ٢٥٧/٢ . الكنيف : حظيرة الإبل . معقد الأطناب : الأوتاد . الأنصاب : حجارة كان المشركون يعظمونها ويذبحون عندها ، يريد : أنهم ساروا من مكة . ذى غياطل : جيش كثير الأصوات . جبجاب : كثير . قضاب : قاطع . سغب : جائعة . عيينة : هو ابن حصن الفزارى كان على غطفان يوم الخندق . صخر : يريد أبا سفيان بن حرب قائد الأحزاب .

فنهض حسان للرد عليه بقصيدة ، منها قوله [١] :

هل رسمُ دارسة المقام يباب ‏ متكلـم لمُحـاور بجواب
قفر عفا رِهَمُ السحاب رسومه ‏ وهبوب كل مُطِلَّةٌ مِرْباب
ولقد رأيتُ بها الحُلول يزينهم ‏ بيض الوجوه ثواقبُ الأحساب
فَدَع الديارَ وذكر كلِّ خريدة ‏ بيضاء آنسة الحديث كعاب
واشك الهموم إلى الإله وما ترى ‏ من معشر ظلمُوا الرسول غضاب
ساروا بأجمعهم إليه وألبوا ‏ أهل القُرى وبَوادِىَ الأعراب
جيشُ عيينةُ وابنُ حرْب فيهم ‏ متخمِّطين بِحلْيةِ الأحزابِ
حتى إذا وردوا المدينةَ وارتجَوْا ‏ قتلَ النبىِّ ومَغْنَم الأسلَابِ
وغَدَوْا علينا قادرين بِأيْدِهم ‏ رُدُّوا بغيظهم على الأعقابِ

فكأن حسان بن ثابت ينظم آيات من سورة الأحزاب ، ومع ذلك فهو جاهلى المطلع ، كما هو واضح .

ويطول بنا المقام لو تتبعنا ما قيل بين شعراء مكة والمدينة من مناقضات ، فهى كثيرة ، فلنكتف منها بما ذكرنا ، دليلا على ما لم نذكر ، وشاهداً على أن هذا الصراع العنيف قد اقتضى نهضة أدبية تسايره ، وتسنده ، وتؤرخ له ، وجذب كثيراً من الشعراء إليه ، فأثرى الشعر ، ومهد له بيئة تكاد تكون جديدة فى مكة ، بالنسبة للشعر الجزل القوى الأسلوب ، الذى يقرب – أحيانا – من شعر الفحول الجاهليين ، فى الألفاظ والعبارات والمعانى والموضوعات بعامة .

---

(١) ديوانه ١١ ، والسيرة ق ٢٥٨/٢ . رهم السحاب : المطر . الحلول : البيوت المجتمعة ، ثواقب : مشرقة . مرباب : ثابتة دائمة . الكعاب : التى نهد ثديها . متخمطون : مختلطون على شكل أحزاب . الأيد : القوة . الخريدة : البكر .

وليس معنى صدور مثل هذا الشعر الذى رأينا لشعراء المسلمين ، أن الرسول كان يقره ، عن اعتقاد بأنه لا ينافى تعاليم رسالته ، وإنما هو شعر لا يخلو من الروح الجاهلية التى يرفضها الإسلام ، واضطر الرسولَ إلى السكوت عنه ، بل تشجيعه ، إمعانُ هؤلاء النفر من شعراء قريش ومن واكبهم فى هجائه ، والنيل من أعراض المسلمين ، ومحاربة الإسلام فى شعرهم ، والرسول ﷺ عربى يعلم تمام العلم مبلغ احتفال العرب بالشعر ، وتأثرهم به ، ومن ثم ، فهو يدرك أن هذه الألسنة المسمومة ، والأنفس المحمومة ، لن يسكتها عن هجائه ، والنيل من صحابته ، والتهجم على رسالته ، إلا أن يكال لها بالكيل نفسه ، وأن ترمى بسهام القول من جنس ما كانت تتناوله فى التهجم عليه وعلى دعوته وأصحابه ؛ ولذا كان هجاء حسان وكعب أشد على قريش وشعرائها من هجاء ابن رواحة - كما ذكرنا من قبل .

فتلك إذن حالة ضرورة لرد الاعتداء والظلم ، هى حرب والحرب يحل فيها القتل المحرم دفاعاً عن النفس ، وقد قدر شعراء المسلمين هذه الضرورة بقدرها ، فلم يتعرضوا لغير من ناوأهم من شعراء القبائل الذين لم يدخلوا فيما دخل فيه شعراء قريش .

وما إن دخلت قريش فى الإسلام ، وقفت على آثارها القبائل العربية الأخرى حتى خمدت هذه الحرب الكلامية ، واضمحل أمر الشعر فى الحضر ، وسكت صوت النقائض الشعرية تماماً ، حتى انبعث مرة أخرى فى عصر بنى أمية .

وهكذا كان الصراع بين الجبهة الإسلامية فى المدينة ، والجبهة المشركة فى مكة ، ذا أثر فعال فى ازدهار الشعر ، وتطور فن النقائض الحربية ، وفن الرثاء الذى تثيره الحرب ، بما يسقط فى أتونها من صرعى ، ثم فن الحماسة

الذى ينظمه كل من الغالبين والمغلوبين ، حيث يعدون العدة دائما لجولة جديدة ، يكون الشعر ممهداً لها ، ومثيراً لنارها ، ومخلداً أحداثها ، ومعلناً مفاخر فرسانها من الأحياء والأموات .

آية هذا كله : أن الشعر كان مزدهراً ، على القدر فى البادية والحضر جميعاً فى العهد النبوى ، للأسباب التى ذكرنا .

* * *

الفصل الثانى

الشعر فى عهد الراشدين

(أ) الراشدون والشعر :

رأينا كيف كان الشعر مزدهراً فى العهد السابق بعامة ؛ لكثرة ما توفر له من دواعى الشعر ، وعوامل ازدهاره وقوته .

أما فى البادية فقد ظلت دواعى الشعر وعوامل ازدهاره كما كانت عليه فى الجاهلية ، وبذا عد امتداداً للشعر الجاهلى ، يسلك طريقه ، ويحمل طابعه وخصائصه .

وأما فى الحضر – ونعنى به حضر الحجاز خاصة – فقد أتيح له أن يكون سلاحاً فعالا فى ملحمة حربية عنيفة قامت بين معسكرين سياسيين ، أو قل دينيين ، يمثل أحدهما الرسول وصحبه بالمدينة ، ومن انضم إليهم قريباً منها ، حاملا لواء دعوة جديدة ، متحمساً لها ، مخلصاً فى الذود عنها ، ومثل الآخر قريش مكة ومن لف لفها من اليهود وغيرهم ، مدافعاً عن قديمهم ، مشحوناً بالغيظ ، مدفوعاً بالعنجهية والحقد ، حريصا على تقويم دعائم هذا الدين الجديد ، الذى يسخر بعقولهم والهتهم وتقاليد آبائهم .

وكان شعر هؤلاء وأولئك قويا حماسيا فى جملته ؛ لأنه شعر العواطف المتعارضة ، التى تتصادم حول الحياة ، بل حول أعز ما فى الحياة ، الدين والحرية والسيادة ، ومثل هذا اللون من الشعر يكون – عادة – صاخباً أشبه بالخطابة ؛ لأنه يكون من واديها فى مثل هذه الظروف ، يقوم بوظائفها ، ويعتمد مثلها على قوة الشعور ، وصدق العقيدة ، فكيف به إذا اختلط

بيقين الاقتناع من جانب معسكر المدينة ، ويحميه العصبية الجاهلية من جانب معسكر مكة ؟؟ .

بيد آن نار الصراع بين المعسكرين خمدت بمجرد دخول العرب فى دين الله أفواجا ، ولم تعد هناك حاجة لمثل هذا النوع من الشعر ، فلا بد له أن يذهب بذهاب الضرورة التى اقتضته ، والموقف الذى أملاه ، وقد صار أعداء الأمس فى جملة المسلمين .

لذا أصبح ولاة الأمور فى الدولة الإسلامية بعد الرسول – وهم ممثلو السلطة الدينية والدنيوية من بعده – ينظرون إليه بعين السخط ، ويحرصون على تناسيه ، ويحرمون روايته .

من ذلك ما يروى من أن حسان بن ثابت كان لا يفتأ يتغنى بانتصار الأنصار – قومه – على القرشيين ، من حين لآخر بعد وفاة الرسول ، فمر عليه عمر بن الخطاب يوماً – وهو خليفة – فسمعه ينشد من ذلك فى المسجد بعض ما كان يقوله أيام الرسول ، فأخذ بأذنه وقال : « أرغاء كرغاء البكر ؟ فقال حسان : دعنى عنك ياعمر ، فوالله إنك لتعلم لقد كنت أنشد فى هذا المسجد من هو خير منك ، فما يغيِّر على ذلك » [١] .

وعمر إنما أنب حسان ووبخه ، ليشعره بأن هذا اللون من الشعر لم يعد مرغوباً فيه ، ويجب إهداره وتناسيه ، لنزعته التى تشبه النزعة الجاهلية ، المثيرة لأحقاد الماضى وذكرياته الدامية « ويريد أن يكون ملك المسلمين موطدا ، بحيث لا تعصف به الأهواء والعصبيات ، وينبش الماضى الذى واراه الإسلام » [٢] .

---

(١) العمدة ١/١٠

(٢) الإسلام والشعر (جبورى) ١٠٤

وكان المسلمون على وعى بضرورة المحافظة على الوَحدة الإسلامية فى هذه المرحلة ؛ ليجابهوا أعداء الدين خارج الجزيرة صفا واحدا ، وكلمة مجتمعة ، ولذا لم يقبلوا على حسان ، وهو ينشد شعر العهد الماضى فى الصراع بين مكة والمدينة ، مما اضطر الزبير بن العوام يوماً إلى أن يهيب بهم أن يستمعوا له [١] ؛ إكراماً لمكانه من الرسول ، وحرصاً على إرضائه .

ولم يقف ولاة الأمور عند حد النهى عن رواية شعر الماضى فى الصراع ، بل راحوا يضربون بقوة على يد من يحاول بعثه وإثارته ، حفاظاً على وحدة المسلمين ، ورفضاً لإحياء العصبيات الذميمة ، ونبش الأحقاد التى مسح الإسلام عليها بالعفو والتسامح ، ولحاجة الدعوة الماسة إلى تضافر جهود العرب جميعاً ؛ ليحملوها إلى الأمم الأخرى ، فى صفوف متراصة كأنها البنيان المرصوص .

نعم ، كان من الطبيعى ، تحقيقاً لهذه الأهداف ، أن يضيق العهد الجديد (عهد الراشدين) بكل شعر ينبعث عن عصبية جاهلية ، أو يأخذ فى سبيل أغراضها ومعانيها التى رفضها الإسلام ، وجاء حرباً عليها ؛ ولذا أخذ خلفاء هذه الفترة ، يضربون على أيدى الشعراء الخارجين عن سياج العفة والدين ، بالهجو المقذع ، والنسيب الفاحش ، والمديح الكاذب ... وكل ما هو محرم ، كنعت الخمر ، والدعوة بدعاء الجاهلية ..

ولا ينبغى أن نتطرف فى تصوير موقف ولاة الأمور فى هذا العهد من الشعر والشعراء ، فندعى أنهم كانوا يضيقون بالشعر عامة ، بحجة ضعف الحاجة إليه ، ونهوض الخطابة بما تحتاج إليه الدولة الإسلامية النامية ، والدعوة المنتشرة ؛ إذ كانت الخطابة فى هذا المقام أجدى من الشعر ، وأرحب مجالا ،

---

(١) العمدة ١/١٠

وأكثر إقناعاً ووفاء ، نقول : لا ينبغى أن نذهب فى التطرف إلى هذا الحد ، مهما كانت ظواهر الحال تدل عليه ، فالظواهر كثيراً ما تخدع عن الحقائق ، وتضرب حولها حجاباً كثيفاً من الغموض والخفاء ، فلقد كان ولاة الأمور هؤلاء عرباً خلّصاً ، يتذوقون الشعر ، ويعرفون قيمته فى تمثيل العواطف الإنسانية ، ويطربون لسماعه ، ويقبلون على حفظه وإنشاده واستنشاده ، والإثابة عليه ، والشواهد على ذلك كثيرة فى جمهرة أشعار العرب ، والعمدة ، والعقد الفريد ، والبيان والتبيين ، والأغانى ، وغيرها من كتب التراث فى اللغة والأدب والتاريخ .

فتدل بعض الروايات على أن أبا بكر كان يكثر من حفظ الشعر ، كثير التمثل بأشعار الجاهلية ، يروى منها فى مواقفه وخطبه [١] ، وقد مرت بنا خطبته فى الأنصار ، لما طلبوا أن يفضلهم فيما قسم من فيىء البحرين ، والتى ختمها بأبيات من الشعر للشاعر الجاهلى طفيل الغنوى ، متمثلا بها .

وروى الجاحظ : « كتب عمر بن الخطاب إلى ساكنى الأمصار : أما بعد فعلموا أولادكم العوم والفروسية ، ورووهم ما سار من المثل ، وحسن من الشعر » [٢] .

وروى المفضل الضبى عن أبيه : « قال عمر بْن الخطاب رضى الله عنه لابنه عبد الرحمن : يابنى : أنسب نفسك تصل رحمك ، واحفظ محاسن الشعر ، يحسن أدبك ، فإن من لم يعرف نسبه لم يصل رحمه ، ومن لم يحفظ محاسن الشعر ، لم يؤد حقاً ، ولم يقترف أدباً » [٣] .

---

(١) انظر مثلا : الأمالى والنوادر للقالى ٢٤١/١ ، وأدب الكاتب للصولى ١٩٠ (طبعة السلفية ١٣٤١ هـ) ، وزهر الآداب للحصرى ٣٩/١

(٢) البيان والتبيين ١٨٠/٢

(٣) جمهرة أشعار العرب (القرشى) ١٨

ولقد عرف عن عمر أنه كان يوجه الفن الشعرى كثيراً وجهة إسلامية ، لخدمة الدين ، وتربية الخلق ، فإذا كان قد نهى عن رواية شعر النقائض فى العهد النبوى ، وطارد شعراء الهجاء ، فإنه من جهة أخرى كان يأمر عماله أن يدعوا الناس إلى تعلم الشعر - كما مر - كقوله لأبى موسى الأشعرى فيما كتب به إليه : « مر من قبلك بتعلم الشعر ، فإنه يدل على معالى الأخلاق ، وصواب الرأى ، ومعرفة الأنساب » (١) .

وهل أدل على تقدير عمر للشعر ، ومعرفته تأثيره فى النفوس ، من قوله : « أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر ، يقدمها فى حاجاته ، يستعطف بها قلب الكريم ، ويستميل بها قلب اللئيم » (٢) .

كما أن عمر رضى الله عنه كان مشهوراً بأنه أنقد أهل زمانه للشعر ، وأنفذهم فيه معرفة ، وأحكامه فيه تعد من القواعد الموضوعية الأولى فى تاريخ النقد الأدبى عند العرب (٣) .

أما الإمام على كرم الله وجهه ، فكان كثير الحفظ للشعر ، وكثيراً ما تمثل به فى حروبه ، فضلا عن أنه كان يثيب الشعراء على الشعر الجيد الحسن ، وينفعل له .

روى أن أعرابياً وفد على علىّ بن أبى طالب فقال : إن لى إليك حاجة ، رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك ، فإن أنت قضيتها حمدت الله تعالى وشكرتك ، وإن لم تقضها حمدت الله تعالى وعذرتك ، فقال له على : خط حاجتك فى الأرض فإننى أرى الضر عليك ، فكتب الأعرابى على

---

(١) العمدة ١٠١

(٢) العقد الفريد ٢٧٣/٣

(٣) انظر : العمدة ١٣/١ ، ٥٠ ، ٥٩ ، ٦٢

الأرض إنى فقير ، فقال على : ياقنبر : ادفع إليه حلتى الفلانية ، فلما أخذها مثل بين يديه فقال :

كسوتَنى حُلة تبلى محاسنُها … فسوف أكسوك من حسن الثّنا حللا

إن الثناء ليحيى ذكر صاحبه … كالغيث يحيى بداه السهل والجبلا

لا تزهد الدَّهر فى عُرْف بدأتَ به … فكل عبدٍ سيُجزى بالذى فَعلا

فقال على : يا قنبر : اعطه خمسين دينارا ، ثم قال له : أما الحلة فلمسألتك ، وأما الدنانير ، فلأدبك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : أنزلوا الناس منازلهم [(١)] .

هكذا كان اعتداد الراشدين بالشعر ، ولم يكن غيرهم من صحابة رسول الله أقل منهم تقديراً له واحتفاء به ، وإقبالا عليه .

سئل الحسن البصرى يوماً : « أكان أصحاب رسول الله ﷺ يمزحون ؟ قال : نعم ، ويتقارضون من القريض ، وهو الشعر » [(٢)] .

ويروى عن أبى سلمة قوله : « لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ متحزقين ، ولا متماوتين ، كانوا يتناشدون الأشعار ، ويذكرون أمر جاهليتهم فإذا أريد أحد منهم على شىء من أمر دينه دارت حماليق عينيه كأنه مجنون » [(٣)] .

من هذا نرى أن الراشدين وغيرهم من أصحاب رسول الله ﷺ لم يتزمتوا فى موقفهم من الشعر ، ولم يرفضوه جملة ، بل نظروا إليه على أنه فن من القول رفيع ، فيه متعة للحس والقلب ، لا يأخذها عليهم الإسلام ،

---

(١) العمدة ١/١٠ ، ١١

(٢) الفائق فى غريب الحديث والأثر للزمخشرى ٣/٣٣٩ (بتحقيق أبى الفضل والبجاوى – طبعة الحلبى ١٩٤٥ م) .

(٣) المرجع السابق ١/٢٧٥

ولا يحول بينهم وبينها فى آداب معاصريهم أو سابقيهم ، وكيف يتحرجون من الشعر ، وقد أوضح لهم الرسول ما يأخذون منه ، وما يدعون ؟!

وطبيعى أن يكون الشعر الذى حظى بهذه المنزلة عندهم مختلفاً من الشعر الذى كان سائداً قبل عهدهم ، وبخاصة فى البيئات الجاهلية ، وما كان امتداداً لها ، فلقد كان للإسلام أثر محقق فى شعر هذه الفترة (عهد الراشدين) وشعرائها ؛ إذ لم يعد مضطراً إلى التغاضى عن روح العصبية الجاهلية وصيغتها – كما رأينا فى العهد النبوى – كما أنه شديد الاهتمام فى حاضره ، بتثبيت العادات والمعتقدات والأخلاق الإسلامية ، ونشرها ؛ لتحل محل العادات والمعتقدات والأخلاق الجاهلية الفاسدة ، تطهيراً للمجتمع العربى مما كان ينخر فى عظامه من سوس الفساد العقدى ، والجفوة الخلقية ، والعدوان والظلم .

وهكذا كان الإسلام يتخذ من الشعر مواقف ، تتلاءم وطبيعة كل مرحلة من مراحل الدعوة وظروفها ، فهو يوجه الشعر ويشجعه حين أتيح للمسلمين أن يتخذوا الشعر سلاحاً من أسلحة الصراع بين الدعوة وأعدائها فى عهد النبوة ، ثم يَزْوَرُّ عن هذا الشعر نفسه بعد فتح مكة حين رأى فيه خطراً على وحدة المسلمين ، ومن ثم « لا يصح أن يقال : إن الدين قد غض من الشعر ونهى عنه ، كما لا يصح أن يقال : إنه شجع الشعر دون توجيه وتهذيب » (١) .

* * *

(١) شعر المخضرمين (جبورى) ٤٠

(ب) الضعف والازدهار فى ألوان من شعر العهد الراشدى

— ١ —

تطلع الإسلام إلى ما ذكرنا ، وامتد بصره إلى ما وراء الجزيرة العربية من أمم وممالك ، واقتضاه هذا خوض غمار معارك كثيرة ، وليست بين القبائل العربية – باستثناء حروب الردة [1] – هذه المرة ، بل بينهم وبين

---

(١) لم نعثر فى حروب الردة على شعر كثير ، وما وجدناه من شعرها قيل اكثره على ألسنة شعراء مرتدين ، يتحدثون فيه عن العصبية القبلية ، ويفخرون بها ، وكأنهم يتحدثون عن حروب جاهلية ، وليس فى هذا الشعر شيء من معارضة الإسلام ، أو الطعن فى مبادئه .

والشعر القليل الذى قاله المسلمون فى هذه الحروب ، لم يشارك فيه أحد من فحول شعرائهم ، اللهم إلا حسان بن ثابت ، ومع ذلك فشعره الذى قيل فى هذه المعارك ضعيف ، سواء من حيث الطبقة الفنية ، أو ظهور الطابع الإسلامى ، والروح الدينية فيه (انظر ديوان حسان ٢٠٩ مثلا) .

أما شعراء البادية الذين ثبتوا على إسلامهم وقالوا شعرا قليلا فى تحريض المسلمين على قتال المرتدين ، فإننا نلمح تأثيرات إسلامية واضحة فى أشعارهم ، كالفخر بثباتهم على الدين ، واعتزازهم به ، والاعتراف بفضل الله عليهم . كما صورت هذه المعارك بروح إسلامية ظاهرة اليقين بالإسلام (انظر شعر المخضرمين ٢١٣ – ٣١٥) . من ذلك قول أحد شعراء كندة من السكون ، حينما ارتدت كندة ، وكان عليها زياد بن لبيد البياضى والياً ، وثبتت السكون منهم على الإسلام :

ونحن نصرنا الدين إذ ضل قومنا شفاء وشايعنا ابن أم زياد
ولم نبغ عن حق البياضى مذ حلا وكان تقى الرحمن أفضل زاد

فالشاعر يكاد ينظم فى عجز البيت الثانى قول الله تعالى : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ ويبدو أن قصر مدة هذه الحروب ، وعودة العرب المرتدين إلى الإسلام سريعاً ، ثم اتجاههم إلى الفتح الإسلامى ، هو التعليل الصحيح لقلة الشعر الذى قيل فى حروب الردة ، وبخاصة الإسلامى منه .

شعوب أخرى ، وممالك وحضارات مختلفة ، وكثيرة من هذه المجالات يطلب الشعر ، ليس أى شعر ، بل شعراً يعبر عن روح إسلامية ، وأغراض إسلامية .

واستجابت طائفة من شعراء المسلمين الذين تأثروا بالإسلام ، وانفعلوا له ، إلى نداء دعوتهم ، فقصروا جانباً من شعرهم على ما يطابق روح القرآن ، كالحث على العمل الصالح ، والموعظة الحسنة ، والنهى عن انتهاك حدود الدين ومحارمه ، وما يطابق أهداف الإسلام ، كمدح رجالاته ، ورثاء قادته ، ونشر دعوته ، والحض على الجهاد فى سبيله ، ووصف معاركه ... ونحو ذلك مما ترويه كتب الأدب والسير والفتوح .

من ذلك قول عَبَدة بن الطبيب ، يوصى أبناءه بتقوى الله ، وبر الوالدين ، والحذر من النمام ، الذى يبث الضغائن ، حتى بين الإخوة ، فيقول (١) :

أُوصيكُمُ بتُقى الإله فإنه	يعطى الرغائبَ من يشاءُ ويمنعُ
وَبِبَرِّ والدكم وطاعةِ أمره	إن الأبَرّ من البنين الأطوع
ودعوا الضغينة لا تكنْ من شأنكم	إن الضغائنَ للقرابـة توضع
واعصوا الذى يُزْجِى النمائم بينكم	مُتنصِّحاً ذاك السِّمَامُ المُنْقَعُ
يزجِى عَقاربهُ ليبعثَ بينكم	حرباً كما بعثَ العروقَ الأخدع

فالشاعر هنا يستمد معانيه من القرآن الكريم ، وينظم وصيته من الهدى الإسلامى ، وليس من العسير علينا أن نلاحظ الارتباط بين هذه المعانى التى طرقها الشاعر فى : التقوى ، وبر الوالدين وطاعتهما ، وخلق النمام

---

(١) المفضليات ١٤٦ (الطبعة الثانية - شاكر وهارون - دار المعارف بمصر ١٩٦٤ م) . وانظر : الشعر والشعراء ٤٥٦ . الأخدع : عرق فى العنق إذا ضرب أجابته بقية العروق .

المنافق ، وبين الآيات القرآنية التى تعالج هذه المعانى ويكفى أن نشير إلى بعضها هنا ، قوله تعالى فى التقوى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ﴾ (سورة الطلاق ٦٥/٤) وقوله : ﴿ ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ﴾ (الطلاق ٦٥/٥) وقوله فى بر الوالدين والإحسان إليهما : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾ (سورة الإسراء ١٧/٢٣) وقوله : ﴿ وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً ﴾ (سورة مريم ١٩/١٤) وقوله فى المنافقين : ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم ﴾ (سورة الأحزاب ٣٣/٤٨) .

وعلى الرغم من ارتفاع هذا الشعر فى ميزان الأخلاق والدين ، فهو فى ميدان الفن الشعرى ليس بشىء ؛ لأنه أقرب إلى النظم المصنوع منه إلى الشعر المطبوع .

ولأمية بن حُرثان بن الأسكر أبيات رقيقة ، تشع بالحنان والعاطفة ، وفيها مع ذلك أثر من هدى الإسلام ، يناشد فيها ابنه كلاب أن يتدبر ما فى كتاب الله من وصايا بالوالدين ، رعاية وبراً وإحساناً ، يقول فيها [١] :

لمَنْ شيخان قد نشدا كِلابا   كتابَ الله إن حفظ الكتابا
إذا هبتْ حمامةُ بَطنِ وجٍّ   عَلى بيضاتِها ذكرَا كِلابا
تركتَ أباك مُرْعَشَةً يداه   وأمَّك ما تسيغُ لها شرابا ؟!

وكان كلاب ابنه قد هاجر إلى البصرة فى خلافة عمر ، فلما سمع عمر هذه الأبيات المؤثرة ، كتب إلى أبى موسى الأشعرى واليه عليها ، أن يشخصه إلى أبويه ، فأشخصه .

---

(١) طبقات ابن سلام ١/١٩٠ - ١٩١

وهذا أبو محجن الثقفى يتوب عن الشراب توبة نصوحاً ، ويعاهد الله على ألا يعاوده ، ويشهده على ذلك ، فيقول [(١)] :

أتوبُ إلى الله الرحيمِ فإنه غفورٌ لذنبِ المرءِ ما لم يعاودِ
ولستُ إلى الصهباء يوماً بعائدٍ ولا تابع قولَ السفيه المعاندِ
وكيف وقد أعطيتُ ربِّى مواثقاً أعودُ لها والله ذو العرش شاهِدى

كذلك وردت معان وأفكار وألفاظ قرآنية فى أبيات الحُصيْن بن الحمُام المرى ، يقول فيها [(٢)] :

فلمْ يبق من ذاك إلا التُّقى ونفسٌ نُعالج آجالَها
أمورٌ من الله فوق السما ء مقادير تَنزِل إنزالَها
أعوذ بربِّى من المخزيا ت يومَ ترى النفس أعمالَها
وَخفَّ الموازين بالكافرين وزُلزلت الأرض زِلزالَها
ونادى منادٍ بأهل القبو ر فهَبُّوا لتبرز أثقالَها
وسعِّرتِ النّار فيها العذا ب وكان السلاسل أغلالَها

فلم تكن هذه المعانى والأفكار فى القضاء والقدر والآجال والحساب والبعث والعذاب لتتفق للشاعر ، لو لم يكن قد قرأ سورة القارعة ، والزلزلة ، والغاشية ، وغيرها ، أو تليت عليه .

وأمثال هذه الأشعار التى تنم عن روح إسلامية ، وتنظم فى معان قرآنية ، كثير فى شعر هذه الفترة ، وهى وإن كانت من الشعر الحسن من الناحية الدينية ، فإنها ضعيفة النسج ، ركيكة الأسلوب فنياً ، فى مجموعها .

وقريب من هذا الشعر تأثراً بالإسلام وضعفاً فى الفن الشعرى – على درجات متفاوتة – ما قيل فى رثاء قادة الإسلام فى عهد الراشدين .

---

(١) ديوانه ١٢

(٢) الأغانى ١٣٢/١٢

من ذلك رثاء أبي محجن الثقفى أبا بكر الصديق ، وفيه يقول [١] :

وسميت صدِّيقا وكل مهاجرٍ سواك يسمى باسمه غير منكر
وبالغار إذ سميت بالغار صاحباً وكنتَ رفيقاً للنبى المطهَّر
سبقت إلى الإسلام والله شاهدٌ وكنتَ جليساً بالعريش المشّهرِ

فهو ينظر فى البيت الثانى إلى قول الله تعالى : ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذْ يقول لصاحبه لا تحزن ﴾ [٢] .

ونلمس ما فى هذه الأبيات من ضعف فنى فى تكرار كلمة (بالغار) فى شطر واحد ، دون مزية فى المعنى أو حاجة للتكرار ، اللهم إلا تكملة الوزن ، وفى استخدام كلمتى (المطهر – المشهر) استيفاء للقافية لا غير .

ولما قتل عمر بن الخطاب على يد أبى لؤلؤة المجوسى ، رثاه جَزْء بن ضرار – أخو الشماخ – وذكر قاتله ، ووصفه بأنه عدو (أزرق العين) لئيم ، خبيث ، وأثنى على عمر ، وأشاد بأياديه على الإسلام ، وتوقع الشر بعد وفاته ، فقال [٣] :

جَزى اللهُ خيراً من إمَامٍ وباركتْ يدُ الله فى ذاك الأديم الممزّق
فمنْ يسعَ أو يركب جناحىْ نعامةٍ ليدرك ما قدمتَ بالأمس يُسبقِ
قضيتَ أموراً ثم غادرتَ بعدها بَوَائِجَ فى أكمامها لم تُفتَّقِ
أبَعْدَ قتيل بالمدينة أظلمتْ له الأرضُ تهتزُّ العِضاهُ بأسوُقِ

(١) الأغانى ١٤٣/٢١

(٢) سورة التوبة : ٤٠

(٣) ينسب هذا الشعر خطأً للشماخ ، وهو لجزء أخيه فى كثير من المصادر . انظر : ديوان الشماخ (بتحقيقنا) ٤٤٨ (طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٧ م) . بوائج : دواهى . العضاه : شجر ضخم . نثى خبر : يقال نثا الخبر إذا شاع . السبنتى : النمر الخبيث .

تظل الحَصانُ البِكرُ يُلقى جنينها ... نَثَى خبر فوق المطىِّ معلّق

وما كنتُ أخشى أن تكون رفاتُه ... بكفَّىْ سَبَنْتَى أزرق العين مُطْرِقِ

فهو يدعو لعمر أن يجزيه الله أحسن الجزاء ، على ما قدمت يداه للإسلام والمسلمين ، وأن يبارك أديمه الممزق بسلاح القاتل ، كما يتحدث الشاعر عن سيرة عمر فى المسلمين ، ورعايته التامة شئونهم ، وأنه أحكم أمورهم ؛ ولذا فإن موته كارثة ، تخفى بعدها دواهى لا تزال مستورة ، وهو بهذا يصور مبلغ الكارثة بفقده .

وهذا الرثاء تمليه روح إسلامية ، فالشاعر لا يرثى عمر لشخصه ، وإنما يرثى فيه العدل ، ورعاية مصالح المسلمين ، وهو إلى جانب هذا جيد الطبقة فنياً ، لا نرى فيه ما لاحظناه فى شعر أبى محجن السابق ، من ضعف وتفكك .

كذلك نجد فى رثاء حسان بن ثابت عثمان بن عفان ، طابعاً إسلامياً ، وإن لم يبلغ من الجودة مبلغ أبيات جزء بن ضرار فى عمر ، يقول حسان [1] :

يا للرّجال لدَمْع هاج بالسَّنن ... إنى عجبتُ لمَنْ يبكى على الدّمنِ

إنى رأيتُ أميرَ الله مضطهداً ... عثمانَ رهنا لدى الأحداث والكفن

يا قاتل اللهُ قوماً كان شأنُهم ... قتلَ الإمام الأمين المسلمِ الفطِنِ

ما قاتلوه على ذنبٍ ألَمَّ به ... إلا الذى نطقُوا بوقاً ولم يَكنِ

إذا تذكَّرتُهُ فاضتْ بأربعةٍ ... عَيْنى بدمعٍ على الخدّينُ محتبِن

والحق أن شعر حسان بعد وفاة الرسول تكاد تخمد جذوة الشاعرية فيه ، فقد كان فى شغل باجترار ماضيه الشعرى أيام الرسول ، عن الانفعال بأحداث حاضره أيام الراشدين فيما يبدو .

---

(١) ديوانه ٤/١ . بوقا : باطلا . محتتن : متتابع .

ومما رثى به الإمام على ، قول أبى زبيد الطائى [(١)] :

إن الكرام على ما كان من خلقٍ — رهط امرىء خارهُ للدِّين مُختار
طَب بصير بأضغان الرجال ولم — يُعْدل بحَبْرٍ رسول الله أحبار
وقطرة قطرت إذ حان موعدُها — وكلُّ شيء له وقتٌ ومِقْدَارُ
حتى تنصلها فى مسجد طُهُرٍ — على إمامُ هُدى إنْ معشر جارُوا
حُمّتْ ليدخل جناتٍ أبو حسنٍ — وأوجبت بعدَه للقاتل النارُ

وفى هذا الشعر من التأثر بالإسلام ، ومن التهافت الفنى ما لا يخفى .

والملاحظ على رثاء الراشدين بعامة ، أنه قصير النفس ، فأكثره مقطعات قصيرة ، أو أبيات قليلة ، لا ترتفع إلى مستوى المرثى ، ومكانته الإسلامية ، باعتباره خليفة رسول الله ، وراعى شئون الدعوة الإسلامية ، والمنفذ لأحكام الإسلام فيما يصلح العباد والبلاد ، بل إن من هذا الرثاء ما يصلح لأن يرثى به زعيم جاهلى ، أو شيخ من شيوخ العشائر فى الجاهلية ، إذا تجاوزنا عما فيه من بعض الألفاظ والمعانى الإسلامية .

هذه أمثلة من الشعر المتأثر بروح الإسلام ، أو المتحدث عن رجالاته ، ولعل هذا الشعر – بخاصة – هو الذى يقصده بعض مؤرخى الأدب ، عندما يقولون بضعف الشعر فى صدر الإسلام .

فلقد تضافرت عوامل عدة (أشرنا إلى أهمها فى صدر هذا الحديث) جعلت الشعر يبتعد عن دواعيه الموروثة ، التى تثير الشر فى النفوس ، وتشعل الأحقاد ، والتى كانت تقوم ، كما يقول أبو هلال : « على الكذب والاستحالة الممتنعة ، والنعوت الخارجة عن العادات ، والألفاظ الكاذبة ، من قذف المحصنات ، وشهادة الزور ، وقول البهتان » [(٢)] .

---

(١) الكامل للمبرد ١٢٩/٢ . تنصلها : استخرجها . حمت : قدرت .
(٢) الصناعتين ١٠٣

ولعل هذا هو ما قصده الأصمعى بقوله : « الشعر نكد بابه الشر ، فإذا دخل فى الخير ضعف » (١) .

ويؤيد هذا ما رواه ابن قتيبة : « قال عبد الله بن مروان لأرطاة بن سُهَيّة : هل تقول الآن شعراً ، فقال : ما أشرب ، ولا أطرب ، ولا أغضب ، وإنما يكون الشعر بواحدة من هذه » (٢) .

ومهما يكن موقفنا من هذه الروايات ، ومدى صدق ما تذهب إليه ، فما لا شك فيه ، أن هذه الألوان السابقة من الشعر فى عهد الراشدين ، لا ترتفع إلى المستوى الفنى ، الذى يتيح لنا أن نقف من هذه الآراء موقف الرفض التام .

– ٢ –

الشعر فى ظل الفتوح الإسلامية :

كان العهد النبوى قد استغرقه كفاح مرير من النبى ﷺ وصحابته ضد قوى الشرك ، وكان من أهم نتائج هذا الكفاح أن سقطت مكة معقل الوثنية ، وأقبلت وفود القبائل العربية من أنحاء الجزيرة تبايع النبى على الإسلام ، وتدخل فى دين الله أفواجاً ، وبذا حقق الإسلام المرحلة الأولى الضرورية ، لانطلاقه إلى العالم الخارجى ، حيث الأمم والممالك المجاورة لجزيرة العرب ، ومن كان خاضعاً لسلطانها من القبائل على تخوم الشام والعراق ، والأمم والممالك البعيدة عنها ، والتى كان الإسلام يتطلع إليها باعتباره ديناً للناس كافة من لم يعتنقه منهم فهو كافر .

---

(١) الشعر والشعراء ١٧٠

(٢) عيون الأخبار ١٨٤/٢ (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٥ – ١٩٢٨ م) .

ولم ينقض العهد النبوى حتى كان الرسول ﷺ قد اتخذ بعض الخطوات الأولى لتأكيد عالمية الإسلام ، ووجوب إشراقه على جميع الأمم ، أسودها وأحمرها ، فوجه جيشاً إسلامياً لغزو تخوم المستعمرات الرومية فى الشام فيما يعرف بغزوة مؤتة (١) عام ٨ هـ ، وفى العام التالى توجه بنفسه على رأس جيش آخر للغرض نفسه فى غزوة تبوك (٢) ، وقبيل وفاته أمّر أسامة بن زيد على حملة للتوجه إلى فلسطين التى كانت من مستعمرات الروم أيضاً ، ولكنه توفى قبل أن تسير هذه الحملة (٣) .

وأغلب الظن أن الرسول ﷺ لم يقصد بهذه الحملات المحدودة العدد والعدة غزو بلاد الروم وإخضاعها لسلطان الإسلام ، بقدر ما أراد أن يثبت لأولياء الأمر من بعده والمسلمين ، أن نشر الدعوة خارج الجزيرة واجب مقدس ، يجب أن يحرصوا عليه ، ويعملوا جاهدين على تنفيذه .

وهكذا كان نشر الدعوة وانفتاحها على العالم أقدس واجب ألقاه الرسول على عاتق خلفائه من بعده ؛ ولذا أصر الخليفة الأول أبو بكر على إنفاذ جيش أسامة ، عقب توليه الأمر ، على الرغم من الظروف الصعبة التى كانت الدولة الإسلامية تمر بها آنذاك .

وقد تجلى أثر الإسلام عقيدة وإيماناً وفكراً فى حمل العرب على البذل والتضحية والفداء ، فى سبيل نشر دينهم الذى ارتضوه ، اعتقاداً بأنه خير دين ارتضاه الله لهم ، وأن نبيهم الذى بعث فيهم إنما بعث إلى الناس كافة ، وأنهم هم ورثته فى هداية الأمم الضالة إلى طريق الحق ، فاندفعوا فى حماس

---

(١) انظر خبرها فى السيرة ق ٢/٣٧٣ وما بعدها .

(٢) انظر خبرها فى السيرة ق ٢/٥١٥ وما بعدها .

(٣) انظر : السيرة ق ٢/٦٤١

بالغ ينتشرون بهذا الاعتقاد والشعور خارج حدود بلادهم إلى الشرق وإلى الغرب وإلى الشمال ، لا يأبهون بقوة فى الأرض ، واثقين الثقة كلها بنصر الله ، آملين كل الأمل فى إحدى الحسنيين : الشهادة ، أو النصر [١] .

اندفع الجند الإسلامى إلى ميادين الجهاد فى وحدة رائعة ، شعارها : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء ، فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾ [٢] .

بنعمة الله هذه استطاع المسلمون هدم امبراطوريتين عريقتين قويتين ؛ ليرفعوا على أنقاضهما أسس إمبراطورية إسلامية عظيمة فى مدة وجيزة أذهلت التاريخ ، وأن يقهروا جحافل جيوشهما ، التى كان العرب قبل الإسلام يحسبونها قوة لا تقهر ، ودك حصونهما التى توهموها منيعة لا تؤخذ ، وضربوا فى كل ذلك أمثلة عليا من البطولة مازالت أنشودة فى فم التاريخ ، وأسوة حسنة لكل أمة تريد أن تحفظ على نفسها عزتها وكرامتها .

فماذا كان من وراء هؤلاء القوم يدفعهم إلى هذه البطولات الخارقة ، ويحبب إليهم التضحية بالدعة والراحة ، وإلف الوطن ، وقرب الأهل والأحباب ، بل بذل النفس عن رضى ولهفة واستبشار ؟؟

يقول الدكتور طه حسين : « ولا شك فى أن القرآن هو المؤثر الأول فى هذا كله ، كانوا يقرءونه ، أو يقرأ عليهم ، فيملأ نفوسهم روعة ، وقلوبهم إيماناً ؛ ويدفعهم هذا كله إلى أن يفعلوا الأعاجيب ، وإلى أن يتيحوا لقائد من قوادهم – هو خالد بن الوليد – أن يكتب إلى بعض محاربيه حين

---

(١) شعر الفتوح الإسلامية (النعمان القاضى) الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٥ م .

(٢) سورة آل عمران : ١٠٣

دعاهم إلى الإسلام ، أو إلى الخضوع وأداء الجزية ، ثم قال لهم بعد ذلك : فإن أبيتم فإنى قد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة .

واقرأ إن شئت حديث الفتح فى كتب التاريخ ... فسترى فيما تقرأ من العبر والعظات والأعاجيب ما يقنعك بأن بلاء المسلمين فى تلك الحروب ، وما أتيح لهم من الظفر ، إنما كان نتيجة لأثر الإسلام والقرآن خاصة فى نفوس أولئك المجاهدين ، وانظر إليهم حين يتلو عليهم القاص الذى كان يطوف على الجنود فيعظهم ، ويحمسهم للحرب ، حين يتهيئوا للقاء العدو ، انظر إليهم حين يتلو عليهم هذه الآية الكريمة ... مثلا : ﴿ ما كان لِأَهْلِ المدينةِ ومَنْ حَوْلهم من الأَعراب أن يتخلَّفُوا عن رسول الله ، ولا يَرْغَبوا بأنفسهم عن نفْسه ، ذلك بأنهم لا يُصيبهم ظمأٌ ، ولا نَصَبٌ ، ولا مَخْمَصَةٌ فى سبيل الله ، ولا يطئُون موطئاً يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدوٍ نَيْلاً إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يُضيع أجر المحسنين ﴾ (١) .

فأى غرابة فى أن تملأهم هذه الآية وأمثالها من آيات القرآن الكريم ثقة وأمنا ، وأملا واطمئنانا إلى أنهم من غير شك ظافرون بإحدى الحسنيين ، فإما الانتصار على العدو ، والفوز بما فى أيديهم من الملك وزهرة الحياة الدنيا ، مع الأجر العظيم عند الله ، وهو خير من كل ما ظفروا به ، وإما الفوز بنعمة الشهادة والحياة عند الله ، « فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ومستبشرين بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢) .

ونحسب أن هؤلاء العرب المسلمين ، الضاربين فى ممالك الفرس

---

(١) سورة التوبة : ١٢٠

(٢) مرآة الإسلام ٢٤٨ ، ٢٤٩

والروم وغيرهما ، شرقا حيث العراق ، وفارس إلى حدود الصين ، وشمالا حيث الشام إلى بحر قزوين ، وغربا حيث مصر وتونس ، نحسب أن هؤلاء قد تأثروا نفسيا وحضاريا بما شاهدوه فى هذه النواحى المفتوحة ، من طبيعة جديدة عليهم ، فيها الأنهار والخصب والحضارة العريقة ، وفرق بين نفسية وخيال عربى لم ير إلا الصحراء ، ونفسية وخيال عربى رأى ما لم يسبق له رؤيته أثناء الفتوح من ممالك الفرس ، ومستعمرات الروم ، فضلا عما استشعره العرب المسلمون الفاتحون من ثقة واعتداد بأنفسهم ، واعتزاز بدينهم ، وهم يرون هذه الممالك العريقة فى الحضارة ، تتهاوى تحت ضربات سيوفهم ، بعد أن كانوا « يسمعون بالرومى أو الفارسى ، فيعظمون قدره ، ويتمثلون بسطوة قيصر وكسرى » [١] .

والآن ، ما مكانة الشعر خلال هذه الملاحم البطولية ؟ هل عايشها ، وسار فى ركابها ، وانطلق معها إلى البيئات الجديدة ، فرأى وسجل ، وأحس فعبر ؟؟ أم ضل طريقه إليها ، وتخلف دون أحداثها .

لقد شغلت هذه الفتوح طاقة الأمة العربية المسلمة كلها ، وانتظم فى ميادينها كل قادر على حمل السلاح من شباب المسلمين وشيوخهم ، وفيهم من الشعراء ، ومن كمنت فيه موهبة الشعر عدد غير قليل ، غير أن أحداث المعارك المتلاحقة السريعة ، وحركات الجيوش التى لا تهدأ فى انتقالها من معركة إلى معركة ، ومن جهة إلى أخرى قد أوحت إلى بعض المؤرخين والباحثين ، بأن المواهب الشعرية قد ألهتها هذه الأحداث والحركات عن قول الشعر ، وكان ذلك – عندهم – عاملا من عوامل انكماش الشعر وضعفه فى صدر الإسلام [٢] .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية (زيدان) ٢١٥/١

(٢) انظر مثلا طبقات ابن سلام ٢٥/١ ، والإسلام والشعر ٣١ ، وشعر المخضرمين

ولقد يبدو لنا الأمر على خلاف ما زعم هؤلاء ، فما كان للفتوح وما رافقها من حركات وهجرات وصراع أن تذهب بالمواهب الفنية للنفس العربية ، فتشغلها عن الشعر الذى ألفته ومرنت عليه ، بل نحن نذهب إلى أبعد من هذا فنرى أن الفتوح الإسلامية كانت خيرا وبركة على الشعر فى هذه الفترة ، لأنها أذكت جذوة الشعر العربية ، وأطلقت الألسن من عقالها ، بما فتحت أمام الشعر من مجالات واسعة ، وبما وضعت أمام الشعراء من مواقف شبيهة بالمواقف التى ألفوها ، وألفها الشعر فى الجاهلية ، مع اختلاف الهدف اختلافا كبيرا ، نعنى أنها أزالت حرج الشعراء فى طرق أبواب من الشعر ، كان محظورا عليهم تناولها ، فلا بأس على الشاعر إذا ما أشاد ببلائه وفخر بقومه ، ما داموا جميعاً يذودون عن العقيدة ، ويبذلون الأرواح رخيصة فى سبيلها ، أما قبل الفتوح فإن الفخر بذلك كان يعد انحرافا عن حدود المهمة التى نيطت بالشعر ، إلى إثارة النعرات والعصبيات التى يحاربها الإسلام ، ويطارد مثيريها .

نعم ، لا ضير على المسلم إن شعر بما لقبيلته من بلاء عظيم فى سبيل العقيدة ، كما فعل نافع بن الأسود بن قطية التميمى حين افتخر بصدق جهاد قومه بنى تميم فى القادسية (١) :

وقال القضاةُ من مَعدّ وغيرها	تَميمك أكفاء الملوكِ الأعاظمِ
همُ أهلُ عز ثابتٍ وأرومةٍ	وهم من مَعدّ فى الذرا والغلاصم
وهم يضمنون المالَ للجار ماثوى	وهمُ يُطعِمون الدّهرَ ضربة لازم
لذلك كان اللهُ شرّف فر	سانها فى الزّمان الأول المتقادِم
وحينَ أتى الإسلامُ كانوا أئمةً	وبادُوا معدا كلها بالجرائم
إلى هجرةٍ كانت سناءً ورفعةً	لباقيهم فيهم وخير مُراغم

---

(١) الإصابة ٢٦٢/٦ (المطبعة الشرفية – القاهرة ١٣٢٥ هـ) .

فجاءتْ بهم فى الكتائب نصرة   فكانوا حماة الناس عند العظائم
فصفُّوا لأهل الشرك ثم تَكَبْكَبُوا   وطارُوا عليهم بالسُّيوف الصّوارم

فهل كان شاعر يستطيع قول مثل هذا الشعر فى المسجد – مثلا – وعمر بن الخطاب يمسك بأذن حسان بن ثابت ؛ ليعنفه على ما قال من شعر شبهه بأنه رغاء كرغاء البكر ؟؟

ولا يقف الأمر عند حد هذه البحبوحة الشعرية ، إذ ينبغى ألا ننسى ما خاضه الشعراء خلال الفتوح من تجارب طريفة ، تعرضوا لها فى ظروف جديدة عن حياتهم السابقة تمام الجدة ، فصاغوها بما تأتى لهم من مشاعر .

إلى جانب هذا ، هناك حقيقة فى تاريخ الشعر العربى يجب ألا تغيب عن أذهاننا ، فلقد كان هذا الشعر شديد الالتصاق بالحركات الحربية فى تاريخه كله ، فى الجاهلية والإسلام ، يواكبها ، ويزدهر فى ظلالها ، ولسنا نرى شعر الفتوح الإسلامية استثناء من هذه القاعدة .

بل لقد تمتاز حروب الجهاد هذه بأنها أبرزت شاعرية كثير من الشعراء المغمورين ، الذين لم يذع لهم شعر قبل اشتراكهم فيها ، فسارت بأشعارهم الركبان ، وسجلت أسماؤهم فى أذهان العرب ، من هؤلاء على سبيل المثال : نافع بن الأسود بن قطبة التميمى السابق الذكر ، وعمرو بن مالك الزهرى ، والأعور الشَّنى ، وحسان بن المنذر الضبى ، وكُثِّير بن الغريزة النهشلى ، وزهير بن عبد شمس البجلى وغيرهم ، كما أنها أنطقت قوما بالشعر ، ولم تكن لهم سابقة فى ميدانه ، لكنهم لما حملوا السلاح ، وخاضوا المعارك الدينية ، بإحساس المجاهدين الصادقين ، فاضت نفوسهم بالأبيات أو المقطَّعات القصيرة ، تسرية وتنفيسا ، وحثا لنفوسهم وتحميسا ، وهؤلاء يمثلون السواد الأعظم من الفاتحين ، وإن الإنسان ليدهش حقاً أمام هذه الكثرة من الشعراء ، حتى ليخيل إليه أن الفاتحين جميعا قد استحالوا شعراء

فى الفتوح ، وخير نموذج لهؤلاء الشعراء الذين أنطقتهم الفتوح بالشعر لأول مرة ، وذاعت شهرتهم فيها مرتبطة بالشعر : القعقاع بن عمرو التميمى (١) .

والحق أن هذه الفتوح هيأت عديدا من الظروف ، التى تعمل على بعث الشعر وازدهاره ، فخلفت ثروة شعرية فى شتى الأغراض ، تعد بمثابة وثائق تاريخية ونفسية هامة فى تاريخ الأدب العربى ؛ من حيث كونها تمثل مرحلة حية من مراحله ، طالما تجافى عنها الدارسون ، أو مروا بها مرورا عابرا ، دون أن يكلفوا أنفسهم أكثر من أن يرجعوا إليها احتضار الشعر ، أو خموله وضعفه .

اضطلع شعر الفتوح الإسلامية بكثير من المهام ، التى تكون فى مجموعها صورة مشرقة للوثبة الهائلة الواسعة ، التى انطلقت بالعربى من حيزه الضيق ، لتطوف به فى أرجاء ممتدة بعيدة لم يستشرفها من قبل ، فقدم صورا عديدة للفروسية العربية فى إطارها الإسلامى ، وعبر — أحيانا — عن نفحات الإيمان القوية ، والتصديق العميق بما وعد الله به المجاهدين من عباده ، وسجل معارك المسلمين ونتائجها ، وصداها فى تلك النفوس العربية ، وما استحدثته من ظروف الاغتراب والبعد عن الأوطان ، وما يستتبعه من حنين إليها ، وإلى الأهل والأحباب فيها ، وقد يعرج الشعر على بعض المشاهد الغريبة التى عاينها المسلمون لأول عهدهم بها ، فى مناطق نائية ، فيصور انطباعات الشعراء بها ، وانعكاساتها على أنفسهم ، أو ينهض برثاء الذين فازوا بالشهادة فى ميادين الجهاد .. إلى غير ذلك مما عالجه هذا الشعر ، ونجده مبثوثا فى المراجع العديدة ، التى تؤرخ للفتوح ، أو تروى شيئا عنها .

---

(١) انظر : شعر الفتوح الإسلامية ٢٢٩ — ٢٣٤

ويحسن هنا أن نستعرض بعض النماذج من شعر الفتوح الإسلامية فى مختلف أغراضه ، محاولين على ضوء دراستها تقديم بعض الدلالة على ما سبق أن ذكرنا ، من أن هذه الفتوح قد هيأت ظروفا عديدة لبعث الشعر وازدهاره ، على أن نحرص من خلال هذه الدراسة على التماس ما فيه من هدى الإسلام ، أو تمثل لروحه ، ونزعاته ، أو تأثر بمعانى القرآن وعباراته .

أكثر شعراء الفتوح الإسلامية من الإشادة ببطولات المجاهدين خلال هذه الملاحم ، وما كان فيها من إقدام وبسالة ، وصور رائعة للتضحية والفداء ، وهم يصورون أيضا من خلال ذلك ، قسوة المعارك ، وضراوة القتال ، وشدة اللقاء ، فى شعر حماسى ، تعلو فيه نغمة الفخر بالجماعة الإسلامية ، أو بالنفس ، أو بالغير .

من ذلك قول خليد بن المنذر فى معركة (طاووس) بأطراف فارس ، مشيدا ببلاء جماعة المسلمين ، وبسالتهم ، وإيقاعهم بالعدو [1] :

بطاوُوس ناهبنا الملوك وخيلُنا ... عشيةَ شهراكٍ علوْن الرواسيا
أطاحتْ جموعَ الفرسِ من رأس حالِق ... تراه كموَّار السحاب مُناغيا
فلا يبعدنَّ الله قوماً تتابعُوا ... فقد خضبوا ، يومَ اللقاء العواليا

وفى موقعة (نهاوند) بين المسلمين والفرس بقيادة الفيرزان ، يقول القعقاع بن عمرو ، مصوراً بطولة الجند الإسلامى ، وتنكيلهم بالعدو [2] :

ونحنُ حبسنا فى نَهاونْدَ خَيْلنا ... لشرٍّ ليال أنتجت للأعاجم
ملأنا شعاباً فى نَهاونْد منهمُ ... رجالًا وخيلاً أضرمت بالضَّرائم
وراكضهنَّ الفيرزانُ على الصَّفا ... فلمْ يُنْجِه منها انفساحُ المخارم

وقد يمزج الشاعر بين الإحساس الجماعى والفخر الشخصى ، معبرا من خلال ذلك ، عن البطولة الجماعية والفردية فى لقاء العدو ومجالدته .

---

(١) معجم البلدان (ياقوت الحموى) ٢٩٤/٢ (طبعة ليبزج ١٨٦٦ م) .

(٢) المرجع السابق ٨٣٨/٤

من ذلك قول نُعَيم بن مقرن قائد جند المسلمين فى موقعة (واج روذ) بهمذان ، حيث تصدوا لقائد الفرس (موتا) ونكلوا به تنكيلا شديداً [١] :

ولما أتانى أن موتا ورهطه ... بنى باسل جرّوا جنودَ الأعاجم
نهضتُ إليهم بالحديد كأننا ... جبالٌ تراءَى من فروع الغَلاسم
صدمناهم فى وَاج روذٍ بجمعنا ... غداةَ رَمْيناهم بإحدى العظائم
فما صبروا فى حَوْمةِ الموتِ ساعةً ... لحدِّ الرماح والسيوف الصوارم
أصبنا بها « موتا » ومن لفَّ جمعه ... وفيها نهاب قسمة غير غانم
تبعناهمُ حتى أووْا فى شِعابهم ... نُقتّلهم قتلَ الكلابِ الجواحِم

فقد اتخذ الشاعر من وصف المعركة وما دار فيها ، وسيلة إلى الفخر بصدق جهاد جنده الإسلامى ، والإشادة بنفسه .

أما الشماخ بن ضرار الذبيانى فقد عرج على وصف بلاء قائد سريته ، بُكَيْر بن الشُّدّاخ ، فى موقعة (موقان بأذربيجان) ، وأثنى على بطولته ، وعظيم تضحيته ، ولم ينس إلى جانب ذلك أن يفخر بنفسه وإقدامه ، وبسالته [٢] :

لقد غادرتْ خيلٌ بموقان أسلمتْ ... بُكير بنى الشداخ فارس أطلال
فتًى كان يروى سيفَه وسنانه من ... العَلَق الآنى لَدَى المُجْحَر التالى
وقد علمت خيل بموقان أننى ... أنا الفارس الحامى لَدَى الموت نَزَّال

ونستطيع أن نقرأ أبيات الشماخ كاملة فى ديوانه ، ولن نجد فيها تمثلا واضحاً لفكرة الجهاد الدينى ، أو تأثراً بمعنى إسلامى ، شأنه فى ذلك شأن

---

(١) المرجع السابق ٨٧٢/٢

(٢) ديوانه ٤٥٦ . أطلال : اسم فرس بكير . العلق الآنى : الدم الشديد الحمرة . المجحر : المضيق .

غيره من الشعراء الذين مرت بنا أشعارهم ، مع أن المواقف كانت جديرة بأن تبرز فكرة الجهاد واضحة فى أشعارهم ، ولو لم نعرف أن هذه الأشعار قيلت فى معارك إسلامية لظنناها لبعض الشعراء الجاهليين ، فى ذكر مواقع جاهلية ، مع استبدال أسماء ما بها من أماكن بغيرها من مواضع البادية .

على أن شعراء الفتوح كثيراً ما يعمدون إلى الفخر الشخصى مباشرة ، ويقصرون شعرهم على التمدح ببطولتهم ، وإقدامهم ، وفعلهم فى العدو .

من ذلك قول قيس بن المكشوح المرادى ، يصف قيادته الخيل من صنعاء إلى (القادسية) ويفخر بأنه قتل (رستم) قائد الجيوش الفارسية [(١)] :

جلبت الخيل من صنعاء تردى ... بكل مدجَّج كالليث سام
إلى وادى القرى فديار كلْب ... إلى اليرموك فالبلد الشآم
وجئنَ القادسيةَ بعد شَهْرٍ ... مُسوَّمة دُوابرها دَوَامى
فناهضنا هناك جموع كسرى ... وأبناء المَرَازبة الكرام
فلما أن رأيتُ الخيلَ جالتْ ... قصدتُ لموقف الملك الهُمام
فأضرب رأسه فَهَوَى صريعاً ... بسيف لا أفَلَّ ولا كَهام
وقد أبْلَى الإلهُ هناك خيراً ... وَفِعْلُ الخير عند الله نَامى

ففى هذا الشعر مسحة دينية ، ولكنها خافتة ضعيفة ؛ إذا لم يوفق الشاعر فى إبراز الجانب الدينى من الجهاد فى سبيل الله إلا فى البيت الأخير ، وبشكل عام ، بينما شغل عن المعانى الدينية ، بوصف المعركة ، والتهيؤ لها ، وبالحديث عن رحلته من صنعاء إلى القادسية ، والفخر بشجاعته وبطولته .

---

(١) فتوح البلدان (البلاذرى) ٣٣/٢ . تردى : تضرب الأرض بحوافرها لقوتها وسرعتها . الدوابر : العراقيب . دوامى : ملطخة بالدماء : والمرازبة : رؤساء الفرس : أفل : متثلم . كهام : لاغناء فيه ، وأصله : السحاب الذى لا مطر فيه .

والواقع أن شعر الحماسة فى الفتوح الإسلامية ، تقل فيه الآثار الدينية ، والملامح الإسلامية ، فنحن نقرأ فى هذا الشعر باحثين عن هذه الآثار والملامح فلا تكاد نصيبها إلا الحين بعد الحين ، وإنما أكثرُ هَمِّ الشاعر أن يتغنى بشجاعته ، وصدق لقائه ، ولا يكاد يصرح بفكرة الجهاد الدينى إلا قليلا ، مع أن هذه الفكرة كانت بارزة عند شعراء الرسول فى العهد النبوى ، فى شعرهم الذى يتحدث عن الغزوات خاصة ، نلمسها فى شعر حسان وصاحبيه ، كعب وابن رواحة (١) .

على هذا النحو كان أكثر شعر الفتوح ، فاللمسات الدينية فيه ضعيفة – إلى حد ما – مع كون هذه الحروب جهاداً فى سبيل الله ونشر دينه ، وقد حث الإسلام عليها ، وجعل الجنة جزاء لشهدائها ، فالشعراء لا يعرجون على هذه المعانى الدينية إلا فى ذكر عارض ، يتناثر خلال شعرهم فى المعارك الإسلامية لهذا العهد .

ولست أرى تعليلا معقولا لضعف فكرة الجهاد فى شعر الفتوح ، إلا أن يكون اندفاع المسلمين إلى الفتح تحت تأثير هذه الفكرة – كما قدمنا – قد أغناهم عن التصريح بها فى أشعارهم .

ومع ذلك فقد استطاع بعض شعراء الفتوح أن يصور فى وضوح إيمانه بقضية الجهاد ، فاكتسى شعره صبغة إسلامية بارزة .

من ذلك قول عروة بن زيد الخيل الطائى ، فى معركة (نهاوند) (٢) :

---

(١) انظر مثلا : ديوان كعب ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٤ وديوان حسان ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٧٩ – ١٨١

(٢) الأخبار الطوال (أبو حنيفة الدينورى) ١٣٨ (طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومى – القاهرة ١٩٦٠ م) .

ألا طرقت رحلى وقد نام صحبتى ... بإيوان شيرين المزخرف خِلَّتى
ولو شهدت يومَىْ جَلولاء حربنا ... ويوم نَهاوَنْد المهول استهلت
إذن لرأتْ ضرب امرىء غير خامل ... مجد بطعن أروع مصلت
ولما دَعوْا ياعروة بن مُهلهْل ... ضربتُ جموعَ الفرس حتى تولَّت
دفعتُ عليهم رجلتى وفوارسى ... وجردتُ سيفى فيهمُ ثم آلتى
وكم من عدوٍّ أشْوسَ متمرد ... عليه بخيلى فى الهياج أظلت
وكم كُربة فرَّجتُها وكريهة ... شددتُ لها أزْرى إلى أنْ تجَلَّت
وقد أضحتِ الدنيا لدىَّ ذميمة ... وسَلَّيتُ عنها النفسَ حتى تسلَّت
وأصبح هَمِّى فى الجِهاد ونيّتى ... فللّه نفسى أدبرتْ وتولَّت
فلا ثروة الدنيا نريدُ اكتسابها ... ألا إنها عن وَفْرِها قد تجلت

ففكرة الجهاد الدينى هى النغمة البارزة فى هذا الشعر ، حيث يفخر الشاعر بتفريج كرب المجاهدين فى هذه الحرب ، وكشف الأهوال عنهم ، ويعلن فى صدق وصراحة ووضوح أنه ارتضى الجهاد سبيلا ، دون أن تكون له رغبة فى زينة الدنيا وزخرفها ، فقد باع كل شىء فيها بثواب الله ، برغم ما تدفعه الدنيا إليه وإلى غيره من كنوز ، فلا يغريهم كل هذا ؛ لأنهم خرجوا فى سبيل الله وحده .

كذلك ألم شاعر آخر بفكرة الجهاد ، فهناك أبيات قليلة عن القادسية ، تصور بلاء الشاعر وقومه فيها ، وتشيد بأحد القواد الذى اندفع عقب القادسية لغزو قرى السواد وفارس ، فى حماس رائع ، ولا هم له إلا الجهاد وطاعة الرحمن [1] :

والقادسية حين زَاحِم رستمٌ ... كنا الحماةَ بهنّ كالأشْطان
الضاربين بكل أبيضَ مِخْذَمٍ ... والطاعنين مَجَامِعَ الأضْغان

(١) ذيل الأمالى والنوادر للقالى ١/١٤٥ (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٦ م) .

ومضى ربيعٌ بالجنود مشرِّقا   ينوى الجهادَ وطاعةَ الرحمن
حتى استباحَ قُرى السَّواد وفارس   والسّهل والأجبال من مُكرَانِ

وهذا أوس بن بجير الطائى يرى فى جهاد المسلمين سوط عذاب ، سلطه الله على رقاب أعداء دينه ، فيقول (١) :

ليت أبا بكرٍ يرى من سيوفنا   وما نجتلى من أذرُع ورقابِ
ألَمْ تر أن الله لا ربَّ غيره   يَصُبُّ على الكفار سوطَ عَذابِ

والشاعر ينظر فى البيت الثانى إلى قوله تعالى : ﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾ (٢) .

ولئن كان الطابع الغالب على شعر الحماسة فى الفتوح الإسلامية ، هو الفخر والمدح ، فإن هذين الفنين يختلفان فى هذا الشعر عنهما فى الجاهلية .

إذ كان أساسهما عند الجاهليين الإشادة – غالبا – بالانتماء القبلى ، والخصائص القبلية ، وما تتمثل فيها من عصبية الدم والنسب ، أما هنا فالأساس هو الوجدان الجماعى لجماعة المسلمين ، والانطلاق من فكرة الجهاد فى سبيل نصرة الدين لا نصرة القبيلة والانتقام لها ، حتى ولو لم يصرح الشاعر بالباعث الدينى فى شعره .

ولما كانت هذه الفتوح قد انتزعت المسلمين المجاهدين من أوطانهم ، وباعدت بينهم وبين ذويهم ، وأحبابهم ، فإننا نجد شعرا غير قليل يعبر فيه بعض الشعراء المجاهدين عن حنينهم للأوطان والأهل ، فيتشوقون إلى مرابعهم الأولى ، ويحنون إلى أهلهم الذين فارقوهم ، ويشكون البعد والاغتراب .

---

(١) الإصابة ١/١١٧

(٢) سورة الفجر : ١٣

فهذا شاعر يستبد به الحنين إلى ديار الأهل والأحبة فى نجد ، فيتجه بنظره ناحيتها ، ومع أنه لا يرى شيئاً ، فإنه يتخيلها بعين الحنين ، يتخيل خيامها ، ومرابعها وترابها ، وزهورها ، ثم تجرى عبراته غزيرة على خديه ، وهو على هذه الحال كل يوم ، لا يستريح قلبه ، فإما مجاهد فى غزاة ، أو ناء يتذكر [١] :

أكرر طَرْفى نحو نجدٍ وإننى ... برغمىَ وإن لم يُدْرِك الطرفُ أنظر
حنيناً إلى أرض كأن ترابها ... إذا أمطرتْ عودٌ ومسكٌ وعنبرٌ
بلادٌ كأن الأقحوانَ بروضِه ... ونوْر الأقاحى وشْىُ بُرْدٍ مُحبَّر
أحنُّ إلى أرض الحجاز وحاجتى ... خيام بنجد دونها الطرْفُ يقصُر
وما نظرى من نحو نجدٍ بنافع ... أجلْ لا ولكنى إلى ذاك أنظُر
أفى كلِّ يوم نظرة ثم عَبْرَة ... لعينك مجرى مائها يَتحدّرُ ؟!
متى يستريحُ القلب إمَّا مجاوز ... بحرب وإما نازح يتذكرُ ؟!

ويتذكر شاعر آخر صاحبته بنجد ، فتهيج الذكرى دموعه ، وجداً على نجد ومن بنجد ، ويتنسم برد رياح دياره ، وطيب مناخها ، ضائقاً بغربته بين أناس ليسوا من قومه ، ولا من عشيرته ، ولا من لسانه ، فيقول [٢] :

أتبكى على نجد وريًّا ولن ترى ... بعينيك ريًّا ما حييتَ ولا نجدا
ولا مشرفا ما عشت أقفار وجرة ... ولا واطئا من تربهنَّ ثرى جعدا
ولا واجدا ريح الخُزامى تسوقها ... رياحُ الصبًّا تعلو دكادِك أو وهدا
تبدلت من ريًّا وجارات بيتها ... قرى نبطيات يسميننى مَرْدا
ألا أيها البرق الذى بات يرتقى ... ويجلو دُجى الظلماء ذكرتنى نجدا

---

(١) معجم البلدان ٤/٤٤٧
(٢) المرجع السابق ٤/٩٠٦

وهناك العديد من نماذج هذا الحنين فى شعر الفتوح الإسلامية ، وهو على هذه الصورة باب رائع من أبواب الشعر الإسلامى ، ذلك أنه يلتف فى نطاق وجدانى رقيق ، تنسكب فيه أعمق المشاعر العاطفية فى تدفق وحرارة وصدق .

ثم هو ضرب من الشعر راج وازدهر ، فى ظل حياة الفاتحين فى بيئات جديدة عليهم ، بعيدة عن أوطانهم ، ونظيره بكاء الأطلال الذى ذاع وازدهر فى العصر الجاهلى ، وإن امتاز الحنين هنا ، بجيشان العاطفة وتدفقها وحرارتها فى كل نماذجه .

وعلى الرغم من قلة التفات شعراء الفتوح إلى وصف طبيعة المناطق البعيدة التى كانوا يشاهدونها لأول مرة ، وهى مناطق تختلف فى وجوهها وطبيعتها ، ومظاهر حياتها ، اختلافاً بينا عما عهدوا فى ديارهم بالجزيرة العربية ، نقول ، على الرغم من ذلك ، فإننا نصادف نماذج قليلة ، ألم فيها الشعراء إلماما سريعاً مقتضبا ، ببعض مظاهر الطبيعة ، أو الحياة فى هذه البيئات .

يقول زياد بن حنظلة عن سقوط الشام فى يد القائد المسلم ، مصوراً من خلال ذلك خصب هذه البلاد ، وكثرة خيراتها (١) :

وألقَت إليه الشامُ أفلاذَ بطنها ... وعيشاً خصيباً ما تُعد مآكله
أباحَ لنا ما بين شرقٍ ومغرب ... مواريث أعقابٍ بنتها قَرامله
وكم مثقَل لم يَضطلع باحتماله ... تحملَ عِبئا حينَ شالتْ شوائِله

أما نافع بن الأسود بن قطبة التميمى ، فيعجبه ريف الرَّىّ ، وطيب عيشه ، ومباهجه (٢) :

---

(١) تاريخ الطبرى ٤/٢٣٠

(٢) معجم البلدان ٢/٨٩٥

رضينا بريف الري والري بلدةٌ ... لها زينة من عَيْشِها المُتوَاتِر
لها نَشْرٌ فى كلِّ آخر ليلةٍ ... تذكِّر أعراسَ الملوكِ الأكابر

ويضيق أحد الشعراء الفاتحين بجو (مرو) الشديد البرودة ، وكثرة الثلوج المتساقطة ، ويعجب لتنكرر الأرض التى تتابع ثلجها ، ويشفق على أهلها الذين يقضون الشتاء مقرورين ، فهم يحتمون دائماً بأثواب غليظة ، يدسون أيديهم فيها التماسا للدفء ، فيبدون على هذه الهيئة وكأنهم أسرى [1] :

وأرى بِمَرو الشاهجان تَنكّرتْ ... أرْض تَتابعَ ثلجُها المذْرُورُ
إذْ لا ترى ذا برة مشهورة ... إلا تخالُ كأنه مَقْرُور
كلتا يديْه لا تزايِلُ ثوبَه ... كلَّ الشتاء كأنَّه مأسُورُ

ومن شعراء الفتوح من لفتت نظره كنائس الروم وبيعهم بالشام وفلسطين ومصر ، وما فيها من صور وزخارف ونقوش بديعة ، فأشاروا إشارات عابرة إلى هذه المشاهدات فى أشعارهم .

من هؤلاء حارثة بن النمر ، الذى شهد (اليرموك) ورأى بعض كنائس الروم فى الشام فقال [2] :

لله باليرموكِ قومٌ طَحْطَحوا ... أحسابَ عاتِى الرومِ بالأقدَام
فتعطّلتْ منهم كنائس زُخرِفتْ ... بالشام ذات فسافس ورُخام

وكان جديراً بهؤلاء الشعراء أن يتأثروا بالمشاهد الجديدة فى البلاد المفتوحة ، تأثراً يفتح عيونهم على مدى غرابتها عما ألفوه فى ديارهم ، ويحرك شاعريتهم ، فيصفونها ، ويكثرون من هذا الوصف .

---

(١) معجم البلدان ٤/٥١٠

(٢) الإصابة ٢/٥٦

ومن الغريب حقاً أن شعر الفتوح لم يتخلف عن تسجيل أحداثها ، ووصف معاركها ، وانتصارات المسلمين فيها ... فكان مرآة عكست كل ما يتصل بهذه الفتوح إلا طبيعة البلاد المفتوحة وحياتها ، فى هذه المرحلة المبكرة من حياة المسلمين فيها !!

وقبل أن ننهى هذه الدراسة الموجزة لحياة الشعر فى ظل الفتوح الإسلامية ، نعرج على فن هام من فنون الشعر ، أصاب بعض التطور تحت تأثير أحداث هذه الفتوح ، ونعنى به فن الرثاء .

والرثاء فن شعرى قديم صاحب الحروب منذ أن عرف شعر للسان العربى فيها ، فما دام هناك حروب ، هناك صرعى فى ميادينها ، وضحايا لآلاتها ، وهناك تبعاً لذلك شعر يرثى هؤلاء الضحايا ، ويشيعهم إلى أجداثهم ، بعد أن يسبغ عليهم من التكريم ما استحقوه ؛ لتضحيتهم بالحياة ، أعز نعمة وهبها الإنسان .

إذن ، كان للحروب الإسلامية فى البلاد المفتوحة ضحايا عديدين ، هم شهداء هذا الجهاد المقدس فى سبيل الإسلام ، ولم يقصر الشعر فى حق هؤلاء الشهداء فبكاهم ، ومجد بطولاتهم ، وأشاد بمواقفهم ، وعبر عن الأسى والحزن لفقدهم .

وهذا الرثاء الذى صاحب الفتوح يجرى مع الرثاء الإسلامى ، الذى عرفناه فى العهد النبوى مواكباً للصراع بين مكة والمدينة فى فلك واحد ، فكلاهما يعرب عن حزن صابر محتسب ، مؤمن بقضاء الله وقدره ، ممتثل لإرادته ، واثق بما وعد الله الشهداء من عظيم المنزلة والأجر ؛ ولذا لا نرى فيه الجزع الواله الذى نراه فى الرثاء الجاهلى ، وما هو امتداد له من رثاء القرشيين قتلاهم فى العهد النبوى ؛ لثقة المسلمين بأن قتلاهم شهداء ، يحشرون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والصالحين ،

وحسن أولئك رفيقاً ، ومن هنا قالت الخنساء بعد إسلامها : « كنت أبكى لصخر من القتل فأنا أبكى له اليوم من النار » [(١)] .

فمن الرثاء الذى تتجلى فيه الروح الإسلامية التى أشرنا إليها قول الشاعر ، يرثى شهداء المسلمين فى القادسية ، الذين دفنوا إلى جنب مشرق [(٢)] :

جزَى اللهُ أقواماً بجنبِ مشرّق ... غداةَ دعا الرحمنُ مَنْ كان داعيا

جِناناً من الفِرْدَوسِ والمنزل الذى ... يحُلُّ به الخيرُ مَنْ كان باقيا

كما نلمح التأثير القرآنى فى بعض ما رثى به شهداء الفتوح ، من ذلك قول أبى عامر بن غيلان يرثى ولده الذى خرج غازيا ، ومات فى طاعون عمواس [(٣)] :

عينى تجود بدمعها الهتّانِ ... سَحًّا وتبكى فارسَ الفِرسانِ

لو أستطيعُ جعلتُ منى عامرا ... تحتَ الضلوع وكل حى فانى

فهو ينظم فى البيت الثانى قوله تعالى : ﴿ كل من عليها فان ﴾ [(٤)] .

وليس من الضرورى أن يصرح الشاعر فى الرثاء بالتسليم لقضاء الله ، واحتساب الشهيد عند الله ، فقد لا نجد هذه المعانى منصوصاً عليها فيما يقول الشاعر ، ومع ذلك نحس بالروح الإسلامية تسرى فى هذا الرثاء :

ولعل من أروع ما يصور هذا الاتجاه ، قول أبى ذوؤيب الهذلى يرثى بنيه الخمس الذين اشتركوا فى فتوح مصر ، ثم ماتوا فى طاعون انتشر بها [(٥)] :

---

(١) الشعر والشعراء ٢٠٠

(٢) معجم البلدان ٥٣٩/٤

(٣) الإصابة ١٤/٣

(٤) سورة الرحمن : ٢٦

(٥) ديوان الهذليين ١/٤ - ١٠ (مطبعة المدنى - القاهرة ١٩٦٥ م) .

أمِنَ المنون وريْبِهِ تتوجع   والدهر ليس بمعقب من يجزع
أودَى بَنِىَّ وأعقبونِى حسرةً   بعد الرُّقاد وعَبْرَةً لا تقلع
فغَبَرْتُ بعدَهم بعيشٍ ناصبٍ   وإِخَالُ أنِّى لاحقٌ مستتبعُ
ولقد حرَصْتُ بأن أدافع عنهم   فإذا المنيةُ أقبلتْ لا تُدفعُ
وإذا المنيةُ أنشبَتْ أظفارَها   ألفيتَ كلَّ تَميمةٍ لا تنفع
ولقد أرى أن البكاءَ سفاهةً   ولسوفَ يُولع بالبكا مَنْ يُفجعُ
وليأتِيَنَّ عليكَ يوم مَرّة   يُبكى عليك مُقَنَّعاً لا تسمع

فهذا رثاء صابر مستسلم للقضاء ، والشاعر فيه على يقين من عدم جدوى الجزع ، فالقضاء إذا حم لا يدفع ، ولم الجزع وهو صائر إلى المصير نفسه ؟ نعم ، إنه يبكى فقد بنيه ، ويستشعر الحسرة عليهم ، كلما انفرد بنفسه فى سكون الليل ، وويل للمحزون من الليل !! ولكنه حين يتعمق التجزبة يجد أن البكاء فى هذا الموقف سفاهة أيضاً ، ولكن أنى له أن يحبس دموعه ، فسوف يظل المفجوع مولعاً بالبكاء .

هذا وقد ألمحنا من قبل إلى أن هذا الفن قد أصاب تطوراً وتجديداً فى ظل الفتوح الإسلامية ، ويبدو هذا التطور والتجديد فى ظهور لون جديد من الرثاء ، نحسب أن الشعر العربى لم يعرفه من قبل ، فقد راح بعض المجاهدين يرثون أعضاء وأشلاء فقدوها خلال المعارك ، ويبدو من التجلد فى هذا الرثاء ما يثير الإعجاب ، بل قد يفخر بعضهم بهذه الجراحات ، ويستهين بها ؛ لأنها فى سبيل الله ، وهم بذلك يقدمون صوراً طريفة من الرثاء ، من مثل ما نرى فى قول عبد الله بن سبرة الحرشى ، يحتسب يده عند الله ، مشيداً بما فعلته هذه اليد فى سبيل نصرة دينه ، فهى التى أطاحت برأس أرطبون الروم فى مبارزة يوم (فلطاس) [1] :

---

(١) الإصابة ٥/٦٠ . جار : يريد كفه .

ويلُ ام جارٍ غداة الروع فارقني | أهْوِنْ عليَّ به إذْ بانَ فانقطعا
يُمنَى يديّ غدتْ منّي مفارقةً | لم أستطع يوم فِلْطاسٍ لها تَبعا
وما ضننتُ عليها أن أصاحبها | ولقد حَرَصْتُ على أن نستريحَ مَعَا
وقائلٍ غابَ عن شأنى وقائلةٍ | هلاّ اجتنبتَ عدوّ اللهِ إذْ صَرَعا
وكيف أتركه يسعى بِمنصُلِهِ | نحوْى وأعجزُ عنه بَعدَ ما وقعا
ما كان ذلك يوم الرَّوع من خُلُقِي | ولو تقاربَ منى الموت فاكتنعا
يمشى إلى مُسْتمِيت مِثْلِهِ بَطل | حتى إذا أمكنا سَيفيُهما قطعا
وإن يكن أرْطبون الروم قطّعها | فإنّ فيها بِسعْدِ اللهِ مُنْتفَعا
بَنانَتيْنِ وجرْمُوزاً أقيمُ بها | صَدْرَ القناة إذا ما آنسوا فزَعا

فانظر إلى هذا الشاعر يرثى يده بروح هادئة مؤمنة محتسبة ، ويتمنى لو أنه لحق بها ، وفارق الحياة معها ، ويشهد بأنه ما قصر فى سبيل هذه الغاية ، فلقد جاهد مخلصا ، وقاتل غير هياب وحرص على الموت فوهب الحياة ، وأنه لينكر على هؤلاء الذين لاموه على التعرض للفارس الرومى ملامتهم ؛ لأنه شجاع بطل ؛ لا يهاب الأقران ، ثم علام الملام وقد نال من خصمه ما ابتغى ، وتركه مقطع الأوصال ، ولم يفقد إلا يده ! وقد لطف الله به فأبقى له من هذه اليد ما يمكنه من استئناف الجهاد ، وحماية الإسلام والمسلمين عند الفزع .

وبعد ، فهذا قليل من كثير من الأشعار التى دارت حول الفتوح الإسلامية ، أحداثها ، ونتائجها ، ولئن كان لهذا القليل دلالة ، فهى أن هذه الحروب المقدسة لم تقف حائلا بين العرب والشعر ، بل أطلقت ملكاتهم ، وألهبت شاعريتهم ، فجادت بشعر غزير متعدد الاهتمامات والأغراض ، متفاوت الحظ من الملامح الإسلامية ، والنفحات الدينية ، ولكنه فى مجموعه متميز الشخصية ممثل لفترته إلى حد بعيد .

– ٣ –

شعر البادية فى عهد الراشدين :

هذه الألوان من الشعر التى قدمناها لا تمثل كل حصيلة الشعر فى عهد الراشدين ولا ينبغى أن ننظر إليها وحدها فى الحكم على شعر هذه الفترة كله بالضعف أو القوة ، والانكماش أو الازدهار – كما فعل بعض الباحثين الذين أشرنا إليهم من قبل .

فقد كان هناك شعراء بالبادية ، من أعراب نجد ، واليمامة ، والبوادى الضاربة إلى حدود العراق والشام ، وهؤلاء نشأوا فى الجاهلية ، وتطبعوا بطبائع أهلها ، ولم يتأثروا كثيرا بالإسلام ؛ لجفائهم ، وشدة تبديهم ، وغلظ طباعهم ، ثم إنهم لم يتعرضوا كثيرا لإفحام القرآن والانبهار به ، وهؤلاء ظلوا يقولون الشعر فى إسلامهم ، كما كان يقوله أسلافهم فى جاهليتهم ؛ ولذا كان شعرهم قويا متينا كالشعر الجاهلى ، مما جعل بعض من ألفوا فى طبقات الشعراء يسلكهم فى زمرة طبقات شعراء الجاهلية (١) .

من هؤلاء – مثلا – أعشى قيس ، والحطيئة ، ومعن بن أوس ، والنابغة الجعدى ، ومتمم بن نويرة اليربوعى ، وأبو زبيد الطائى ، والمخبل السعدى ، والشماخ بن ضرار الذبيانى وأخواه جَزْء ومُزَرِّد ، والربيع بن علباء السلمى .. وغيرهم من شعراء البادية ، أو من كان متبديا فى شعره ، وإن سكن الحضر .

ومن أجل أشعار هؤلاء وأمثالهم ذهب بعض مؤرخى الأدب ، إلى القول بأن الشعر فى صدر الإسلام ظل مزدهرا كما كان فى الجاهلية ، ومن أشهر من ذهب إلى هذا المستشرق الإيطالى (كارلونالينو) (٢) .

---

(١) من هؤلاء ابن سلام فى طبقاته ، وتابعه من المحدثين جورجى زيدان فى كتابه : تاريخ آداب اللغة العربية .

(٢) انظر كتابه : تاريخ الآداب العربية (ط دار المعارف ١٩٥٤ م) .

لم يخرج شعراء البادية فى معظم أشعارهم عن دائرة الشعر الجاهلى ، فى طريقته ، وخياله ، ونسجه ، وأيضاً فى أغراضه ، حيث ظل شعرهم يحكى آثار النزاع القبلى ، والافتخار بالعصبية ، والمباهاة بالأحساب ، والمجاهرة بشرب الخمر ، كما يعكس صور الأخلاق والعادات والتقاليد الجاهلية .

من ذلك قول الحطيئة يهجو أمه وزوجها (١) :

ولقد رأيتُك فى النساء فسُؤْتِنى ... وأبا بَنيكِ فساءنى فى المجلس

إنّ الذليلَ لمَـــنْ يزورُ ركابُـــه ... رَهْطَ ابن جحْشٍ فى الخطوب الحُوّس

قبحَ الإله قبيلةً لم يمْنعوا ... يومَ المُجيْمرِ جارَهُم من فقعسِ

أبلغْ بنى جحْشٍ بأنّ نِجارَهُم ... لُؤْمٌ وأنَّ أباهم كالهِجرْسَ

فالهجاء بلؤم الأصل ، وضعة النسب ، وقلة الغناء فى الحرب ، وفقد المروءة والقعود عن حماية الجار ، كل ذلك من سمات الهجاء الجاهلى الهامة ، التى جاء الإسلام بإبطال كثير منها ، وطارد الخلفاء الراشدون كثيرا من شعراء البادية المنحرفين إليها .

وقال أيضاً (٢) :

تنحَّىْ فاقْعُدِى مِنِّى بعيدا ... أرَاحَ اللهُ منك العالمينا

ألَمْ أوضح لك البغضاء منِّى ... ولكنْ لا أخالك تعقلينا

جزاك اللهُ شراً من عجوزٍ ... ولقّاك العَقوقَ من البنينا

حياتُك ما علمتُ حياةُ سوء ... وموتُك قد يسرُّ الصالحينا

---

(١) ديوانه ٢٧٣ (بتحقيق نعمان أمين – طبعة الحلبى ١٩٥٨ م) . المجيمر : أرض لبنى فزارة . الهجرس : الثعلب أو القرد . نجارهم : أصلهم .

(٢) الشعر والشعراء ١٨٢

وله هجاء فى أبيه ، يقول فيه (١) :

لَحاكَ اللهُ ثم لحاك حقاً ... أباً لحاك من عَمٍّ وخالِ
فَنِعْمَ الشيخُ أنت لَدَى المخازى ... وبئسَ الشيخُ أنْتَ لدى المعالِى
جمعتَ اللُّؤْمَ لا حيَّاكَ ربى ... وأبْوابَ السفاهةِ والضَّلالِ

وفى هذا الشعر من عقوق الوالدين ما يأباه الإسلام ، ويعاقب عليه .

ويقول الشماخ بن ضرار مفتخرا بانتسابه إلى ذبيان ، منوها بمجدها ، وشدة سطوتها ، منددا بشاعر كان يهاجيه وبقومه ، يدعى الربيع ابن علماء السلمى (٢) :

إنى امرؤ من بنى ذُبْيانَ قد علمُوا ... أحْمِى شريعةَ مجدٍ غيرِ مَوْرودِ
مَعى رُدَيْنِيّ أقوامٍ أذُودُ به ... عن حوْضِهِم وفَريصى غيرُ مرْعودِ
لا تحْسبنِّى وإن كنْت امرءاً غَمِراً ... كحيَّةِ الماء بين الطِّىِّ والشِّيدِ
لوْلا ابنُ عَفانَ والسلطانُ مرْتَقَبٌ ... أورِدْتَ فَجًّا من اللّعباءِ جلمُودِ
فالحَقْ ببجْلة ناسِبْهمْ وكُنْ مَعهُم ... حتى يُعيرُوكَ مَجْداً غَيرَ مَوْطودِ
واترُكْ تُرَاثَ خُفافٍ إنَّهم هَلكوا ... أوِ ائتِ حَيًّا إلى رِعْلٍ ومَطْرُودِ

فالعصبية القبلية تطل برأسها من هذه الأبيات ، ومع أن الشاعر يخشى سلطان الإسلام ، وبطش الخليفة عثمان ، فإن ذلك لم يمنعه من هذا الفخر والهجاء القبليين .

---

(١) الشعر والشعراء ١٨٢

(٢) ديوانه : ١١٩ . وانظر فى أسباب هذا الهجاء كتابنا : الشماخ بن ضرار الذبيانى ١٢٢ . الفريص : لحمة بين الثدى ومرجع الكتف . وهما فريصتان على ناحيتى الجسم . الغمر : الغر الجاهل . حية الماء : لاسم لها ، ولا ضرر منها . الطى : البئر . الشيد : الجص الذى يبنى به جدار البئر . اللعباء : أرض لبنى سليم .

وها هو ذا أبو محجن الثقفى يجاهر فى شعره بذكر الخمر ، وإدمان شربها ، ويصف بعض ما يدور فى مجالسها من غناء ومجون ، مع اعترافه الصريح بأن ذلك حرام محرم فى الإسلام ، وفكره كما يقول هو عن نفسه : « كنت صاحب شراب فى الجاهلية ، وأنا امرؤ شاعر ، يدب الشعر على لسانى ، فينفثه أحيانا » [١] ، أى أنه كان من الصعب على هذا الشاعر الحضرى المتبدى فى شعره ، وأمثاله من شعراء البادية ، أن يدعو ما تعودوا عليه فترة طويلة من حياتهم فى الجاهلية ، فلا بد إذن من مرور فترة من الزمن ، حتى ينقرض أمثال هؤلاء الشعراء ، الذين أوقعهم الإسلام فى حرج بين ما يدعو إليه ، وما تعودوا هم عليه ، وتأصل فى خلقهم وسلوكهم ، وفنهم أيضا .

ومن شعر أبى محجن فى الخمر قوله [٢] :

إنْ كانتِ الخمرُ قدْ عزَّت وقد مُنِعتْ ... وحال من دونها الإسلامُ والحَرَجُ
فقد أباكرها صِرْفاً وأَمْزجُهَا ... رِيًّا وأطرب أحياناً وأمْتـزِجُ
وقد تقومُ على رأسى مُنعَّمةٌ ... فيها إذا رَفعتْ من صوتها غَنجُ

ويقول أيضاً ، مستهترا بشربها ، مستهينا بعذاب النار فى سبيلها ، فهو يشربها صرفا ، زيادة فى الإثم ، وإيغالا فى المعصية [٣] :

ألا فاسْقِنى ياصاحِ خمراً فإننى ... بما أنزل الرحمنُ فى الخمْر عالِمُ
وجُدْ لى بها صِرْفاً لأزداد مأثَماً ... ففى شُربها صِرفاً تتم المآثِمُ
هى النارُ إلا أنّنى نلتُ لذةً ... وقضّيت أوطارى وإن لَامَ لَائِمُ

---

(١) الأغانى ١٤٠/٢١

(٢) المرجع السابق ١٤١/٢١

(٣) ديوانه ١٥

ولما أحرق الخليفة عمر بن الخطاب حانات الطائف تحسر أبو محجن ، وبكاها بقوله [١] :

رمَاها أميرُ المؤمنين بِحتْفها فخِلاَّنُها يبْكُونَ حوْلَ المعَاصِر

وهو القائل مبالغا فى التعبير عن إدمانه الخمر [٢] :

إذا مِتُّ فادْفِنِّى إلى جَنْبِ كرْمَة تُرَوِّى عِظامى بعد موتى عُرُوقُها
ولا تدْفِننِّى بالفلاة فإننى أخافُ إذا ماَمتُّ ألَّا أذُوقها

ولا ننسى فى هذا المقام شاعرا إسلاميا آخر ، عاقر الخمر ، وذكرها فى شعره ونادم عليها أمير الكوفة (فى عهد عثمان) الوليد بن عقبة ، ذلكم هو الشاعر أبو زبيد الطائى [٣] .

ومع ذلك فقد تأثر شعر البادية بالإسلام ، من حيث الكم لا الكيف ؛ إذ لم يكن شعراؤه ممتعين بالحرية نفسها التى كان يتمتع بها شعراء الجاهلية ، فى تناول أغراض الشعر الجاهلى ، فقد ضيق عليهم بعض وجوه القول ما كانوا يجدون من الخلفاء الراشدين من التهديد والوعيد والعقاب ، كنعت الخمر ، والإقذاع فى الهجو ، والفحش فى القول ، والكذب فى المديح ، والتفاخر بالأحساب والأنساب .. ونحوها ، ومن تمادى منهم فى تجاهل سلطان الإسلام تعرض للعقاب الصارم .

فأبو محجن الثقفى لما استهتر بشرب الخمر ، والحديث عنها فى شعره كما رأينا ، أقام عليه عمر بن الخطاب الحد مرارا ، ولما لم يرتدع نفاه ، فهرب

---

(١) ديوانه ١٥

(٢) ديوانه ١ ، والأغانى ١٤٢/٢١

(٣) انظر شعراء النصرانية بعد الإسلام (لويس شيخو) ٧٥ ، ٧٦ الطبعة الثانية بيروت ١٩٦٧ م) .

ولحق بسعد بن أبي وقاص بالقادسية ، فحبسه سعد فى قصره [(١)] ، وقد تاب عن شربها منذ ذلك الحين توبة نصوحا ، وقال فى ذلك [(٢)] :

أتوب إلى الله الرحيم فإنه غفورٌ لذنبِ المرءِ مالَمْ يُعاوِدِ
ولستُ إلى الصهباء يوماً بعائدٍ ولا تابعٍ قولَ السفيه المُعانِدِ

أما الحطيئة فقد حبسه عمر بن الخطاب ، وهدده بقطع لسانه ، لما هجا الزبرقان بن بدر وقومه ، وذلك فى قصيدته ، التى يقول فيها [(٣)] :

لقد مَرَيْتُكُمُ لوْ أنَّ دِرّتكم يوماً يجيء بها مَسْحِي وإبْساسِي
وقد مدحتكُمُ عَمْداً لِأرْشُدَكم كَيْما يكون لكم مَتْحِي وإمْرَاسِي
حتى إذا ما بَدَا لِي عَيْبُ أنفسكم ولم يكنْ لجراحي فيكم آسِي
أزْمَعْتُ يأساً مُبيناً من نَوالِكُمُ ولنْ تَرَى طارداً للحُرِّ كالياسِ
جارٌ لقومٍ أطالُوا هوْنَ منزلِهِ وغادَرُوه مُقيماً بين أرماسِ
مَلُّوا قِرَاه وهرَّته كلابُهم وجَرحُوه بأنيابٍ وأضْرَاسِ

ثم يقول مخاطباً الزبرقان :

دعِ المكارمَ لا ترْحَلْ لِبُغيتِها واقْعُدْ فإنَّك أنت الطَّاعمُ الكاسى

فشكاه الزبرقان إلى عمر ، فقال عمر : ما أسمع هجاء ، ولكنها معاتبة ، فقال الزبرقان : أو ما تبلغ مروءتى إلا أن آكل وألبس ؟ فقال عمر : على بحسان ابن ثابت ، فجيء به فسأله ، فقال : لم يهجه ولكن سلح عليه [(٤)] ،

---

(١) انظر الأغانى ١٣٨/٢١ ، ونهاية الأرب للنويرى ٨٨/٤

(٢) ديوانه ١٢

(٣) ديوانه ٢٨٣ ، والأغانى ٥٢/٢ . المرى : مسح الضرع للحلب ، الدرة : اللبن . الإبساس : تسكين الناقة عند الحلب . الإمراس : أن يقع الحبل فى جانب البكرة التى على البئر فيخرجه . المتح . إخراج الماء من البئر . الأرماس : جمع رمس ، وهو القبر . هرته الكلاب : جرحته ، والمراد أنهم آذوه وأساءوا ضيافته .

(٤) الأغانى ٥٣/٢ والشعر والشعراء ١٨٦

فحبسه عمر ، ثم استعطفه الحطيئة بأبيات مؤثرة يقول فيها [١] :

ماذا تقولُ لأفراخٍ بذى مَرَخٍ | زُغْبِ الحَواصِلِ لا ماءٌ ولا شجرُ
ألقيتَ كاسِبَهمْ فى قَعْرِ مُظْلِمةٍ | فاغْفِرْ عليك سلامُ اللهِ ياعمرُ
أنتَ الإمام الذى من بعد صاحبِه | أَلْقَى إليك مقاليد النُّهى البَشَرُ
فامْنُنْ عَلي صِبيَةٍ بالرَّمْلِ مسكنهم | بين الأباطح تَغْشاهُم بها القِرَرُ

فأخرجه من الحبس ، وقال له : إياك وهجاء الناس ، قال : إذن يموت عيالى جوعا ، فهذا مكسبى ، ومنه معاشى ، قال : فإياك والمقذع من القول ، قال : وما المقذع ؟ قال : أن تخاير بين الناس ، فتقول فلان خير من فلان ، وآل فلان خير من آل فلان ، قال : فأنت والله أهجى منى ، ثم قال (يعنى عمر) : والله لولا أن تكون سنة لقطعت لسانك ، ويقال إن عمر اشترى منه أعراض المسلمين جميعاً بثلاثة آلاف درهم ، فقال الحطيئة [٢] :

ومَنَعْتَنِى شَتْمَ البخيل فلم يَخَفْ | شَتْمِى فأصبحَ آمناً لا يفزعُ
وأخذتَ أطرارَ الكلام فلم تدعْ | شتْماً يَضرُّ ولا مديحاً ينفعُ

وروى ابن رشيق قال [٣] : كان بنو العجلان يفخرون بهذا الاسم لقصة كانت لصاحبه فى تعجيل قرى الأضياف ، إلى أن هجاهم به النجاشى (أحد بنى الحارث بن كعب) فضجروا منه ، واستعدوا عمر بن الخطاب عليه ، وقالوا : هجانا ، فقال عمر : وما قال ؟ فأنشدوه :

إذا اللهُ عادَى أهـلَ لُؤمٍ ورقـةٍ | فعادَى بنى العَجْلانِ رَهط ابنِ مُقبلِ

---

(١) ديوانه ٢٠٨ ، ٢١٠ ، والأغانى ٥٢/٢ - ٥٤ ذو مرخ : واد قرب فدك . القرر : جمع قره وهى البرد .

(٢) الأغانى ٥٣/٢ - ٥٤ وديوانه ٢١٠ . أطرار الكلام : نواحيه جمع طرة .

(٣) العمدة ٢٧/١ ، ٢٨

فقال عمر : إنما دعا عليكم ، ولعله لا يجاب ؛ فقالوا : إنه قال :

قبيلة لا يغدرون بِذِمَّةٍ ولا يَظْلمونَ الناسَ حبةَ خَردلِ

فقال عمر : ليتنى من هؤلاء ، أو قال : ليت آل الخطاب كذلك ، قالوا : فإنه قال :

ولا يَرِدُون الماءَ إلا عشيةً إذا صدَرَ الوُرَّادُ عن كلِّ مَنْهَل

فقال عمر : ذلك أقل للسكاك ، يعنى الزحام ، قالوا : فإنه قال :

تَعافُ الكلابُ الضارياتُ لحُومَهم وتأكُلُ مِنْ كعبِ بن عوفٍ ونهشلِ

فقال عمر : كفى ضياعا من تأكل الكلاب لحمه ، قالوا :

وما سُمِّـى العَجْـلانُ إلا لقـولهم خُذِ القعبَ واحلبْ أيُّها العبدُ واعْجلِ

فقال عمر ؛ كلنا عبد ، وخير القوم خادمهم ، فقالوا : يا أمير المؤمنين هجانا ، فقال : ما أسمع ذلك ، فقالوا : فاسأل حسان بن ثابت ؛ فسأله فقال : ما هجاهم ولكن سلح عليهم ، وكان عمر أبصر الناس بما قال النجاشى ولكن أراد أن يدرأ الحد بالشبهات ؛ فسجن عمر النجاشى ؛ وقيل : أنه حده .

فعمر إنما أراد من وراء مناهضة هذا الشعر وأمثاله ، أن يتطور هذا الفن ، فيرتفع إلى مستوى أحداث عصره ، وأهداف مجتمعه ، ولقد كانت أمة العرب المسلمة أحوج ما تكون فى هذا العصر إلى الألفة والترابط ، للنهوض بواجبها المقدس فى نشر ألوية الإسلام خارج حدود جزيرتها ؛ هذا فضلا عن أن عمر كان « يحرص على خلق الأمة ، والتزامها بمكارم أخلاقها ، واتباع الحكمة فى بليغ القول » [1] .

---

(١) الإسلام والشعر (جبورى ٩٣) .

وبمثل هذا الأخذ الشديد ؛ كان عثمان بن عفان يسير مع أمثال هذين الشاعرين (الحطيئة والنجاشي) فحبس ضابىء بن الحارث البرجمى ؛ لأنه هجا بنى نهشل هجاء فاحشاً ، لما طالبوه بكلب كان لهم عنده يدعى (قرحان) استعاره منهم للصيد ثم حبسه عنهم ، عاما ، قال ضابىء [١] :

تجشَّم دونى وفدُ قرحانَ شُقّةً تظلُّ بها الوجناءُ وهى تَسيرُ
فأردفتُهم كلباً فراحوا كأنّما حباهُمْ بتاج الهرمُزان أميرُ
فيا راكباً إمّا عرضتَ فبلِّغنْ ثُمامَةُ عَنِّى والأمورُ تدور
فأمُّكُمُ لا تتركوها وكلبكم فإن عقوق الوالدات كبيرُ
فإنك كلبٌ قد ضريتَ بما ترى سميعٌ بما فوق الفِراش خبيرُ

وقال عثمان لما سمع هذا الهجاء : « والله لو أن رسول الله ﷺ حى لأحسبنه نزل فيك قرآن ، وما رأيت أحداً رمى قوماً بكلب قبلك » .

وقد استمر ضابىء فى حبس عثمان إلى أن مات .

كذلك هدد عثمان الشماخ بن ضرار لما عرف به من تناول أعراض الناس فى هجائه ، من مثل قوله مخاطبا امرأة من بنى سليم ، تدعى (أسماء) كان قد تزوجها فأساءت إليه [٢] :

وإنّك مِنْ قومٍ تحِنُّ نِساؤُهم إلى الجانِبَ الأقْصَى حنينَ المَنَائِح

وهذا من التعريض المؤلم بسلب العفة عن نساء بنى سليم ، حيث إنهن دائمات الحنين إلى الغرباء ، ولا يقنعن بأزواجهن .

ولم يكف الشماخ عن مثل هذا الهجاء إلا بعد أن أغلظ له عثمان

---

(١) الشعر والشعراء ٢٠٢ - ٢٠٣

(٢) ديوانه ١٠٨ ، الجانب الأقصى : يريد الرجل الغريب ، أى غير الزوج . المنائح : جمع منيحة ، وهى الناقة التى أعيرت للانتفاع بلبنها .

فى القول ، وتوعده فترك الهجاء ، واكتفى بتهديد أعدائه به ، فهو يقول لأحدهم وهو من بنى سليم أيضاً (١) :

لولا ابنُ عفانَ والسلطان مرتقب أُوردت فجًا من اللَّعْباء جلمُودِ

يعنى أنه لا يمنعه من هجائه هجاء ممضا جارحاً إلا خوفه من سلطان الإسلام ، ممثلا فى الخليفة عثمان .

وإذن ، فشعر البادية فى عهد الراشدين شعر جاهلى ، يعكس ما فى الشعر الجاهلى من خصائص ومقومات وصفات ، وتكثر فيه القصائد الطوال ، على خلاف مارأينا فى الشعر الإسلامى للفتوح مثلا ، إذ أكثره مقطوعات قصيرة ، أو أبيات قليلة ، ثم هو شعر خصب قوى جزل العبارة والأسلوب ، ويمثل فى أكثره عواطف القبيلة ، ويتغنى بأمجادها ، ويعدد أحسابها ، كما كان وصفا أمينا للبيئة التى ترعرع فيها وازدهر .

نخلص من هذا إلى أن شعر البادية فى عهد الراشدين ظل ممتعا بحظ غير قليل من الازدهار ، وأكثر ما كان للإسلام فيه ، إنما كان من جهة كمه ، لا كيفه ، كما بينا .

ملامح إسلامية فى شعر البادية :

رأينا كيف وقف الإسلام موقفاً عدائيا من شعر البادية ، الذى ظل سادرا فى تياره الجاهلى ، وأن هذا العداء قد حد من نشاط بعض شعراء البادية خوفا من بطش ولاة الأمور فى الدولة الإسلامية ، ولكنهم مع ذلك لم يتوقفوا عن قول الشعر المعبر عن مثل جاهلية اعتادوا تصويرها ، والتحدث عنها ، فجاء شعرهم صورة تعكس قوة هذا الفن فى العصر الجاهلى ومتانته ، وقوالبه التى مرنت الشاعرية العربية عليها دهرا طويلا .

---

(١) ديوانه ١٢٢ . جلمود : أى ذو صخور ، وهذا كناية عن الهجاء .

وليس معنى تنكب شعراء البادية جادة الإسلام فى أشعارهم ، أن كل هذه الأشعار قد خلت تماما من كل أثر للإسلام ، وبخاصة فى ألفاظها ومعانيها ، فإننا نلمح شيئاً يسيرا من تأثير الإسلام بعامة ، والقرآن بخاصة ، فى ثنايا هذه الأشعار .

وبين أيدينا طائفة من نماذج أشعار البادية ، التى تتضح فيها بعض مظاهر هذا الأثر ، فى الأغراض والمعانى والألفاظ :

قال كعب بن زهير (١) :

لو كنتُ أعجبُ من شيء لأعجبنى   سعىُ الفَتَى وهُوَ مخبوءٌ له القدرُ
يسعى الفتى لأمور ليس يُدركها   والنفسُ واحدةٌ والهمُّ منتشرُ
والمرءُ ما عاشَ ممدودٌ له أمَلٌ   لا ينتهى العينُ حتى ينتهى الأثرُ

فهو يصور قضية القضاء والقدر ، وتسلطهما على مقادير الناس ، وحظوظهم فى الحياة ، وهذا موضوع أكده الإسلام ، وتحدث عنه القرآن .

وقال كعب أيضاً (٢) :

فأقسمتُ بالرحمن لا شيء غيره   يمينُ امرىءٍ بَرٍّ ولا أتحلَّل
لأستشعرنْ أعلى دَرِيسَىَّ مسلما   لوجهِ الذى يُحيِى الأنام ويقتُل
هو الحافظُ الوسْنانَ بالليل مَيِّتاً   على أنه حَىٌّ من النوم مثقل
من الأسْوَدِ السَّارى وإن كان ثائِراً   على حَدِّ نابَيْه السِّمام المُثَمَّل

---

(١) ديوانه ٢٢٩ (طبعة دار الكتب المصرية . ١٩٥ م) .

(٢) ديوانه ٥٦ – ٥٧ . دريسى : تثنية دريس : وهو الثواب الخلق ، يريد : لألبسن ثوبى على الإسلام . الأسود : الحية . ثائراً : طالب ثأر ، يريد : وهو هنا غير طالب ثأر ، بل ظالم لا يبالى من أصاب .

فالشاعر يقسم بالرحمن ، وهو قسم إسلامى خالص لم يعرفه العرب فى الجاهلية ، ويصف الله سبحانه بأنه يحيى ويميت ، وهذا معنى قرآنى ، ولو لم يعبر الشاعر بلفظه (يقتل) التى اضطرته إليها القافية لكانت العبارة قرآنية أيضا ، وفى القرآن ﴿ وهو الذى يحفظكم بالليل ﴾ وقد تحدث كعب عن هذا المعنى فى البيت الثالث .

ومن شعر كعب الذى يتحدث بمعان وألفاظ إسلامية [1] :

رحلتُ إلى قومى لأدعوَ جُلَّهم ... إلى أمرِ حزمٍ أحكمتْه الجوامعُ
لِيُوفوا بما كانوا عليه تعاقدُوا ... بخيْفَ مِنًى والله راءٍ وسامعُ
سأدعوهُم جهدى إلى البر والتقى ... وأمرِ العُلَا ما شايَعَتْنى الأصابع
فكونُوا جميعاً ما استطعتم فإنه ... سيُلبسكم ثوب من الله واسعُ

فكعب هنا فضلا عن كونه يقيم من نفسه داعية إلى قومه للتمسك بالإسلام ، وفاء بما بايعوا عليه الرسول بمنى ، فإنه يذكر بعض صفات الله التى أوردها القرآن (الله راء وسامع) كما يتحدث عن البر والتقوى ، وهى معان وألفاظ إسلامية قرآنية .

وقبل أن يسلم كعب بن زهير ، سبقه أخوه بجير إلى الإسلام ، ودعاه إليه فى قوله [2] :

مَنْ مُبْلِغٌ كعباً فهل لك فى التى ... تلومُ عليها باطلاً وهْىَ أحْزَمُ
إلى الله لا العُزّى ولا اللّات وحده ... فتنجو إذا كان النّجاء وتسلمُ
لدى يوم لا ينجو وليس بمفلتٍ ... من النار إلا طاهر القلب مسلم

فهذه دعوة إلى عقيدة التوحيد ، التى تنجى من عذاب يوم القيامة ،

---

(١) ديوانه ١١٢ . الجوامع : الأمور ، وجوامع الأمور : وثائقها .

(٢) ديوان كعب ٤ والسيرة ق ٢/٢ ٥٠

الذى أعده الله للكافرين ، والشاعر ينظر فى البيت الثانى إلى قوله تعالى : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ (١) .

ويقول أبو ذؤيب الهذلى (٢) :

أبا عَبيد رُفِعَ الكتابُ   واقتربَ الموعدُ والحسابُ

فرفع الكتاب ، واقتراب الساعة ، التى يحاسب فيها المرء على ما قدمت يداه من المعانى المستمدة من القرآن الكريم ، والحديث الشريف .

أما ما جاء به الإسلام ، وردّده القرآن فى كثير من آياته من ربط ثواب الإنسان وعقابه ، بما يقدم من خير أو شر فى حياته الدنيا ، فإن من شعراء البادية من عبر عن هذا المبدإ الإسلامى .

فقد روى أن أعرابيا وقف على علىّ بن طالب ، وشكا فقره ، فكساه حلة ، فلما أخذها ، مثل بين يديه قائلا (٣) :

كسوْتَنِى حُلَّةً تَبْلَى محاسنُها   فسوفَ أكسوكَ من حُسْنِ الثّنا حُللا
إنّ الثناء لَيُحيى ذكرَ صاحبه   كالغيثِ يُحيى نَداه السَّهْلَ والجَبَلا
لا تزهد الدهرَ فى عُرف بدأت به   فكلُّ عبد سيُجْزَى بالذِى فعَلا

ألا ترى كيف عبر هذا الأعرابى عن هذا المبدأ الإسلامى فى البيت الثالث ؟؟

ولأبى ليلى النابغة الجعدى شعر حافل بالمعانى الدينية ، منه قوله (٤):

---

(١) سورة الشعراء : ٨٨ — ٨٩ .
(٢) ديوان الهذليين ١٣٠٦/٣ : ومعاهد التنصيص للعباسى ١٧٠/٢ (مطبعة السعادة القاهرة ١٣٦٧ هـ) .
(٣) العمدة ١٢/٤
(٤) الشعر والشعراء ١٦٢ ، وانظر الأغانى ١٣٠/٤

الحمدُ لله لا شريك له ... مَنْ لَمْ يقُلْها فنفسَه ظَلما
المولج الليلَ فى النهار وفى الليـ ... ـل نهاراً يُفرِّج الظُّلما
الخافض الرَّافع السماء على الـ ... أرْضِ ولم يَبْن تحتها دِعَما
الخالق البارىء المصور فى الـ ... أرحام ماءً حتى يصير دَما
من نطفةٍ قدّها مقدّرها ... يخلقُ منها الأبشار والنَّسما
ثم عظاماً أقامها عصب ... ثُمت لحماً كساه فالتأما
ثم كسا الريشَ والعقائقَ أبـ ... ـشاراً وجِلداً تخالُه أدما
والصوتُ واللون والمعايش والـ ... أخلاقَ شتى وفرَّق الكلما
ثُمت لا بد أن سيجمعكم ... والله جهراً شهادةً قسَما

فالألفاظ والمعانى كلها إسلامية ، مستمدة من القرآن الكريم ، ففى البيت الثانى يكاد الشاعر ينظم الآية الكريمة : ﴿ يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل ﴾ (١) .

وكذلك رفع السماء بغير عمد ، وتصوير مراحل الخلق ، واختلاف الناس فى الألسنة والألوان والمعايش ، وجمعهم للحساب يوم القيامة ، كلها تحدث عنها القرآن فى كثير من آياته (٢) ، فتأثر بها الشاعر فى نظمه .

وهذا الشعر الذى يكاد ينظم آيات من القرآن ، لا يمكن إلا أن يكون قد قيل فى الإسلام – لا فى الجاهلية – كما قيل ، إلا أن تكون نسبته إلى النابغة الجعدى ، غير صحيحة (٣) .

---

(١) سورة الحج : ٦١

(٢) انظر مثلا : سورة المؤمنون : ١٢ – ١٤

(٣) هناك شك فى نسبة هذا الشعر للجعدى .
انظر : الأغانى ٤/١٣٠ ، وانظر : شعر المخضرمين ٢٢٨

ومع ذلك فهناك شعر صادق النسبة إلى النابغة الجعدى ، تتضح فيه هذه الروح الدينية الإسلامية ، قال النابغة (١) :

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ويتلو كتاباً كالمَجرّة نيّرا

وجاهدتُ حتى ماأحس ومن معى سُهيْلاً إذا مالاح ثمت غوّرا

أقيم على التقوى وأرضى بفعله وكنتُ من النار المَخوفة أوْجرا

ويقال إن الجعدى أنشد القصيدة التى منها هذه الأبيات بين يدى الرسول ، فأعجب بها وأثنى عليه من أجلها ، ودعا له ، قائلا (لا يفضض الله فاك) (٢) .

ولبيد بن ربيعة هو الآخر شاعر بدوى ، جاهلى الشعر ، ولكنه على ذلك كان متأثرا بالإسلام فى غير قليل من شعره .

ففى ديوانه نماذج عدة تشهد بالأثر الدينى فى شعره ، من ذلك قوله (٣) :

إن تقوى ربنا خير نَفلْ وبإذن الله رَيثى وعجلْ

أحمدُ الله فلا نِدّ له بيديه الخير ما شاء فعلْ

من هداه سُبَلَ الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضلّ

فلبيد لم ينظم هذا الشعر إلا بعد أن قرأ أو سمع هذه الآيات : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ و ﴿ بيده الخير وهو على كل شىء قدير ﴾ و ﴿ من يهد الله فهو المهتد ﴾ و ﴿ من يشأ الله يضلله ﴾ ، وأمثال هذه المعانى فى القرآن كثير ، وقوله (٤) :

---

(١) الأغانى ٤/١٣٠ ، وانظر : الشعر والشعراء ١٥٨

(٢) الشعر والشعراء ١٥٨ والأغانى ٤/١٣٠

(٣) ديوانه ١٧٤ و الأغانى ١٤/٩٥

(٤) ديوانه ٢٤٦

تلوم على الإهلاكِ فى غير ضِلّة وهل لىَ ما أمسكتُ إن كنت باخِلا
رأيت التُّقى والحمد خير تجارة رباحاً إذا ما المرءُ أصبح ثاقلا

فالتقى والحمد ألفاظ إسلامية ، والبيت الثانى كله يعيد فى الأذهان قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله .. ﴾ (١) .

وقوله : (٢)

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطل وكلُّ نعيم لا محالةَ زائل
وكل امرىءٍ يوماً سيعلم سعيهُ إذا كُشفت عند الإله المحاصِل

وفى البيت الأخير يتضح أثر قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إذا بُعْثِر مافى القُبورِ * وحُصِّل مافى الصُّدور ﴾ (٣) .

ويبدو تأثره الشديد بالمعانى القرآنية فى قوله (٤) :

فواعجباً كيف يُعصَى الإلـ ـه أم كيف يجْحدُهُ الجاحدُ
وفى كلِّ شيءٍ له آية تدل على أنهُ واحِدُ
ولله فى كلِّ تحريكةٍ وتسكينةٍ أبداً شاهِـدُ

ونستطيع أن نورد فى معنى كل شطر من هذه الأبيات آية أو آيات من كتاب الله ، وفى هذا دلالة على أن لبيدا قرأ وفهم وتدبر كثيرا من آيات القرآن – على الأقل – وتأثر بها فى هذا الشعر وأمثاله .

---

(١) سورة الصف : ١٠ – ١١
(٢) ديوانه ٢٥٦
(٣) سورة العاديات : ٩ – ١٠
(٤) ديوانه (ذيل الديوان) ٣٦٣

وللعباس بن مرداس السلمى شعر يدل على تفهمه تعاليم الإسلام ، واطلاعه على آيات من القرآن – إلى حد ما – من ذلك قوله (١) :

فآمنتُ باللهِ الذى أنا عبدُه وخالفتُ مَنْ أمْسَى يُريد المَمالِكَا
ووجَّهتُ وجهي نحو مكة قَاصداً وتابعتُ بين الأخْشبيْنِ المباركا
نبيٌّ أتانا بعدَ عيسى بناطقٍ من الحق فيه الفصلُ منه كذلكا
أميناً على الفُرقان أول شافعٍ وَآخر مبعوث يجيب الملائكا
تلافى عُرى الإسلام بعد انفصامها فأحكمها حتى أقام المَناسِكا

وقوله (٢) :

بَلِّغْ عبادَ الله أن محمداً رسول الإله راشدٌ أين يمَّما
دعا قومَه واستنصر اللهَ ربه فأصبح قد وافى الإله وأنعما
عشيةَ واعدْنا قديداً محمداً يَؤُم بنا أمراً من الله مُحكما

وكذلك جاءت معان وألفاظ قرآنية فى شعر للحُصَيْن بن الحُمام المرى ، يقول فيه (٣) :

فلم يَبقَ من ذاك إلا التُّقى ونفس تعالجُ آجالها
أمورٌ من الله فوق السما ء مقادير تنزِل إنْزالها
أعوذ بربى من المخزيا ت يوم ترى النفسُ أعمالها
وخف الموازين بالكافرين وزُلزلت الأرضُ زِلزالها
ونادى مُنادٍ بأهلِ القبو ر فهبوا لِتبرزَ أثْقالها
وسُعِّرتِ النارُ فيها العقا بُ وكان السلاسلُ أغلالها

---

(١) الأغانى ٦٣/٣ . الأخشبان : جبلان محيطان بمكة هما أبو قبيس والأحمر .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) الأغانى ١٢٣/١٢

فلم تكن هذه المعانى فى القضاء والقدر ، والآجال والحساب ، والبعث والعذاب ، لتتفق للحصين ، لو لم يكن قد قرأ أو سمع سور : القارعة ، والزلزلة ، والغاشية وغيرها .

وفى معنى أن الإيمان عزة وفوز ، والكفر ذل وخسران ، يقول بجير ابن زهير (١) :

والله أكرمنا وأظهر ديننا   وأذلّهم بعبادةِ الشيطان

فضلا عن أن الألفاظ فى جملتها إسلامية كما نرى .

وها هو ذا الحطيئة ، على ما عرف به من فساد الدين ، حيث دخل فى زمرة المرتدين ، بعد وفاة النبى ، وقال شعراً فى الردة ، يحرض فيه على قتال المسلمين ، ويسخر من الخليفة أبى بكر (٣) :

فِدّى لبنى ذبيان أمي وخالتى   عشيةَ يُحدى بالرّماح أبو بكر
أَبَوْا غير ضرب يَحطِم الهامَ رأسه   وطعن كأفواه المرقعة الحُمْر
فقوموا ولا تعطوا اللئام مقادةً   وقُوموا وإن كان القيامُ على الجَمْرِ
أطعنَا رسولَ الله إذْ كان صادقاً   فيا عجبا ما بال دين أبى بكر
أيُورثها بكراً إذا مات بعدَه   وتلك وبيت الله قاصمةُ الظَّهْر (٤)

هذا الحطيئة نراه يلم فى بعض شعره بالألفاظ والمعانى الإسلامية ، فيقول (٥) :

---

(١) السيرة ق ٢/٤٥٩

(٢) ديوانه ٣٢٩

(٣) ديوانه ٣٩٣

(٤) ديوانه ٢٩٣

(٥) ديوانه ٢٢٩

ولستُ أرى السعادَة جمعَ مالٍ ولكنَّ التقىَّ هو السعيدُ
وتقوى الله خيرُ الزّادِ ذُخراً وعندَ الله للأتْقى مَزِيدُ

فهذا من المعانى الإسلامية الجليلة ، وواضح تأثر الحطيئة فى البيت الثانى بالآية الكريمة : « وتَزَودوا فإنَّ خَيْر الزَّاد التّقوى » .

وقد مرت بنا أبيات لعبدة بن الطبيب يوصى فيها أبناءه بتقوى الله ، وبر الوالدين ، والحذر من النمام ، متأثرا فى كل ذلك بآيات قرآنية أوردناها ، ومن معانيه الإسلامية أيضا قوله [١] :

نرُجوا فواضِلَ رب سَيْبُه حسنٌ وكل خيرٍ لديه فهْوَ مقبول
ربٌّ حبانا بأموالٍ مخوَّلةٍ وكل شىء حباه الله تخْويلُ
والمرءُ ساعٍ لأمرٍ ليس يُدركه والعيشُ شُحٌّ وإشفاقٌ وتأمِيل

وكان المخبل السعدى قد هجا الزبرقان بن بدر ، وتعرض لأخته (خليدة) فى هذا الهجاء ، ثم مر بها بعد حين ، وقد أصابه كسر ، وهو لا يعرفها ، فآوتهُ وجبرت كسره ، فلما عرفها قال [٢] :

لقد ضلَّ حِلمى فى خليدةَ ضِلّةً سأعتبُ نفس بعدَها وأتُوبُ
وأشهدُ والمُستغْفَرُ اللهُ أننى كذبتُ عليها والهجاءُ كذُوبُ

فالندم والتوبة ، وطلب الغفران من الله ، معان إسلامية عالجها القرآن كثيرا .

وهناك أمثلة أخرى من هذا الضرب فى شعر البادية المتأثر بالإسلام ، يمكن التقاطها من شعر شعرائها فى عهد الراشدين ، والملاحظ أن المعانى الدينية الواردة فيه تمتاز بالبساطة والوضوح والإيجاز ؛ إذ كان الشعر البدوى

---

(١) المفضليات ١٤٢

(٢) خزانة الأدب للبغدادى ٥٣٦/٢ (طبعة بولاق ١٢٩٩ هـ) .

بعامة لا يميل إلى التعليل والتحليل والتعمق ، فالشاعر البدوى ، سواء المتأثر بالإسلام تأثرا واضحا ، أم الذى كان أثر الإسلام فيه ضعيفا ، لا يطيل الوقوف عند المعانى الدينية ، ولا يعالجها إلا فى أبيات قليلة ، تأتى ضمن القصيدة ، وتتناول فى الوقت نفسه المعانى البسيطة الظاهرة فى غير عمق ، أو تأمل دقيق بشكل عام ، ومهما يكن من أمر الشعر المتأثر بالإسلام فى البادية ، فإنه لا يمثل إلا جزءا ضئيلا من نتاج البادية الشعرى فى هذا العصر .

وأين هذا الشعر من قول حسان بن ثابت – مثلا – فى رثاء الرسول ﷺ (١) :

لقد غَيبُوا حِلماً وعلماً ورحمةً ... عشيةَ علَّوْهُ الثَّرى لا يُوسد

يُبكون من تبْكى السمواتُ يومه ... ومن قد بكته الأرضُ فالناسُ أكمدُ

يدلُّ على الرحمن منْ يَقتدى به ... وينقذ من هول الخزايا ويُرشد

عفوٌ عن الزلات يقبلُ عذرَهم ... وإن يُحسنوا فالله بالخير أجودُ

عزيزٌ عليه أن يجوروا عن الهدى ... حريصٌ على أن يستقيموا ويهتدُوا

وليسَ هوايَ نازعاً عن ثنائه ... لَعلِّى به فى جنةِ الخُلد أخُلد

وقوله فى مدح الرسول ﷺ والابتهال إلى الله (٢) :

نبيٌّ أتانا بعد يأسٍ وفترةٍ ... من الرُّسْل والأوثانُ فى الأرضُ تُعبدُ

فأمسى سراجاً مستنيراً وهادياً ... يلوحُ كما لاح الصَّقيل المهنَّدُ

وأنْذَرنــا ناراً وبشّر جنــةً ... وعلَّمنا الإسلامَ فالله نحْمدُ

وأنتَ إله الخلقِ ربى وخالقى ... بذلك ما عمَّرت فى الناس أشهدُ

---

(١) ديوانه ٩١ والسيرة ق ٢/٦٦٧

(٢) ديوانه ٧٨

تعاليتَ ربَّ الناس عن قولِ من دَعا ... سواك إلهاً أنتَ أعْلى وأمْجدُ
لك الخلقُ والنَّعْماء والأمر كلُّه ... فإياك نستهدِى وإيَّاك نَعبدُ
لأنَّ ثوابَ الله كلَّ مُوحِّدٍ ... جِنانٌ من الفردوس فيها يُخلَّدُ

هنا تتجلى العاطفة الدينية الحارة ، الصادقة ، التى وجهها الإسلام ، وهذبها القرآن ، واستولى عليها الهدى الإلهى ، ففاضت بمعان دينية عميقة مسترسلة ، واجتذبتها بلاغة القرآن فامتاحت منها ، واستعارت بيانها ، فالاقتباس من القرآن الكريم ، والاستمداد من معانيه واضحان فى هذا الشعر .

انظر مثلا إلى قوله (عزيز عليه أن يجوروا ... البيت) إنه مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ (١) ، وقوله (فإياك نستهدى وإياك نعبد) مأخوذ من فاتحة القرآن « إياك نعبد وإياك نستعين » .

ومثال آخر للشعر المتأثر بالقرآن تأثراً واضحاً فى معناه ومبناه ، وهو قول خُبيْب بن عدى الصحابى ؛ لما غدرت بعض القبائل به وبنفر معه ، كان الرسول قد أرسلهم إلى هذه القبائل ، ليفقهوهم فى الدين ، بعد أن طلبوا منه ذلك ، فأخذوا خبيبا ، وأعدوا لصلبه ، فقال (٢) :

إلى الله أشكُو غربتى ثمَّ كُرْبَتى ... وما أرْصدَ الأحزابُ لِى عند مَصرَعى
فذَا العرش صبِّرنى على ما يُراد بِى ... فقد بضَّعوا الحَمْى وقد ياسَ مَطمَعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأْ ... يبارِكْ على أوصال شِلْوٍ مُمَزّع
وقد خيرونى الكفر والموتُ دونه ... وقد هَملت عيناى من غير مجزع
فوالله ما أرجوا إذا متُّ مسلماً ... على أىِّ جنبٍ كان فى الله مصْرعى
فلستُ بمبْدٍ للعدوِّ تخشُّعاً ... ولا جزعاً إنى إلى الله مرجعى

---

(١) سورة التوبة : ١٢٨
(٢) السيرة ق ١٧٦/٢

فهذا الصحابى الجليل يعبر عن تجربة قاسية ، واختبار شديد لإيمانه ؛ فالموت يترصده ؛ ولكنه يلتمس الصبر من الله سبحانه ، والعون على استقبال الموت استقبال الشهداء الصابرين ، وهو لا يجزع مما يراد به ؛ لأنه يعلم أن ذلك فى سبيل الله ، وأن الله سوف يمنحه البركة والمثوبة ، ويأبى أن يفتدى نفسه بالكفر ، حين طلب منه الأعداء أن يكفر ؛ لينجو من الموت ، فأمنيته أن يموت على الإسلام ، ويلقى الله على الشهادة ، قائلا : إنا لله وإنا إليه راجعون .

وهاك مثلا ثالثاً ، من قول كعب بن مالك ، فى إجلاء بنى النضير ، وتمجيد الرسول ﷺ (١) :

لقد خزيت بغدرتها الحبور ... كذاك الدهر ذو صرفٍ يدورُ
وذلك أنهم كفروا بربٍّ ... عزيز أمرُه أمرٌ كبيرُ
وقد أُوتوا معاً علماً وفهماً ... وجاءهُم من الله النّذيرُ
نذيرٌ صادقٌ أدىّ كتاباً ... وآياتٍ مبينةٍ تُنيرُ
فقالوا ما أتيت بأمر صدقٍ ... وأنت بمنكَرٍ منا جديرُ
فقال بلى لقد أديتُ حقاً ... يُصدقنى به الفهِمُ الخبيرُ
فمنْ يتبعهُ يُهد لكل رُشدٍ ... ومنْ يكفُر به يُجز الكفور
أرى الله النبىَّ برأى صدقٍ ... وكان الله يحكُم لا يجورُ
فأيدهُ وسلطهُ عليهم ... وكان نصيرُه نعم النّصيرُ ..

فهذا الشعر أوضح برهان على تأثر شاعر الرسول بأسلوب القرآن فى محاجة أهل الكتاب ، ولسنا هنا نحكم على جزالة الشعر أو فنيته ، فحظه

---

(١) ديوانه ٣٠٣ ، والسيرة ق ٢/١٩٩

الحبور : جمع حبر ، وهو العالم بالدين اليهودى ، وهذا هو المراد هنا .

من ذلك متواضع ، ولكننا فى مقام التمثيل للأثر الدينى القوى فى شعر أمثال هذا الشاعر ، ممن قويت صلتهم بالإسلام ورسوله وكتابه .

ويستطيع القارىء لسيرة ابن هشام وغيرها ، من كتب التاريخ والسير والمغازى ، أن يجد نماذج كثيرة لمثل ما قدمنا من الشعر ، الذى فاضت به قلوب تعمقها الإسلام ، فجرى على ألسنة نذرها أصحابها للاشادة بالنبى (ﷺ) ودعوته ، وإعلاء شأنهما ، والدفاع عنهما .

* * *

وبعد :

فهذه دراسة للحياة الأدبية فى هذا العصر ، الذى سعد بطلعة الرسول الكريم ، وخيرة أصحابه الأبرار ، يسرها الله ، فجاءت ملمة بأطراف هذه الحياة الفنية ، ربما لأول مرة ، على أساس من الدراسة العلمية ، التى تعتمد على النصوص ، وتحليلها ، واستنباط الأحكام على ضوئها ، ولم تطل فتمل ، ولم تقصر عن الغاية فتخل ، أخليناها من الترجمة لأدباء العصر ، اكتفاء بالإشارة إلى مصادر آثارهم ، فأكثرها يترجم لهم ، ورجونا أن ينفع الله بها من اتقاه ، فهو القائل : « واتقوا الله ، ويعلمكم الله » .

والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

* * *

المراجع والمصادر

١ – القرآن الكريم

(أ)

٢ – الإتقان فى علوم القرآن : جلال الدين السيوطى – مطبعة حجازى – القاهرة ١٣٦٨ هـ .

٣ – أثر القرآن فى تطور النقد : الدكتور محمد زغلول سلام – دار المعارف بمصر ١٩٦١ م .

٤ – الأخبار الطوال : أبو حنيفة أحمد بن داود الدينورى – طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومى – القاهرة ١٩٦٠ م .

٥ – أخبار مكة : محمد بن عبد الله الأزرقى – طبعة مكة ١٢٧٥ هـ .

٦ – أدب السياسة فى العصر الأموى : الدكتور أحمد محمد الحوفى – طبعة نهضة مصر – القاهرة ١٩٦٩ م .

٧ – أدب الكاتب : أبو بكر محمد بن يحيى الصولى – بعناية محمد بهجت الأثرى – السلفية ١٣٤١ هـ .

٨ – الاستيعاب فى معرفة الأصحاب : أبو عمر يوسف بن عبد الله المعروف بابن عبد البر – طبعة حيدر أباد – ١٣١٨ – ١٣١٩ هـ .

٩ – الإسلام والشعر : يحيى الجبورى – مطبعة الإرشاد – بغداد ١٩٦٤ م .

١٠ – الإصابة فى تمييز الصحابة : ابن حجر العسقلانى – المطبعة الشرفية – القاهرة ١٣٢٥ هـ ومطبعة السعادة ١٣٢٣ هـ .

١١ – الأصنام : أبو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبى – طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٤ م .
١٢ – إعجاز القرآن : أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى – طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٤ م .
١٣ – إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : مصطفى صادق الرافعى – مطبعة الاستقامة – القاهرة ١٩٥٢ م .
١٤ – الأغانى : أبو الفرج الأصفانى – طبعة الساسى ؛ وطبعة دار الكتب .
١٥ – الأمالى والنوادر : أبو على إسماعيل بن القاسم القالى – طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٦ م .
١٦ – أمراء الشعر فى العصر الجاهلى : الدكتور صلاح الدين الهادى : مطبعة قاصد خير – القاهرة ١٩٧٥ م .
١٧ – أنيس الجلساء فى ديوان الخنساء : أحد الآباء اليسوعيين – المطبعة الكاثوليكية – بيروت ١٨٨٨ م .
١٨ – الأوائل : جلال الدين السيوطى : طبعة المدينة المنورة ١٩٦٦ م .

(ب)

١٩ – البداية والنهاية : عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير – مطبعة السعادة القاهرة ١٩٣٢ م .
٢٠ – بلاغة الكتاب فى العصر العباسى : الدكتور محمد نبيه حجاب – المطبعة الفنية الحديثة – القاهرة ١٩٦٥ م .
٢١ – بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب : السيد محمد شكرى الألوسى – الطبعة الثانية – القاهرة ١٣٤٢ هـ .
٢٢ – البيان والتبيين : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ – طبعة السندوبى – القاهرة ١٩٣٢ م .

(ت)

٢٣ – تاريخ آداب العرب : مصطفى صادق الرافعى – الطبعة الأولى – الاستقامة – القاهرة ١٩٤٠ م .
٢٤ – تاريخ الآداب العربية : كارلونالينو – طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٤ م .

٢٥ – تاريخ آداب اللغة العربية : جورجى زيدان – طبعة دار الهلال بمصر ١٩٣٦ م .
٢٦ – تاريخ الأدب العربى : أحمد حسن الزيات – طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة ١٩٣٥ م .
٢٧ – تاريخ الأدب العربى : كارل بروكلمان (ترجمة عبد الحليم النجار) – طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٩ م .
٢٨ – تاريخ الأدب العربى فى صدر الإسلام والعصر الأموى : السباعى بيومى – الطبعة الثانية ١٩٣٥ م .
٢٩ – تاريخ الجاهلية : عمر فروخ – بيروت ١٩٦٤ م .
٣٠ – تاريخ الشعر السياسى : أحمد الشايب – طبعة النهضة المصرية ١٩٤٥ م .
٣١ – تاريخ الشعر العربى حتى أواخرالقرن الثالث الهجرى : الدكتور محمد نجيب البهبيتى – طبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م .
٣٢ – تاريخ العرب قبل الإسلام : جواد على – طبعة المجمع العراقى – بغداد بلا تاريخ .
٣٣ – تاريخ الطبرى (تاريخ الأمم والملوك) : محمد بن جرير الطبرى – المطبعة الحسينية – القاهرة بلا تاريخ .
٣٤ – التاريخ الكبير : ابن عساكر – طبعة الشام ١٣٢٩ هـ .
٣٥ – تاريخ النقائض فى الشعر العربى : أحمد الشايب – مطبعة الاعتماد – القاهرة ١٩٤٦ م .
٣٦ – تأويل مختلف الحديث : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة – طبعة الكردى – القاهرة ١٣٢٦ هـ .
٣٧ – التصوير الفنى فى القرآن : سيد قطب – طبعة بيروت بلا تاريخ .
٣٨ – تطور الأساليب النثرية فى الأدب العربى : أنيس المقدسى – طبعة بيروت ١٩٣٥ م .
٣٩ – التطور والتجديد فى الشعر الأموى : الدكتور شوقى ضيف – طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة ١٩٥٢ م .
٤٠ – تفسير الطبرى (جامع البيان فى تفسير القرآن) : محمد بن جرير الطبرى – طبعة بولاق ١٣٢٥ هـ .

٤١ – تيسير الوصول إلى جامع الأصول : ابن الديبع الشيبانى – مصر ١٣٣٠ هـ .

(ج)

٤٢ – جامع الأصول فى أحاديث الرسول : مجد الدين بن الأثير – مطبعة السنة المحمدية – القاهرة ١٩٥٠ م .

٤٣ – الجاهلية (مقدمة فى الحياة العربية لدراسة الأدب الجاهلى) : يحيى الجبورى – مطبعة المعارف ببغداد ١٩٦٨ م .

٤٤ – جمهرة أشعار العرب : أبو زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى – طبعة بولاق ١٣٠٨ هـ .

(ح)

٤٥ – فتح البارى شرح صحيح البخارى – طبعة السلفية بمصر .

٤٦ – حضارة العرب : جوستاف لوبون (ترجمة عادل زعيتر) – طبعة الحلبى – القاهرة ١٩٢٥ م .

٤٧ – الحياة العربية من الشعر الجاهلى : الدكتور أحمد محمد الحوفى – الطبعة الرابعة – نهضة مصر ١٩٦١ م .

٤٨ – الحيوان : الجاحظ – طبعة الحلبى ١٣٢٥ هـ .

(خ)

٤٩ – خزانة الأدب : عبد القادر بن عمر البغدادى – طبعة بولاق ١٢٩٩ هـ .

٥٠ – الخطابة فى صدر الإسلام : الدكتور طاهر درويش – طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٥ م .

(د)

٥١ – دراسات فى العربية وتاريخها : الشيخ محمد الخضر حسين – طبعة دمشق ١٩٦٠ م .

٥٢ – دلائل الإعجاز : القاضى عبد القاهر الجرجانى – مطبعة المنار – القاهرة ١٣٧٢ هـ .

٥٣ – ديوان أبى محجن الثقفى – مطبعة بريل ١٨٨٧ م .

٥٤ – ديوان الإمام الشافعى – نشرة محمد عفيف الزغبى – بيروت .

٥٥ – ديوان امرىء القيس الكندى – بتحقيق أبو الفضل إبراهيم – دار المعارف بمصر ١٩٥٨ م .

٥٦ – ديوان أمية بن أبى الصلت : طبعة ليبزج ١٩١١ م .
٥٧ – ديوان أوس بن حجر : بتحقيق الدكتور يوسف نجم – بيروت ١٩٦٠ م .
٥٨ – ديوان حسان بن ثابت : بعناية عبد الرحمن البرقوقى – مطبعة السعادة بمصر بلا تاريخ .
٥٩ – ديوان الحطيئة : بتحقيق نعمان أمين طه – الحلبى ١٩٥٨ م .
٦٠ – ديوان حميد بن ثور الهلالى – طبعة دار الكتب المصرية ١٣٧١ هـ .
٦١ – ديوان السموءل بن عادياء – بعناية عيسى سابا – بيروت ١٩٥١ م .
٦٢ – ديوان الشماخ بن ضرار الذبيانى : بتحقيق صلاح الدين الهادى – طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٨ م .
٦٣ – ديوان عبيد بن الأبرص : بتحقيق الدكتور حسين نصار – طبعة الحلبى – القاهرة ١٩٥٧ م .
٦٤ – ديوان كعب بن زهير (شرح ديوان كعب) – طبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م .
٦٥ – ديوان كعب بن مالك الأنصارى : بتحقيق مكى العانى – مطبعة دار المعارف ببغداد ١٩٦٦ م .
٦٦ – ديوان لبيد بن ربيعة : بتحقيق الدكتور إحسان عباس – الكويت ١٩٦٢ م .
٦٧ – ديوان المزرد بن ضرار الذبيانى : بتحقيق خليل إبراهيم العطية – بغداد ١٩٦٢ م .
٦٨ – ديوان الهذليين : بتحقيق عبد الستار فراج ومحمود شاكر – مطبعة المدنى – القاهرة ١٩٦٥ م .

(ذ)

٦٩ – ذيل الأمالى والنوادر : أبو على إسماعيل بن القاسم القالى – طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٦ م .

(ز)

٧٠ – زهر الآداب : أبو إسحاق إبراهيم بن على الحصرى – بعناية الدكتور زكى مبارك – المطبعة الرحمانية – القاهرة ١٩٢٥ م .

(س)

٧١ – سجع القرآن فريد (مقالة للدكتور أحمد الحوفى) مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة – ج ٢٨ نوفمبر ١٩٧١ م .

٧٢ – سمط اللآلى : أبو عبيد البكرى – لجنة التأليف ١٩٣٦ م .
٧٣ – السيرة النبوية (سيرة ابن هشام) – الطبعة الثانية – الحلبى ١٩٥٥ م .
٧٤ – سنن أبي داود : دار إحياء السنة النبوية – بيروت .
٧٥ – سنن ابن ماجة – طبعة الحلبى ١٩٥٤ م .

(ش)

٧٦ – شرح نهج البلاغة : ابن أبى الحديد – طبعة الحلبى : القاهرة ١٩٥٩ م .
٧٧ – شعراء النصرانية بعد الإسلام : لويس شيخو – الطبعة الثانية – دار المشرق بيروت ١٩٦٧ م .
٧٨ – شعر الفتوح الإسلامية فى صدر الإسلام : النعمان عبد المتعال القاضى – الدار القومية للطباعة والنشر – القاهرة ١٩٦٥ م .
٧٩ – شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه : يحيى الجبورى – دار النهضة – بغداد ١٩٦٤ م .
٨٠ – الشعر والشعراء : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة – طبعة ليدن ١٩٠٢ م .
٨١ – شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام : الحافظ تقى الدين بن أحمد الفاسى – طبعة الحلبى – القاهرة ١٩٥٦ م .
٨٢ – الشماخ بن ضرار الذبيانى (حياته وشعره) صلاح الدين الهادى – طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٨ .
٨٣ – الشوقيات (ديوان شوقى) مطبعة مصر بلا تاريخ .

(ص)

٨٤ – صبح الأعشى فى صناعة الإنشا : أبو العباس أحمد بن عبد الله القلقشندى – بولاق – ١٩١٣ – ١٩١٩ م
٨٥ – صحيح البخارى – طبعة القاهرة ١٩٣٢ م
٨٦ – صحيح مسلم – بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقى – طبعة الحلبى – القاهرة ١٩٥٥ م ، وشرح النووى – دار الفكر – بيروت ١٩٨١ م .
٨٧ – صدر الإسلام – جورج غريب – دار الثقافة ببيروت بلا تاريخ .
٨٨ – الصناعتين : أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى ، المطبعة التجارية – القاهرة ١٩٥٢ م .

(ط)

٨٩ – طبقات الأمم : صاعد بن أحمد الأندلسي – طبعة الكاثوليكية – بيروت ١٩١٢ م .

٩٠ – طبقات فحول الشعراء : محمد بن سلام الجمحى – بتحقيق محمود شاكر – مطبعة المدنى – القاهرة ١٩٧٤ م .

٩١ – الطبقات الكبرى : أبو عبد الله محمد بن سعد – طبعة بيروت ١٩٥٧ . وطبعة ليدن ١٣٢٢ هـ .

٩٢ – الطراز : يحيى بن حمزة العلوى (طبعة المقتطف – مصر ١٩١٤ م) .

(ع)

٩٣ – العقد الفريد : أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه – الطبعة الأولى – الجمالية – القاهرة ١٩١٣ م .

٩٤ – العمدة فى صناعة الشعر ونقده : ابن رشيق القيروانى – الطبعة الأولى (أمين هندية) – القاهرة ١٩٢٥ م .

٩٥ – عيون الأخبار : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة – طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٥ – ١٩٢٨ م

(ف)

٩٦ – الفائق فى غريب الحديث والأثر : أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى – بتحقيق أبو الفضل والبجاوى (الحلبى) القاهرة ١٩٤٥ م .

٩٧ – فتوح البلدان : أحمد بن يحيى البلاذرى – دار النشر للجامعيين – القاهرة ١٩٥٧ م .

٩٨ – فجر الإسلام : أحمد أمين – الطبعة الثانية – القاهرة ١٦٣٢ م .

(ق)

٩٩ – القرآن والتفكير : الدكتور أحمد محمد الحوفى – نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة ١٩٧٥ م .

(ك)

١٠٠ – الكامل فى التاريخ : أبو الحسن عز الدين بن الأثير – طبعة الحلبى . القاهرة ١٣٠٣ هـ .

١٠١ – الكامل فى اللغة والأدب : أبو العباس محمد بن يزيد المبرد – طبعة دار العهد الجديد بالخرنفش بلا تاريخ .

١٠٢ – كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس : العجلونى – مكتبة التراث الإسلامى – حلب .
١٠٣ – اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة – جلال الدين السيوطى – المكتبة التجارية الكبرى – القاهرة بلا تاريخ .
١٠٤ – اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان : محمد فؤاد عبد الباق – طبعة الحلبى – القاهرة ١٩٤٩ م .
١٠٥ – المجازات النبوية : الشريف الرضى – طبعة الحلبى – القاهرة ١٩٥٥ م .
١٠٦ – مجمع الأمثال : أبو الفضل أحمد بن محمد الميدانى – طبعة بولاق – القاهرة ١٣١٠ هـ .
١٠٧ – مرآة الإسلام : الدكتور طه حسين – طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٩ م
١٠٨ – مروج الذهب ومعادن الجوهر : المسعودى – طبعة محيى الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٥٨ م وطبعة المطبعة البهية – القاهرة ١٣٤٦ هـ .
١٠٩ – مسند الإمام أحمد بن حنبل – المطبعة الميمنية – القاهرة ١٣١٣ هـ . وطبعة المكتب الإسلامى – بيروت .
١١٠ – معاهد التنصيص : عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد العباسى – مطبعة السعادة – القاهرة ١٣٦٧ هـ .
١١١ – معجم البلدان : ياقوت الحموى – طبعة ليبزج ١٨٦٦ م .
١١٢ – المعمرون والوصايا : أبو حاتم السجستانى – طبعة ليدن ١٨٩٩ م .
١١٣ – المفضليات : بتحقيق شاكر وهارون – الطبعة الثالثة – دار المعارف بمصر ١٩٦٤ م .
١١٤ – مقاتل الطالبيين : أبو الفرج الأصفهانى – بتحقيق السيد أحمد صقر – الحلبى – القاهرة ١٩٤٩ م .
١١٥ – مقدمة ابن خلدون : مطبعة التقدم – القاهرة ١٣٢٩ هـ .
١١٦ – مقدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث : عثمان بن عبد الرحمن الشهرزورى المعروف بابن الصلاح – طبعة بومباى ١٣٥٧ هـ .
١١٧ – مكة والمدينة : أحمد إبراهيم الشريف – الطبعة الثانية – دار الفكر العربى – القاهرة ١٩٦٥ م .
١١٨ – الملل والنحل : الشهرستانى – المطبعة الأدبية بمصر ١٣٢٠ هـ .

١١٩ – من بلاغة القرآن : الدكتور أحمد أحمد بدوى – الطبعة الثالثة – نهضة مصر ١٩٥٠ م .

١٢٠ – من حديث الشعر والنثر : الدكتور طه حسين – طبعة دار المعارف بمصر ١٩٣٦ م .

١٢١ – الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء : أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزبانى – طبعة السلفية – القاهرة ١٩٢٩ م .

(ن)

١٢٢ – النثر الفنى فى القرن الرابع : الدكتور زكى مبارك – طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٤ م .

١٢٣ – النثر الفنى وأثر الجاحظ فيه : الدكتور عبد الحكيم بلبع – الطبعة الأولى – القاهرة بلا تاريخ .

١٢٤ – نهاية الأرب فى فنون الأدب : شهاب الدين النويرى – طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٤ م .

١٢٥ – النهاية فى غريب الحديث : أبو السعادات المبارك بن محمد المعروف بابن الأثير – المطبعة الخيرية – القاهرة ١٣٢٢ هـ .

١٢٦ – **Nicholson; A'lterary History of the arabs . London, 1907.**

فهرس الموضوعات

الباب الأول

النثر فى عهد النبوة والراشدين
فنونه – خصائصه

الفصل الأول : أقوال الرسول

الفصل الثانى : الكتابة الفنية

* * *

الناشر
مكتبة الخانجي بالقاهرة